الطبعة
6

أشرف العشماوي

المُرشد

رواية

«الزمن لايغير الناس وإنما يكشف حقيقتهم تباعًا»

الدار المصرية اللبنانية

المرشد

رواية

العشماوي، أشرف.
المرشد: رواية / أشرف العشماوي. – ط5.–
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2014.
408 ص؛ 20 سم.
تدمك: 1 – 805 – 427 – 977 – 978
1– القصص العربية.
أ – العنوان. 813
رقم الإيداع: 2642 / 2013

©
الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: ربيع أول 1434هـ – يناير 2013م
الطبعة الثانية: ربيع ثاني 1434هـ – فبراير 2013م
الطبعة الثالثة: ربيع ثاني 1434هـ – مارس 2013م
الطبعة الرابعة: جماد ثاني 1434هـ – مايو 2013م
الطبعة الخامسة: جماد ثاني 1435هـ – أبريل 2014م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في
هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا
أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

«الزمن لا يحكم الناس وإنما يكشف حقيقتهم تباعًا»

المرشد

رواية

أشرف العشماوي

الدار المصرية اللبنانية

إهداء

إلى أبنائي عمر، علي.. لعل زمانكما
يكون أفضل من زمن أبيكما.

تنويه

هذه الرواية من نسج الخيال وأي تشابه بين أشخاصها مع الواقع فهو مصادفة مجردة عن أي قصد ..

المؤلف

الرحلة الأولى

«الحجر الواحد لا يُحدث شرارة»

1

ماهر السوهاجي

حقول خضراء متلاصقة تسر الناظرين، وبيوت طينية بسيطة متناثرة بغير تخطيط، ونسمات خريفية رقيقة عابرة تلفح الوجوه فتنعشها، وأشجار موفورة الأغصان وكأنها غرست في مواضعها بعناية لتضفي ظلالًا حانية أحيانًا، وسماء ملبدة بالغيوم على استحياء ونذر سحابة صيف ثقيلة قادمة وكأنها تنتوي ألا تنقشع أبدًا.. لاح ماهر السوهاجي من بعيد بجلبابه وعمامته وطوله الفارع ووجهه النحيف وأنفه المدبب.. كان يسير متعرجًا بين الغيطان مكفهر الوجه قليلًا، يكاد لا يلوي على شيء، يتلفت حوله كل برهة وكأن هناك من يناديه.. توقف في مكان اختاره بعشوائية، ثم قفز برشاقة متخطيًا الترعة الصغيرة التي تحاول أن تحافظ على استقامة مجراها دون جدوى فتتلوى رغمًا عنها إلا أنها لا تزال مع الجانب الغربي للمسجد يشكلان الحد الفاصل الوحيد بين قراريطه القليلة وفدادين أحمد كاظم الشاسعة..

وضع ذيل جلبابه بين فكيه وانحنى للأمام، ثم ثنى جذعه كزاوية ثلاثين درجة باسطًا كفه فوق عمامته وتلوى كثعبان حتى مر من أسفل سلك شائك يحيط بمزارع المانجو الرابضة أشجارها في وقار وسط نحو ستين فدانًا بقرية أبار الملك التابعة لمركز أخميم بسوهاج.. ثلثاها مشتراة من الفلاحين الذين عادوا ليعملوا لدى تلك العائلة الإقطاعية وكأنهم يجددون أمجادها مرة أخرى، والتي لايزال وريثها العجوز أحمد بك كاظم ذو السبعين عامًا يدير أملاكها منذ سنوات بعيدة بعد أن ترك له الإصلاح الزراعي عشرين فدانا فقط منذ بضع سنين..

وقف يتأمل إحدى الأشجار الضخمة، والتي أبت أغصانها وفروعها أن تتدلى بالقرب منه رغم حملها لثمار ناضجة ثقيلة من المانجو.. قفز لأعلى عدة مرات وهو يمسك بطرف جلبابه كي لا ينكفئ على وجهه.. محاولًا التقاط إحداها أو هكذا خُيل له.. فشلت كل محاولاته.. بالكاد يلمسها ولا يقبض عليها أبدًا.. وقف يلهث ويمسح حبات عرق انسابت على استحياء من بين خصلات شعره المجعد ولمعت على بشرته السمراء.. اختار بتنًا من بتون الحقل واسترخى عليه متظللًا بظل إحدى الأشجار ناظرًا إلى لا شيء.. سرح في واقعه.. أربعة شهور الآن قد مضت على نكسة يونيو ولا بصيص من أمل، ضاق بأحاديث السياسة والحرب وتنحي جمال عبد الناصر وعودته.. مل الجلوس على المقهى كل مساء يلعب الدومينو ويدخن الشيشة.. منذ أن أنهى دراسته المتوسطة وهو بلا عمل حقيقي ولم تكن الوظيفة الحكومية من بين طموحاته التي اختزلها جميعًا في حلم الهجرة للقاهرة.. ذلك الحلم الذي عاد يراوده بإلحاح شديد كل ليلة حتى بات يحفظ تفاصيله من فرط تكراره.. جال بخاطره أنه لابد من وجود مئات بل آلاف من فرص العمل هناك، فأحد أقربائه هاجر منذ خمس سنوات..لابد وأن منصور الطيب يعيش عيشة رغدة الآن وإلا لكان قد عاد يجر أذيال الخيبة.. على الأقل هذا ما يظهر من الخطابات التي يتبادلانها كل ثلاثة أشهر.. أمسك ببوصة متوسطة الطول وظل يحفر بها خطوطًا متعرجة على الأرض فظهرت متداخلة ومتشابكة لدرجة التعقيد فمسحها ببلغته البيضاء المتسخة.. وقعت عيناه على نبتة صغيرة كانت أفرعها الخمسة تشبه الأصابع الرقيقة النحيلة فبدت ككف مغلق بإحكام.. بالقرب منها ترقد ثمرة مانجو نضجت فسقطت، فهيئ لماهر أن هذا النبت الغريب ذا الأفرع الخمسة يقبض على الثمرة ويحبسها بين أفرعه استعدادًا لامتصاصها.. التقطها بسرعة وكأنه يحررها من سيطرة هذا النبات ثم نزع قشرتها في غلظة بأظافره والتهمها في نهم وتلذذ حتى سالت قطراتها كدماء الذبيحة من بين أسنانه وسرعان ما تركت بقعًا صفراء باهتة متناثرة على صدر جلبابه، حتى جانبي شاربه وشفتيه لم يسلموا من آثارها..

أخرج علبة سجائر كرتونية صغيرة من جيبه وتأمل صورة تمثال رأس نفرتيتي التي تتوسط العلبة..

ابتسم متذكرًا ما يعثر عليه من أوانٍ فخارية في أرضه كان أحيانا يخرجها محطمة بسبب ضربات فأسه الغشيمة ليبيعها للأجانب ويتعجب من لهفتهم عليها وانبهارهم بها، وفي النهاية يقتسم بضعة جنيهات مع مدبولي المرشد السياحي الذي تعرف عليه منذ عامين على مقهى محطة القطار بسوهاج لقاء بيعها، ويلقاه هناك في ذات المكان كل شهر بعيدًا عن الأعين التي تعرفه في موعد لا يتغير..

أفاق على صوت الخولي جلال وهو ينادي عليه من بعيد.. اعتدل في جلسته والتفت لمصدر الصوت في برود ثم لوح ببوصته في ضيق وكأن لسان حاله يقول سأغادر المكان.. فقد ظن أن الخولي يعاتبه على دخول أرض كاظم بك لالتقاط ثمرات مانجو كالمعتاد.. ظل الخولي ينادي بصوت لاهث وصدره ينتفض من جراء عدوه:

- يا ماهر.. يا ماهر.. انتظر .

اقترب منه الخولي جلال مهرولًا وهو لا يزال يلهث والكلمات تخرج مجهدة من بين شفتيه:

- أحمد بك يريدك فورًا لأمر هام، لقد سأل عليك مرتين وأنا منذ الظهيرة أبحث عنك في كل مكان..

- لماذا يريدني الآن؟! لقد طلبت منه مهلة أسبوعًا حتى أفكر في موضوع بيع أرضي، ولم يمض يومان على اتفاقنا.. ما الجديد إذن؟! مضى ماهر يسير بجوار الخولي والأفكار تدور في رأسه..

ما الذي طرأ يا تُرى على اتفاقه مع كاظم؟! هل عدل عن الصفقة؟ هز رأسه بعنف وكأنه يطرد منها هذا الهاجس فقد كان في أمس الحاجة لأن يبيع القراريط التي ورثها عن والده.. وأحمد بك كاظم عرض الشراء لأنها متداخلة مع أرضه بعد أن تمكن من شراء باقي الأراضي من الفلاحين الذين كانوا مالكيها.. ثم إن مهلة الأسبوع لم تنقض بعد وهو لم يطلبها إلا لأنه يعلم أن مفاتحة أمه المسنة العنيدة التي تحتفظ بحُجة الأرض في هذا الأمر، ثم إقناعها به سوف يحتاج أكثر من هذا الوقت بكثير، فضلًا عن أنها، سوف تلقي بلعناتها عليه وتوجه إليه سيل شتائمها وتلومه على حلمه بالهجرة إلى القاهرة وتنعته بالفشل والعقوق لرغبته في تركها وحيدة وهي لم تنجب غيره.. كبرت التساؤلات في رأسه حتى صارت بحجم عمامته فاستسلم للصمت.

***

2

أحمد بك كاظم

عندما اقتربا من شرفة السرايا كان كاظم بك واقفًا في وقار وهيبة عاقدًا كفيه أمامه.. لم يتغير كثيرًا عن صورته قبل الثورة سوى أنه صار أكثر نحافة وضرب الشيب معظم ما تبقى من رأسه.. كان يرتدي روبه الأزرق الداكن القصير ورابطة العنق الحريرية ذات اللون الرمادي على قميصه الأبيض بأزراره الذهبية..

دعاه كاظم في ود مصطنع للدخول بعد أن شكر الخولي جلال بنبرة أجبرته على الاستئذان في الانصراف إلى بيته الريفي الصغير القابع خلف السرايا.. صعد ماهر درجات السلم المؤدي للشرفة في حذر وكأنه يرتب أفكاره قبل اعتلائه خشبة مسرح لمواجهة جمهور غفير..

دخل كاظم بك في الموضوع مباشرة قائلًا:

- أنا أعلم فيما تفكر الآن فأنت تظن أنني أستعجلك لبيع أرضك أو سأساومك.. الأمر ليس كذلك ولكنني في الحقيقة لم أذكر لك الموضوع بجميع جوانبه..

اتسعت عينا ماهر قليلًا في دهشة وبلع ريقه بصعوبة من غموض الحديث ثم أجاب بتأنٍ كعادته وهو يرتشف رشفتين متتاليتين من كوب الماء محدثًا صوتًا مزعجًا:

- وما هو هذا الأمر المهم؟

رجع أحمد كاظم بظهره للخلف في مقعده واضعًا ساقًا فوق الأخرى، ونظر إلى أرضه وكأنه يقصد تفادي نظرات عيني ماهر المتلهفة:

- أريد هدم المسجد الواقع بين أرضي وأرضك.. مسجد كاظم باشا الذي بناه أبى..

قالها وهو ينظر باتجاه المسجد متعمدًا عدم النظر إليه.. ثم عبث بجيب روبه وأخرج سيجارة من علبة فضية عريضة.. أشعلها في هدوء فلاحظ تعلق عيني ماهر بها فألقاها بلا مبالاة على المنضدة التي تتوسطهما وهو يشير له ناحيتها قائلًا:

- المسجد يقع على حافة أرضك من الجهة الغربية ويقتطع مساحة كبيرة من أرضي، وأنا بصدد إقامة مشروع زراعي صناعي كبير والمسجد يعوق البناء، وكل ما أريده منك أن تشيع في القرية أن قبر جدك أسفل المسجد وأنني أرفض هدمه فتخلق تعاطفًا مع موقفك يزيد مع الوقت والإلحاح لدى أهل القرية.. وفي هذه الحالة سيضطرون إلى الحديث معي خاصة العمدة محجوب وأنا بدوري سأرفض بشدة أيضا وساطته..!

توقف كاظم قليلًا وهو يسحب نفسًا عميقًا من سيجارته متأملًا وقع الحديث على ماهر الذي كادت عيناه تخرجان من مقلتيهما من شدة الدهشة.. ثم عاد يسترسل:

- وقتها ستقترح أنت بناء مسجد بديل على نفقتك وستشيع في القرية أنك قد تضطر لبيع أرضك لهذا السبب، وبالطبع التعاطف سيزيد معك وربما يجمعون لك بعض المال أيضًا..

كان ماهر يستمع إليه في ذهول وقد جلس كزاوية قائمة لا يحرك ساكنًا.. مد يده في رجفة واختلس سيجارة ثانية من علبة كاظم تشممها بأنفه كالمعتاد، ثم حاول استخدام قداحته الذهبية ففشل.. تركه كاظم يحاول وهو يتفحصه في ترقب حذر.. أعاد ماهر القداحة مكانها برفق شديد وكأنه يخشى عليها من السقوط المفاجئ من جراء ارتعاشة يده، واستخدم علبة ثقابه، ومن شدة ارتباكه احترق إصبعه الممسك بعود الثقاب فانتفض قليلًا وهو يبتسم في بلاهة..بينما كان أحمد بك كاظم يصوب إليه نظرة حادة كثعبان أرقم يتأهب لافتراس أرنب جبلي مراوغ من ذلك النوع الذي يتسمر في مكانه ثم يحاول القفز بعيدًا في اللحظات الأخيرة أملًا في نجاة شبه مستحيلة..

رد ماهر بصوت متحشرج متلعثم:

- ولكن أنا في هذه الحالة سأضطر إلى بناء مسجد بديل وهو أمر يحتاج إلى مال وكما تعلم أنني.....

قاطعه بإشارة بسيطة من يده:

- لا.. في هذه الحالة سأتدخل وأوافق على هدم المسجد وأعلن أنني سأتبرع لبناء آخر جديد خارج حدود الأرض كمكافأة مني لك على نبل أخلاقك وحرصك على قبر جدك..

قالها ثم أطلق ضحكة ساخرة شبه مكتومة من بين شفتيه.. فأعاد ماهر ظهره للخلف وهو يتنهد ناظرًا إلى الأرض الشاسعة الممتدة أمامه وهو يقول بنبرة واثقة تلك المرة:

- ولكن في هذه الحالة سعر الأرض سيرتفع.

كان أحمد كاظم يتوقع هذا الجشع من ماهر السوهاجي فسيرته التي يعلمها من خلال رجاله بالقرية تبوح بطمعه وتشي بحبه للمال بشراهة واستعداده لفعل أي شيء مقابل الحصول على المزيد منه، وهو وجه خفي لا يعرفه أهل البلدة عنه إلا عندما يقتربون منه ويتعاملون معه حتى ينفروا تمامًا.. فبات شبه منبوذ في الآونة الأخيرة.

أجابه كاظم وهو يزفر في ضيق حتى لا يطمع ماهر في أكثر مما حدده لهذه الصفقة من ثمن:

سأعطيك ضعف المبلغ المتفق عليه بيننا أي ألف ومائة جنيه..

كاد لعابه أن يسيل فابتلع الكثير منه حتى ارتوى.. الضعف مرة واحدة هكذا دون فصال أو تفاوض.. ثم شرد قليلًا ونظر إلى كاظم بعينين لامعتين قائلًا:

- ولكن هل من المنطقي بعد مرور أكثر من ثلاثين عامًا على وفاة جدي أن أبحث عن قبره الآن واكتشف أنه أسفل المسجد وأنادي بهدمه؟!.. ثم هز رأسه وكأنه ينفض الفكرة عن رأسه تمامًا وأردف يقول:

- لن يصدقني أحد فيما سأقوله ولن يفهموا العلاقة بين بيع أرضي وهدم المسجد وسأتحول إلى أضحوكة....

وكأنه يتوقع سؤاله فخرجت الكلمات من شفتي أحمد كاظم في برود:

- ومن قال إنك الذي سيبادر بطرح الموضوع.. الحجر الواحد لا يشعل شرارة أبدًا.. أنت رأيت رؤية تتكرر باستمرار وشيخ القرية عبد الدايم عبد الحق فسرها لك بضرورة هدم المسجد حتى يرتاح جدك في مرقده الأخير وإلا ستصيبك لعناته ولن نعلن أمر بيعك لأرضك الآن.. وأهل القرية عندنا يثقون بالشيخ عبد الدايم ويستفتونه في كل كبيرة وصغيرة من شئون حياتهم.. نحن شعب طيب يا ماهر وعاطفي للغاية ومتمسك بقشور الدين دون تعمق.. ويرتاح عندما يجد من يفكر بدلًا منه فهو لا يحب

إعمال عقله كثيرًا.. وإذا ما شعر بخطر يتحد دون تفكير.

ثم مال ناحيته بنصف جسده وهو يهمس بعد أن تلفت يمينًا ويسارًا بصورة خاطفة:

- ألم نخرج كلنا عن بكرة أبينا منذ شهور نطالب بعودته ورفضنا التنحي رغم الهزيمة؟!

هز ماهر رأسه مستحسنًا الفكرة..

استعاد هيبته ووقاره وهو يتمتم:

- لا تقلق سيصدقونك.. إنهم يحبون القصص والغيبيات وينشغلون بها ويغرقون فيها حتى آذانهم..

قالها ثم قرع جرسًا فضيًّا صغيرًا فمثل خادمه النوبي مصطفى بين يديه بعدها بثوانٍ معدودة فبادره قائلًا:

- أخبر الشيخ عبد الدايم أننا في انتظاره..

مرت لحظات ثم فوجئ ماهر بشيخ القرية يخطو بثقة إلى الشرفة قادمًا من داخل السرايا.. كاد ماهر يضحك ملء شدقيه وكأنه يشاهد مسرحية يظهر أبطالها في توقيت محدد سلفًا وفقًا لأدوارهم..

جلس الشيخ عبد الدايم على حافة مقعده يكاد نصفه السفلي أن يهوي بعد أن ضم ساقيه فبدتا ملتصقتين تمامًا احترامًا لجلوسه في حضرة أحمد بك كاظم الذي رحب به ثم أشار له باسطًا كف يده وهو يقول:

- هيا يا مولانا فسر لماهر رؤياه لجده وهو يمسك برقبته وكأنه يختنق حسبما أخبرتك..! والتي تكررت بضع ليالٍ حتى أقضت مضجعه..!!

بسمل الشيخ وحوقل ثم استرسل في شرح المنام قائلًا :

- إنه غير مستريح في قبره ويبدو أن بناءً ضخمًا قد جثم على أنفاسه، والشرع يقول إنه يجب إزالة هذا البناء حتى ولو كان بيتًا من بيوت الله - سكت قليلا ثم أردف - وإلا تكون قد قصرت في حقه ليوم الدين يا ولدي وستحاسب على ذلك حسابًا عسيرًا مادام زارك في المنام..

ثم اختتم حديثه بالعبارة الشهيرة «والله أعلم»..!

تربعت قسمات الرضا على وجه أحمد بك كاظم بينما ظل الشيخ عبد الدايم متعلقا به ببصره وكأن لديه حاجة ملحة لا تحتمل الانتظار عبر عنها بابتسامة خانعة لعل كاظم بك يتذكرها من تلقاء نفسه.. ولما لم يفعل قال عبد الدايم على استحياء:

- لعلك تتذكر موضوع صادق ابني ورغبة والدته في زيارته..

عقد أحمد كاظم حاجبيه وهو يقول بنبرة حادة:

- نعم.. نعم رغم أنني مازلت غاضبًا من تصرفاته وتحريضه لأهل البلدة على سرقة الثمار من حديقتي بدعوى استحلال أموالي.. ولكن إكرامًا لخاطرك تفضل..

ثم مد يده وأخرج كارتًا شخصيًّا صغيرًا من جيب روبه يحمل اسمه ولقبه وعلى ظهره دون عبارات تطلب وترجو تسهيل مهمة حامله وأردف:

- اذهب إلى العقيد سمير طلعت بالسجن الحربي وسوف يسمح لك بزيارة ابنك مرة كل شهر حسبما وعدني. كما أنهم سيفرجون عنه قريبًا.

هب الشيخ عبد الدايم واقفًا وهو يتمتم بعبارات الامتنان، انصرف بعد أن حرص على قطع المسافة بين مقعده وباب الشرفة دون أن يدير ظهره احترامًا مستخدمًا يديه في ترسيخ الشكر والعرفان، باسطًا كفيه مفتوحتين أمامه وكأنه ينهل من الهواء ويلقي به على رأسه حتى اصطدم بباب الشرفة وسقطت عمامته

فلملمها على عجل وانصرف.. وماهر يتابعه بعينين تطلقان سهام الدهشة..

قطع كاظم الصمت قائلًا:

- مسكين عبد الدايم.. قبضوا على نجله صادق الذي يعيش بالقاهرة منذ سنوات في تنظيم يهدف لقلب نظام الحكم واعتقلوه.. هل تتذكره؟

هز ماهر رأسه معلقًا:

- لا أتذكر صادق ولكنها.. أرزاق.

التقط كاظم بك الكلمة ليغير دفة الحديث:

- نعم، هي كما تقول أرزاق، ورزقك جاء إلى عندك فهل سترفضه؟

استراح في جلسته فبدا وكأنه يبادل كاظم بك الندية وتجاهل الإجابة على سؤاله مبادرًا إياه بالسؤال في نبرة لا تخلو من شك:

- تدفع كل هذا المبلغ من أجل هدم مسجد لتوسعة أرضك لإقامة مشروع زراعي أو صناعي كما قلت... لا..لا.. لابد وأن هناك سببًا آخر.. وأعتقد أن.....

لم يكمل حديثه فقد هب كاظم بك واقفًا فجأة في عصبية ظاهرة قائلًا بلهجة آمرة بعد أن شعر أنه كان ودودًا معه أكثر من اللازم:

- ماهر.. هذا ليس من شأنك.. افعل ما أمرتك به بالحرف الواحد ولا تتصرف من عندك ولا تسأل أكثر من ذلك، فهذا الأمر سيحتاج وقتًا قد يمتد لأسابيع كثيرة، وبعدها أريد رؤية محجوب عمدة القرية هنا وهو يرجوني أن أهدم المسجد.. فتفرغ لهذا الأمر بدلًا من التنقيب عن الآثار بأرضك وبيعها على محطة السكة الحديد.. هل فهمت ؟

أومأ ماهر بالإيجاب وهو يتمتم في خوف بعد أن بُهت من جراء نبرة التهديد بموضوع التنقيب خلسة عن الآثار ومن جراء الحدة التي تجلت في نبرة الحديث:

فهمت يا كاظم بك.. فهمت.

***

3

المسجد

هل جُننت يا ماهر؟!

قالتها أمه وهي تضرب بكفها على صدرها في دهشة ممزوجة بغضب مكتوم تكاد تُسمع فورته بداخلها، فتركت كفها خطوطًا بيضاء متعرجة أشبه بأصابع مجتزئة من جراء الدقيق الذي تضعه في صحن قديم صدئ أمامها، وكانت كفاها تغوصان فيه قبل قليل..

التفت إليها وهو يخلع جلبابه قائلًا:

- يا أمي، هذه فرصة لا تعوض فكاظم بك سيدفع ضعف قيمة الأرض.. سنكون أغنياء بين ليلة وضحاها ويمكننا ترك أخميم، بل سوهاج كلها ونعيش في مصر.. في القاهرة..

أطلت نظرة حادة من عيني العجوز الغائرتين في وجه يعج بالتجاعيد وهي ترد حديثه:

- وهذا البيت الذي بناه أبوك وتزوجته فيه وأنجبتك هنا.. وأرضك؟ أنترك كل هذا لنذهب إلى القاهرة كالغرباء نتسول الجيرة والعزوة؟!

حاول أن يقاطعها إلا أنها ألجمته قائلة:

- وماذا ستفعل في القاهرة بعد أن تنفد أموالك؟ أم أنك ستبيع المساخيط هناك مثلما تفعل في أخميم عند المحطة..؟!

أطلت الدهشة من بين مقلتيه، وكأن القرية كلها باتت تعرف سره..!

فأردفت:

- أم كنت تظن أنني لا أعرف من أين تأتي بالمال الحرام، أو تعتقد أنني لا أراك وأنت تدفنها أسفل الشجرتين الكبيرتين أمام البيت.. يا خائب..

ختمت بها كلامها وهي تتصعب بشفتيها.

أجابها بحدة:

- ليست حرامًا.. مادمت أجدها في أرضي فهي ملكي.. والشيخ عبد الدايم أكد لي أنها حلال وقال إن الحكومة نفسها تبيع مساخيط وتماثيل كبيرة في المتحف، فهل هي حلال عليهم وحرام علينا؟!

خفتت نبرة الأم قليلًا وإن لم يهدأ غضبها بداخلها عندما أدار لها ظهره فقالت:

- أنا مريضة يا ولدي وأريد أن أدفن بجوار أبيك..

بدأت دموعها تترقرق في مقلتيها المتحجرتين.

التفت إليها وعيناه تلمعان بشدة بعد أن التقط الخيط من كلامها:

- وأين دُفن جدي؟!

تعجبت أمه من السؤال المفاجئ فلم ترد.. وتظاهرت بأنها منشغلة بتقليب الدقيق في الصحن وهي تلوي

شفتيها في سخط بعد أن منعت دموعها من الانسياب احتجاجا على بروده..
أعاد السؤال على مسامعها بنبرة تلوح فيها رائحة الخبث.. فظنت أنه يراوغ لبيع الأرض، فقالت وقد استعادت نبرتها الحادة بسرعة:
- جدك مدفون في أرضك.. هنا.. وأشارت بكفها ناحية الغرب..
ابتسم وهو يسمع إجابتها التي راقت له كثيرًا فاستلقى بجسده على الأريكة العالية التي تتصدر الغرفة الواسعة حيث يعيشان، وملحق بها حظيرة صغيرة تضم بقرة هزيلة تمرح بين سيقانها ثلاثة أزواج من البط البلدي السمين.. ثم قال بصوت مسموع وكأنه يفكر بصوت عالٍ:
- وهل أهل القرية يعرفون أن جدي مدفون في أرضنا؟
أجابته بنفس الثقة:
- نعم.
عاد ماهر يقول بنبرة شيطانية بعد أن اعتدل في جلسته فصار وجهه ناحية أمه ليرى رد فعلها بوضوح ويتفرس ملامحها عندما تجيبه:
- ولكن أهل القرية يقولون إن جدي أيضا مدفون في جزيرة محروس مع باقي أموات القرية..
نهرته أمه وقد علا صوتها هذه المرة بعدما باغتها بذكر الحقيقة:
- بل هنا في أرضك ولا أريد أن أسمعك تجادلني مرة أخرى.. أما موضوع البيع فافعل ما تريد بعد أن أموت وإلا سأظل غاضبة عليك حتى بعد مماتي..
ثم استعاذت بالله مرتين وأدارت جسدها نصف دورة وكأنها تتجنب النظر إلى وجهه.. فأدار هو الآخر ظهره لها بعد أن فرد جسمه على الأريكة وأغمض عينيه دون أن يكف عن الابتسام فقد أعطته أمه الخيط الذي سيبدأ به نسج ثوب الثراء خلال أسابيع معدودة حسبما اتفق مع كاظم بك.. وسرعان ما استسلم لنوم عميق وعلا صوت شخيره المزعج فغطى على همس السكون الذي كان قد بدأ يلف المكان بعد غروب الشمس بساعات..

***

على مدار عشرة أسابيع لم يكن ماهر السوهاجي يفعل شيئًا سوى الحديث عن قبر جده الراقد أسفل مسجد كاظم بك والمنام الذي رآه وتفسير الشيخ عبد الدايم له والذي أتقن دوره لدرجة أنه صدق نفسه لوهلة من فرط اندماجه..! واجه صعوبات كثيرة في البداية وصده الكثيرون فلم يكن محبوبًا لفظاظة طباعه وسوئها.. بدأ يروي لأهل قريته بمناسبة وبغيرها أنه طلب من كاظم بك هدم المسجد وبناء آخر بديل حتى يتمكن من زيارة القبر والترحم على جده وكان يتمادى في الكذب ويغرق فيه أثناء سرد روايته.. يدمع أحيانًا وينتحب أحيانًا أخرى إن لزم الأمر، حتى أقنع عددًا لا بأس به من رواد المقهى وأهل بلدته الذين كان يتردد عليهم في الحقول أو يلقاهم بالمسجد بعد أن بات حريصًا على أداء الفروض الخمسة في مواقيتها، حتى بلغ الأمر عمدة القرية محجوب نور الدين فلم يرق له الحديث ولم يبتلع الرواية فتجاهلها لأيام طويلة، إلا أنه أمام إصرار أهل القرية المناصرين لماهر السوهاجي وافق على مضض على أن يتحدث مع أحمد بك كاظم لعله يستجيب، فطلب من الخولي جلال موعدًا أكثر من مرة إلى أن وافق في النهاية بعد أن استبدت اللهفة بمحجوب للقائه.
عندما جلس العمدة في حضرة أحمد بك كاظم داخل بهو السرايا باغته الأخير بالهجوم قائلًا:
- إذا كنت ستحدثني في أمر هدم المسجد فلتشرب قهوتك وتنصرف فأنا لا أقبل حتى مجرد الحديث في هذا الموضوع..

اضطرب العمدة وارتعشت يده الممسكة بفنجان القهوة فأعادها للمنضدة وهي تسيل قليلًا من الجانبين:

- أنا أعلم أنه موضوع ثقيل على نفسك، خاصة أن والدك كاظم باشا هو الذي شيد هذا المسجد ولكن ماهر السوهاجي على استعداد لبيع أرضه وبناء مسجد آخر وأهل البلد تعاطفوا معه بل وجمعوا له خمسين جنيهًا حتى الآن وأنا أريد أن.....

قاطعه في حدة:

- وهل أنا المخطئ يا محجوب؟ هل تريدني أن أوافق على هدم بيت من بيوت الله هكذا بسهولة دون تفكير أو تدبير لمجرد تعاطف أهل البلد مع هذا الشاب الأرعن العاطل؟

عاد العمدة محجوب يتلعثم وهو يقول:

- أنا لم أقل ذلك يا كاظم بك حاشا لله ولكن كل ما أريده أن .....

قاطعه مرة أخرى متعمدًا بصوت جهوري ولهجة آمرة حازمة حاسمة:

- إجمع أهل القرية جميعا يا محجوب غدًا قبل صلاة الجمعة.. هنا في أرضي وحاول أن تقنعهم وأنا الذي سأتحدث إليهم بعد ذلك وسأرتضي حكمهم أيًّا ما يكون..

قالها ثم زفر في ضيق شديد وهو ينظر إلى الثريا المدلاة من سقف البهو وكأنه يعلن نهاية اللقاء.. فوقف محجوب وأحكم لملمة عباءته الفضفاضة على جسده الهزيل وخرج وهو يتمتم بعبارات غير مفهومة وإن كانت لا تخلو من صب اللعنات على ماهر وجدوده..

***

بينما كان ماهر يتأهب لارتداء جلبابه البني الداكن ويتأمل كلسونه ذا الثقوب المتناثرة كجزر منعزلة سمع صوت أمه وهي تعاتبه من مرقدها بجوار الفرن حيث يحلو لها أن تستريح وقت القيلولة:

- هل هذا ملعوب جديد من ملاعيبك يا ماهر؟

رد عليها في لامبالاة مغلفة ببعض الضيق:

- عن أي شيء تتحدثين؟

أجابته وصدرها يضيق بما تنطق:

- موضوع المسجد..

اقترب منها بعد أن ارتدى جلبابه:

- يا أمي أنا أتقدم في العمر يومًا بعد يوم لم أفعل شيئًا في دنيايّ حتى الآن، اتركيني أعمل لآخرتي حتى يستريح جدي في قبره..

فغرت فاها وكادت عيناها تجحظان أكثر من مقلتيهما من جراء فجوره قائلة:

- ألهذه الدرجة بلغ بك الكذب؟!

ارتبك ماهر قليلًا ومسه الجزع فحاول طبع قبلة على رأسها لكي يطمئن نفسه بها قبل أن يطمئنها.. فأشاحت بوجهها بعيدًا عنه وهي تدفعه بيمناها في صدره وكأنها تلفظه وتمتمت:

- والله لو كان أبوك موجودًا لما جرؤت حتى على بيع الزرع دون إذنه لا الأرض التي نأكل من خيرها رغم أنك تدنسها بحفائرك كل فترة.. ألا تخجل من نفسك وأنت لم تفلح أرضك أبدًا مثل أبيك وأجدادك..

ثم أردفت وهي تتعجب:

- لا أعلم من أين أتاك شيطانك وكيف تمكن منك هكذا...؟!

أجابها بعد أن تماسك وهو يتأهب للخروج مبتسمًا:

- من جدي لأمي..!!

أحكم إغلاق باب البيت خلفه ثم سار حتى اقترب من الشجرتين الكبيرتين اللتين تتلاقيان عند جذريهما، فأطبق بأسنانه على ذيل جلبابه ورفع الحجر الضخم الذي يخفي وراءه تجويفًا ذا فوهة صغيرة أسفل الجذر المشترك للشجرتين وكأنهما توأمين ملتصقين من أسفل.. ثم جلس على ركبتيه وتلفت حوله أولًا فتأكد من خلو الطريق من المارة.. فمال بجذعه حتى كادت وجنته اليسرى تلامس تراب الأرض وهو يمد ذراعه لأقصاها داخل التجويف، ويعبث بأصابع كفه الأيمن كعنكبوت، حتى أطبق على لفافة جرائد أخفاها منذ أسبوعين فأخرجها بهدوء ونفض الغبار عن جلبابه وفضها برفق.. كان يرقد بداخلها جسم فخاريّ صغير على شكل إناء غير مكتمل.. أعاد اللفافة على حالها ودسها بين طيات جلبابه ثم كتم فوهة التجويف بالحجر.. ورتب هندامه وانصرف باتجاه المحطة في سوهاج للقاء المرشد السياحي مدبولي وهو يبتسم في اطمئنان.

***

كانت حديقة السرايا قد امتلأت بمئات الفلاحين من أهالي القرية.. بدا المشهد لماهر وهو يدلف من الباب الخلفي وكأنه سوق كبير.. ضوضاء وأحاديث جانبية ورجال تضرب كفًا بكف وآخرون تناول أيديهم سجائر لغيرهم ونساء يفترشن الأرض.. بعضهن قد اصطحب صغاره معه.. صعد السلم الخلفي ومرق إلى بهو السرايا..

ما أن اقترب من باب حجرة مكتب أحمد بك كاظم حتى انفتح فجأة.. خرج كاظم أولًا بروبه الداكن كالمعتاد ونظارته الطبية السميكة ثم خرج العمدة محجوب وخلفه الخولي جلال..

حيوه جميعا في برود عدا الخولي جلال.. لاحظ ماهر أن الحجرة لا يزال بها شخص رابع بدا خياله واضحًا من خلف الباب الزجاجي سرعان ما غادرها في تؤدة.. كان رجلًا في نهاية الأربعينيات من عمره أو يزيد قليلًا، طويلًا ونحيفًا وله شارب رفيع مجدول عند طرفيه بصورة ملفتة، لم يقدمه كاظم لهم وإنما ناداه أمامهم مرة واحدة قائلًا: تفضل يا مراد بك.. ولم يزد حرفًا!!

مر الرجل أمام الجمع باتجاه الشرفة خلف كاظم في خطوات واثقة يدخن سيجارًا غليظًا قصيرًا دون أن يتحدث مع أحد وكأنه لم يرهم.. وقف كاظم في الشرفة محييًا الفلاحين بعد أن جمعهم العمدة أمامه في صفوف متراصة وكأنهم ينصتون لخطبة الجمعة.. خاطبهم بصوت جهوري مستخدمًا يديه وجسده في حركات مسرحية حتى يراه بوضوح آخر صف من الفلاحين بالحديقة فقال:

لقد أبلغني العمدة بمطالبكم وأنا تدبرت الأمر وقلبته على وجوهٍ كثيرة أهمها الوجه الشرعي حتى لا نغضب الله ورسوله..

فتعالت أصوات التسليم والصلاة على رسول الله عالية مقاطعة حديثه.. ثم أردف:

- تأكدت من شرعية الأمر من الشيخ عبد الدايم وسألت شيوخًا آخرين بسيدنا الحسين..

علا صوت من الصف الأخير زاعقًا:

مدد يا حُسين.

ابتسم كاظم نصف ابتسامة سرعان ما ابتلعها وهو يكمل حديثه:

- ولولا إجماعكم واقتناعي بنبل غرضكم ونوايا ماهر الحسنة ما كنت أسمح لأي منكم بمجرد الحديث أمامي في هذا الأمر..

ثم أضاف بنبرة يكسوها الأسى كالمضطر:

- الآن أعلن أمامكم موافقتي على هدم المسجد.. ولكن أرجوكم اقبلوا مني أمرين وأقنعوا بهما ابن قريتنا البار ماهر السوهاجى.. الأول أن أتكفل أنا ببناء المسجد البديل الذي يحمل اسم عائلتى.. والأمر الثاني أن أشتري أرض ماهر السوهاجي إذا رغب في بيعها في أي وقت بالسعر الذي يحدده ولو دفعت فيها ضعف ثمنها تقديرًا لنبل موقفه.. وعندما أتم كاظم عبارته الأخيرة وأطرق بوجهه في تواضع مكذوب مصطنع وهو يتكئ بكلتا يديه على حافة الشرفة.كانت أساريره تتهلل من داخله وتكاد ترقص طربًا وهو يسمع هتافات الفلاحين مدوية «الله أكبر.. الله أكبر»، بينما تعالت زغاريد النساء متتالية كأمواج البحر المتلاحقة..

نظر كاظم بك بطرف عينه. عن يمينه كان العمدة محجوب يبتسم في رضا ويحيي الفلاحين بينما كان ماهر يقف عاقدًا كفيه خلفه ومطرقًا في خبث، تكاد عيناه تفضحانه، وخلفه مباشرة كان مراد بك جالسًا في نهاية الشرفة بنظارته الشمسية السوداء ذات العدسات المستديرة وكأنه مُخرج المسرحية الذي يتابع أداء ممثليه من الكواليس..

في المسجد لم يتوقف الشيخ عبد الدايم عن الدعاء لكاظم بك والإشادة بدور ماهر وحرصه على إرضاء جدوده في رقدتهم الأخيرة طالبًا من شباب القرية أن يتخذوه مثلًا وقدوة حتى كاد الدعاء يجور على زمن الخطبة المخصصة لنصرة الزعيم جمال عبد الناصر وضرورة توحد الصف كله خلفه في المرحلة القادمة بعد نكسة يونيو التي تسبب فيها قائد الجيش المشير عبد الحكيم عامر فختمها على عجل فلم تستغرق منه أكثر من ست دقائق فقط..!!

بينما توجه كاظم لتناول شراب مع مراد بالسرايا نخبًا لهدم المسجد الكبير وكانت أسهمه لدى أهل قريته تكاد تلامس السماء حتى أن العمدة محجوب اقترح عليه الترشح لانتخابات مجلس الأمة بالدورة القادمة.. خاصة بعد أن أعلن للجميع قبل انصرافهم أنه سيستضيفهم لأداء صلاة الجمعة القادمة بحديقة السرايا لحين إتمام بناء المسجد الجديد.

***

في المساء كانت حجرة المكتب بداخل سرايا كاظم بك تضم أربعة أشخاص.. أحمد كاظم جالسًا خلف مكتبه الخشبي الكلاسيكي العتيق الذي ورثه عن والده.. وماهر السوهاجي الذي جاء ليتسلم نصيبه في بيع الأرض وأتعابه عن دوره في هدم المسجد..! ومحامي كاظم بك الذي كان قد أعد العقود منذ يومين وصرف المبلغ من البنك بالقاهرة وأحضره معه.. وأخيرًا الرجل المهيب مراد بك الذي استبدل بنظارته الشمسية أخرى طبية تشبهها تمامًا وظل ساكنًا وكأنه فاقد النطق حتى عندما حياه ماهر اكتفى بإيماءة خاطفة برأسه لم يستطع ماهر أن يلحظها..

وقف ماهر في منتصف حجرة المكتب يحمل حقيبة جلدية سوداء قديمة بعض الشيء أهداه كاظم بك إياها ليضع فيها أول مبلغ مالي يحصل عليه في حياته وعلى يمينه ثلاثة أصفار تزينه.. بعد أن كان قد تحصل على مائة جنيه منذ يومين كعربون عندما سلمهما حجة الأرض.. اقترب من كاظم وهو يكاد ينطق همسًا وجسده ينبئ باضطراب داخلي:

- لي رجاء أخير يا كاظم بك..

مال كاظم بجسده ناحيته قليلًا وكأنه يحثه على مواصلة الحديث الهامس فقال ماهر:

- أمي ليس لها مأوى غير البيت الذي تقيم فيه الآن فإذا كان الأمر لن يضيرك فلتسمح لها بالبقاء فيه فهي مريضة وشبه مقعدة ولن تبقى في الدنيا كثيرًا..

نظر إليه شذرًا بنظرة يغلفها الاحتقار قائلًا:

- أنا لا أعطيك كل هذا المال لكي أعول أمك، واتفاقنا كان أنني أتسلم الأرض والبيت خاليين من الغد وأنت وقعت على ذلك وكذلك أمك بصمت بما يفيد موافقتها على البيع.. وأنا لا أحب من يتراجع في كلمته..

عاد ماهر يتوسل في خنوع وكأنه كلب يخفي ذيله بين فخذيه وهو تحت أقدام سيده الذي يلوح له بالعصا في يده قائلًا:

- هل من الممكن بعد أن تأذن بالطبع، أن تقيم أمي مؤقتا لدى جلال الخولي؟ فعنده حجرة خالية وهي تستطيع أن تخبز له ولزوجته وأولاده نظير إقامتها..

رفع كاظم كتفيه في ضيق ثم تبادل نظرة مع محاميه الذي هز رأسه بالإيجاب، فقال في هدوء وهو يضع ساقًا فوق أخرى:

- هذا أمر يخصك وحدك لا تشغلني بمشاكلك يمكنك أن تتحدث مع الخولي جلال فإذا ما قبل استضافتها فلا مانع عندي..

شكره ماهر بشدة وتأهب للمغادرة فبادره كاظم قائلًا وهو يضيف مكعبًا آخر من الثلج لكأسه دون أن ينظر إليه:

- تذكر يا ماهر غدًا صباحًا سأهدم منزلك والمسجد.. غدًا يا ماهر وليس بعد غدٍ..!

قالها بينما مكعب الثلج ينغمر ثم يطفو بسرعة ويبدأ في الذوبان ببطء في حين كان ماهر يتمتم:

- مفهوم مفهوم..

أغلق ماهر الباب خلفه وانصرف يحمل الحقيبة وكل برهة يتلفت خلفه متظاهرًا بأنه يلتقط حجرًا من الأرض كلما عوت عليه الكلاب بالقرب من السرايا أثناء سيره رغم مروره مئات المرات في أمان بذات الطريق من قبل..!

***

أحدث الباب الخشبي صريرًا مزعجًا فانتظر ماهر لوهلة لعل أمه تكون قد تنبهت لحضوره وأخفى الحقيبة خلف ظهره فلم يسمع إلا صوت السكون فدلف في هدوء.. لاحظ أنها تغط في نوم عميق بجوار الفرن الذي يحتل مساحة مميزة بالبيت.. كانت ترقد في فرشتها الصوفية التي تلفحت بها حتى كاد لا يرى وجهها.. جمع متاعه في خفة وكأنه لص وطوى ملابسه في قطعة قماش عريضة أحكم ربطها وأمسك بالحقيبة الجلدية بيمناه ثم اقترب من أمه فقبل يدها التي تسربت من أسفل الغطاء برفق.. لم يستطع أن يوقظها ليودعها فلم يكن لديه ما يقوله لها تبريرًا لأفعاله.. ارتجف قليلًا وشعر بانقباض.. تسمر في مكانه برهة ثم كاد يصرخ ويلقي بحموله كلها ويقول لها إنه حصل على بصمتها على عقد البيع بعد أن غافلها وأوهمها أنها لشراء حبوب من الجمعية الزراعية بعد أن ادعى فقده لبطاقة الحيازة فوضعت إبهامها على الورقة في اطمئنان وهي لا تدري أنها توافق على أن تصبح في العراء بعد أيام معدودة..

كاد يبكي وهو يتذكر كيف سرق حُجة الأرض منها رغم أنها غيرت مكانها منذ أسابيع عندما شعرت بغدره. وكيف تمكن من معرفة مكانها الجديد خلف الفرن في تجويف الحائط السفلي الذي تخفي فيه كردانها وخلخالها الذهبيين وسلمها لمحامي كاظم بك ليعد العقود ويجهزها على توقيعه.. وخزه ضميره بشدة وضاق صدره بما يكتمه فظل واقفًا في حيرة. كان يُخير نفسه بين البقاء معها أو هجرة المكان كله.. لحظات مرت عليه ثقيلة كالحقيبة التي كان يحملها فرفعها قليلًا وتحسسها وكأنما يطمئن نفسه بما تحويه.. سرت رعشة أخرى في جسده عندما تقلبت أمه في مرقدها دون أن تصحو.. تأمل الدار التي يعيش فيها

منذ عقدين وبضع سنين.. شعر بالفقر يخنقه والإحباط يلف حباله حول عنقه وشعوره بأنه منبوذ دائمًا من أهل قريته وكأن العيب فيهم جميعًا فعاد يفكر في الجنيهات الألف التي باتت ملكه.. عبثت أصابعه في حرص برزمة الأوراق المالية حتى التقط عشر ورقات كل منها فئة العشرة جنيهات لكي يتركها لأمه لعلها تعينها على شظف العيش وتعوضها عن غيابه..

مد يده وثنى ركبتيه لكي يضع النقود بجوارها.. مرة أخرى طغى طمعه على رحمته فاقتصر المبلغ على خمسين جنيهًا فكرمش الخمسين الأخرى بأصابع كفه وأعادها إلى الحقيبة.. حمل صرته الضئيلة بعد أن خفتت نوبة الضمير التي انتابته لدقائق وما هي إلا لحظات حتى كان يتلوى في السير عبر الغيطان المعتمة كثعبان يعرف طريقه بعد أن طواه ظلام ليلة شتاء باردة، وظله على ضوء القمر يكاد يسبق طموحه ولا يدركه أبدًا..!

***

4

المحطة

بدت محطة القطار بقلب سوهاج من بعيد شبه معتمة.. الحركة أمامها وداخلها هادئة في هذا الوقت المتأخر من الليل.. عربتا حنطور تقفان أمام بوابتها الرئيسية إحداهما قد تراخت حتى لامس قضيباها الأرض بعد أن تُرك فرسها حرًا يتلذذ بوجبة من التبن تعينه على تحمل برد الشتاء بينما الحصان الآخر يقف منتصًبا وكأنه ينتظر دوره أو فرغ منه!!..

دلف ماهر إلى المحطة ثم انعطف يسارًا حتى وقف أمام شباك التذاكر.. طرق طرقتين على الزجاج فرمقه الموظف بنصف عين ناعسة ودون أن يحرك ساكنًا سوى أنه فتح جفنه الآخر بهدوء وظل يحملق في وجهه..! بنبرة يتداخل فيها التثاؤب مع حروف الكلام التي تنطقها شفتاه قال الموظف الكسول:

أول قطار للقاهرة بعد ست ساعات من الآن..

ثم وضع كفه على دفتر التذاكر وثنى واحدة مصوبًا عينيه إلى ماهر في انتظار قراره..

أومأ ماهر بالإيجاب على الفور ولكن في ضيق لطول مدة الانتظار..

اقترب من بوفيه المحطة المتواضع، كان العامل ينظف الأرض بعد أن قلب وضع بعض المقاعد على المناضد الأربعة التي تشكل قوام البوفيه بالكامل..

طلب شايًا ثقيلًا حتى لا يغلبه النعاس واختار منضدة منزوية قرب دورة المياه وركن إليها وهو يحتضن حقيبته بكلتا يديه وكأنها رضيع تخشى عليه أمه من برودة الشتاء القارص..

مرت أربع ساعات بطيئة كسلحفاة.. ارتشف كوب الشاي الثالث ببطء وكأنه يتلكأ لقتل الوقت بعدما لاحظ أن رأسه تتساقط كل برهة فيهزها بشدة كي يفيق ثم سرعان ما تميل للأمام وتهبط ببطء ثم ينتفض ويعاود الكرة حتى انتبه إلى جلبة بالقرب منه..

كان ثلاثة شبان لا يتجاوز عمر أكبرهم الثالثة والعشرين بدوا له أشبه بمجندين فارين من الخدمة العسكرية فقد كانت رؤوسهم حليقة تكاد تشبه الأرض القاحلة..

جلسوا بجواره فلم يعرهم انتباهًا وانشغل بتصفح جريدة قديمة عثر عليها بدورة المياه.. تعالت ضحكاتهم بصورة مبالغ فيها فساعدوه دون أن يقصدوا على مغالبة النعاس حتى دوت صافرة طويلة معلنة عن وصول القطار إلى محطة سوهاج.

***

استيقظ ماهر على من يلكزه في صدره بشدة.. فتح عينيه في تكاسل بدت له صورة مفتش القطار مهزوزة نوعًا ما.. بسترته الزرقاء وأزرارها الذهبية اللامعة وحقيبته الجلدية المدلاة من أعلى كتفه الأيمن وهو يحدثه بنبرة لا تخلو من هيبة وحسم:

نحن في محطة الجيزة يا سيد.. عشر دقائق ونصل محطة مصر استعد.. قالها المفتش ومضى يعيدها على مسامع غيره من الركاب النائمين..

تذكر ماهر حقيبته فتوجس وانتفض.. نظر بين قدميه وهو يضمهما بصورة لا إرادية فوجدها قابعة في

مكانها.. ارتاحت قسمات وجهه بعد أن كانت في طريقها للتجهم..

تلفت حوله كان الشبان الثلاثة الذين التقاهم بالمحطة وركبوا إلى جواره قد غادروا فيما يبدو إلى بني سويف حسبما أخبروه.. فحمل حاجياته ومضى يسير في الممر الفاصل بين المقاعد. كانت الحقيبة على نفس ثقلها فابتسم في رضا..

سمع صفارة القطار وهو يدخل محطة مصر فوقع الصفير على أذنيه كنغم جميل فقد كان متلهفًا للقاء المدينة وكأنها عروسه التي ستزف إليه بعد قليل..

شعر فجأة بأن الحقيبة تصدر أصواتًا تشبه الرنين كلما تحرك فارتاب في الأمر ثم توقف عند المقعد الأخير قبل باب النزول وفتحها في عجالة وهو مضطرب.. وكفاه نديان من العرق رغم برودة الطقس في شهر فبراير..

أصابه الذهول وعقدت المفاجأة لسانه.. شعر بأنه كمن أصيب بالشلل.. أربع زجاجات من المياه الغازية إحداها هي الخضراء الكبيرة التي تجرعها عندما استقل القطار.. كانت ترقد في ميل على الأخرىات وكأنها لاتزال تحمل بعضًا من المخدر الذي ذاب فيها وتجرعه ماهر بسهولة ويسر.. تلفت حوله.. كان وحيدًا فالجميع قد غادروا..

لم يقو على الصراخ. شعر كأنه أبكم طُعن بسكين.. استعاد المشهد في مخيلته وكأنه شريط لفيلم سينمائي يشاهده للمرة الثانية فيتنبه أكثر للتفاصيل.

كيف جاءت جلسته بالقطار بجوار الشبان الثلاثة فسعد للمصادفة.. جلسوا متقابلين حيث كان أحدهم بجواره ويبدو أنه أكبرهم سنًا والذي أخرج لفافة جرائد متوسطة الحجم سرعان ما فاحت منها رائحة المش القديم.. مد يده بنصف رغيف يبدو شهيًّا إلا أن ماهر اعتذر له بأنه لا يستسيغ طعمه.. تعالت ضحكاتهم كعادتهم وسرعان ما تداخلوا معه في حوار بلا حواجز وكأنهم أصدقاء قدامى تلاقوا مصادفة في قطار.. تندروا كثيرًا على كونه من أهل الجنوب ولا يستسيغ طعم المش..

شاركهم الضحك وروى لهم بعضًا من نوادره متحسسًا بيده كل فترة حقيبته وهي قابعة بين قدميه وكأنه يحبسها كي لا تفر فجأة..!

تذكر الآن جيدًا عندما غاب أحد الشبان الثلاثة لدقائق ثم عاد حاملًا أربع زجاجات مياه غازية إحداها خضراء اللون وتبدو أضخم من الأخرى قدمها له بحرارة فتجرعها ماهر معهم وها هي أمامه الآن قابعة في حقيبته كالجثة الهامدة.. عاد يتذكر في مرارة كيف استأذنوا منه لكي يحصلوا على غفوة قصيرة مؤكدين عليه ضرورة أن يوقظهم عندما يقترب القطار من مدينة بني سويف.. وكيف حاول إثناءهم عن فكرة النوم حتى لا يغفل هو الآخر فلم يفلح..

كادت شفتاه تدميان من كثرة ما جز عليهما بأسنانه غيظًا عندما مرت بمخيلته صورته وهو يحاول التركيز على منظر الحقول التي كانت تمر أمامه خاطفة، وكأنها صفحات كتاب تقلبها الريح فلا يكاد يلمحها.. ومع مضي بضع دقائق أخرى شعر بتتميل يسري في كل جسده ودوار يغلب رأسه وكيف زاغت عيناه قليلًا فحاول فركهما ليفيق فلم يجد ذلك نفعًا.. تذكر حاله عندما شعر بجفونه تتراخى حتى باتت أثقل من أن يفتحها فاستسلم برفق حتى راح في سبات عميق.. الشاب يحضر الزجاجات ويصر على تقديم الزجاجة الخضراء له.. تذكر فجأة أيضًا أن أحدهم قد سأل عامل البوفيه بمحطة سوهاج عن صيدلية قريبة.. فضرب جبهته بكفه محدثًا نفسه: لقد خططوا للسرقة مبكرًا جدًا.. ارتجف مرة أخرى وشعر بعرقه البارد يتقصد منه بغزارة أسفل جلبابه حتى غمر جسده كله..

- ماذا بك يا أستاذ لقد وصلنا القاهرة.. ماذا تنتظر؟!

قالها مفتش القطار وهو يرمقه بنظرة مرتابة محاولا اختلاس النظر إلى حقيبته المفتوحة.. ثم أردف في

حدة وهو يمد يده داخلها:

- وما هذه الزجاجات الفارغة؟ لماذا لم تُعدها إلى بوفيه القطار؟!

كان ماهر ينظر إليه في وجوم ولا يرد.. كمن مسه الجنون..فلم يكن حتى يتذكر أوصافهم من كثرة ما أطال النظر إلى رؤوسهم الحليقة.. وعندما أحكم مفتش القطار قبضته على ذراع ماهر باعتباره سارق الزجاجات الفارغة.. كان الأخير يطلق صرخة هائلة معبرًا عن غضبه فكانت أشبه بصيحة البجعة الأخيرة قبل الموت..!

عندما غادر نقطة الشرطة القابعة داخل فناء المحطة عقب تحريره محضرًا بالسرقة قيد ضد مجهول أخبره المأمور أن هذا المجهول الذي خدره يُكرر حوادثه منذ شهور ولا يستطيعون الإيقاع به أبدًا..! ولم يعر ضابط النقطة محضره اهتمامًا أثناء تحريره فقد كان يتابع بالتليفون مظاهرات الطلبة في ميدان رمسيس مع الحكمدار بالمديرية، وفهم ماهر من حديثه مع ضباط آخرين بالنقطة أنها بسبب أحكام قضائية مخففة صدرت على قادة الطيران وقت حرب يونيو الماضي..

خمس ساعات أمضاها ماهر داخل نقطة الشرطة نصفها كان متسمرًا في مكانه يرفض المغادرة إلا بعد أن يعيدوا إليه أمواله كان كمن وقعت عليه مصيبة فيعاند القدر برفضها ويحاول طردها من عقله ويأبى تصديقها فيزداد وقعها عليه ثقلًا وينوء عقله باستيعابها فيلفظها فيبدو منظره غريبًا.. عيناه محدقتان بشدة وصوته يعلو وينخفض بلا مبرر وفي غير موضع.. يلوح بيديه طوال الوقت يسأل ويرد على نفسه ثم ينتظر مواساة الآخرين من حوله ثم يثور عليهم فجأة كنمر جريح إذا ما تجرأ أحدهم ووبخه على إهماله وغفلته..

خرج ماهر من نقطة الشرطة وهو يجر قدميه جرًّا وكأنه يحرث بهما رصيف المحطة.

أمواج متدافعة من البشر بلا هوادة رائحة وغادية كل يعرف طريقه إلا هو.

ابتسم في مرارة وشعر بفكه السفلي يؤلمه بشدة من كثرة ما جز على أسنانه غيظًا فتحسسه بيده وهو يحدث نفسه قائلًا:

ياله من استقبال..ألفٌ من الجنيهات تذهب بلا عودة قبل أن تلمس قدماي أرض القاهرة.. ياله من مهر غالٍ للمحروسة..! نظر إلى أعلى يتأمل سقف المحطة في انبهار فوقعت عيناه على الساعة الكبيرة وعقاربها تشير إلى الرابعة عصرًا.. كان اليوم هو الخميس الثالث من شهر فبراير 1968 . مضى حاملًا صرته والحقيبة الخالية والهتافات المدوية لمظاهرات الطلبة تصم أذنيه وهو يتابعها في لامبالاة رغم أنه اندس بينهم وكأنه شاة ضلت طريق قطيع فعادت إليه وسارت وسطه ومع ذلك تبدو غريبة عنه.. كان لا يرى من هول الصدمة فبدا الناس من حوله كأطياف متحركة وخيالات غير واضحة كمن يظهرون في خلفية الصورة لا تكاد تقف على تفاصيلهم أبدًا..! عندما شعر بأن قوات الشرطة تطوق جموع المتظاهرين هدّأ من حركة سيره ثم انحرف أقصى اليمين لكي يبتعد عنها وكأنه يتحاشاها تمامًا حتى لا يجرفه طوفانها البشري.. لمح إعلانًا ضخمًا في مواجهته يحتل مساحة كبيرة من عمارة شاهقة ترتفع لأكثر من عشرة طوابق.. وقف يتأملها في ذهول ثم نظر إلى الإعلان في ضيق وبصق على الأرض في غيظ وحنق مشيرًا بعصبية إلى إحدى سيارات الأجرة وقفز بداخلها وسرعان ما ذابت وسط الزحام تاركة العمارة العالية خلفها.. في حين كان الملصق الإعلاني يحمل صورة ملونة لزجاجة المياه الغازية الخضراء كتلك التي تجرعها في القطار وأسفلها عبارة ضخمة تقول: «شعور لذيذ لن تنساه أبدًا..لا تدفع أكثر من قرش صاغ واحد»!!!

***

5

الس-وق

تقلبت نظيمة في فراشها عندما تسرب ضوء النهار إلى وجهها عبر طاقة متوسطة تعلو سطح الفرن الذي ترقد في بطانيتها الصوفية البالية بالقرب منه.. فركت عينيها في تكاسل وهي تشعر بانقباض غريب يغزوها ويسري في أوصالها.. استعاذت بالله ثلاثًا ثم نادت على ولدها ماهر فلم تسمع مجيبًا.. لعنته في سرها معتقدة أنه تهرب كعادته من مساعدتها في نقل ونصب فرشتها الأسبوعية بسوق الخميس لبيع الخضراوات.. بعد ساعة ونصف الساعة تقريبًا كانت قد استقرت في موقعها المعتاد بالقرب من مدخل السوق الغربي بحيث يمر عليها كثيرون لعل أحدهم يبتاع منها ما تعرضه من خضر وفطائر مخبوزة..

على الجانب الآخر من المدخل الشرقي للسوق كان الخولي جلال يخترق السوق بحماره في سرعة ملحوظة ممهمزًا إياه أسفل بطنه وكأنه يعرف اتجاهه بدقة حتى اقترب من المدخل الغربي فهدّأ قليلًا من سرعة حماره بضم ساقيه إلى جانبي بطنه حتى سكن تمامًا فرفع ساقه اليمنى في حرص ثم ترك نصفه السفلي ينزلق بهدوء من على ظهر دابته ساحبًا إياها بحبل قديم من الدوبار المفتول يلتف حول رقبتها..

اقترب من فرشة نظيمة وإن كان الحزن يكسو ملامحه بشدة فرفعت عينيها واضعة كفها بمحاذاة حاجبيها لتتقي ضوء الشمس حتى ترى وجه محدثها ثم أردفت بابتسامة عفوية:

- أهلا يا ولدي.. أنت جلال الخولي أليس كذلك؟!

أجابها بنعم وهو يبتسم ابتسامة مبتورة ويربت بشدة على مؤخرة حماره ويشد الحبل حول رقبته جاذبًا إياه إلى أسفل قليلًا لكي يجبره على الرقود..

جلس جلال القرفصاء بجوارها واجمًا.. توجست نظيمة قليلًا وعاد الانقباض يلح عليها إلحاحًا مثيرًا بأن الفاجعة التي تترقب وقوعها منذ الصباح ولا تدريها على وشك الحدوث.. قال جلال بنبرة حانية ممزوجة بالارتباك والتلعثم أحيانًا:

- لا أعرف من أين أبدأ ولكن لا أحد أيضًا يعرف أين يكمن الخير دائمًا ورُب ضارة نافعة..

توقف فجأة عن الحديث فتوجست نظيمة أكثر وشعرت بأنها ترتجف من داخلها وتكاد تسمع صوت نبضات قلبها وهي تدق بعنف فحاول طمأنتها قائلًا:

- تأكدي يا خالة أنني وزوجتي سوف نضعك فوق رؤوسنا وسنخدمك ونرعاك ولن تحتاجي للجلوس ساعات طويلة في هذا السوق كل أسبوع..

صمت جلال ولم يستطع إكمال حديثه للمرة الثانية أمام وجه نظيمة المتحجر ونظراتها الحادة المطلة من خلف تجاعيد حفرت أخاديد حول مقلتيها..

ظلت نظيمة على حالها وكأنها تيبست في موضعها فلم تنطق حرفًا ولكن نظراتها الثاقبة الحادة اخترقت صمته فأجبرته على الاسترسال فقال وهو يحاول تفاديها:

- ماهر كما تعلمين قد باع البيت والأرض منذ يومين لأحمد بك كاظم وسافر إلى القاهرة وأوصاني بك وإن كنت لا أحتاج إلى توصية.. قالها وهو يقترب منها أكثر لكي يضفي عليها مزيدًا من الاطمئنان عله

يهدئها..

ثم أردف:

- سوف تقيمين معي في بيتي.. أنا أعلم أنه أمر قاسٍ عليك نوعًا ما ولكنه فعل ذلك حتى يبني مسجدًا جديدًا لأهل قريته ويريح جده في رقدته أما موضوع سفره فهو مؤقت ومن المؤكد أنه سيحضر ليأخذك لتعيشي معه هناك ولابد أن.....

كانت الخالة نظيمة تحوقل في همس وقد اتسعت عيناها وهما تحملان نظرة شاردة فآثر جلال الصمت تمامًا.. وبدأ يجمع حزم الخضراوات واحدة فوق الأخرى بينما شرعت هي في الارتجاف وانتفض جسدها برفق ثم سكنت وكأنه لطف من السماء بحالها قد مسها فجأة .. مدت يدها المرتعشة إلى ذراع الخولي جلال فلم يفهم إن كانت تثنيه عن لملمة بضاعتها أم تطلب مساعدته لتنهض فاختار الخيار الثاني وأمسكها برفق من رسغها وذراعها بعد أن اتكأ على إحدى ركبتيه محاولًا النهوض بها إلا أنها لم تستجب له فلم تعد تقوى على الحراك..

- ماذا بك يا خالة نظيمة..

قالها في جزع.

لم ترد وظلت تحملق في وجهه وهي واجمة وعيناها تلمعان بدموع متحجرة مجمدة وكأنها أبت أن تسيل على ابن عاق أبدًا..

تجمع بعض المارة من رواد السوق وأبطأ آخرون من مشيتهم مكتفين بإلقاء نظرة فضول على العجوز العاجزة بينما تقدم من يعرفونها لمساعدتها على النهوض فظلت قدماها مدلاتين بلا استجابة وانثنت ساقاها قليلًا وكأنهما تيبستا على هذا الوضع فباتت أشبه بجنين ضخم ولكنه يبدو بلا روح.. حوقل من حولها بصوت عال وعلا عويل بعض النسوة من البائعات فازداد المتجمهرون حولهما أضعافًا وسرعان ما اختُزل السوق كله في تلك البقعة الصغيرة حول فرشتها وأسقط في يد جلال ولم يعد يدري ماذا يفعل..

مال أحد الواقفين على جاره هامسًا بصوت مسموع:

- هذه السيدة منذ سنوات وهي تبيع الخضر في السوق ولا يشتري منها إلا نفر قليل ولو كان هذا الجمع المتجمهر حولها الآن قد جاء ليشتري لكانوا أغنوها عن سؤال اللئيم..

هز جاره رأسه مؤيدًا لحديثه وهو يضرب كفًا بكف قائلًا:

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

***

6

الحانـوت

اخترقت السيارة شارع رمسيس ثم انحرفت يسارًا متجهة إلى شارع الجلاء حتى بلغ الزحام ذروته بالقرب من مبنى جريدة الأهرام.. كان ماهر قابعًا في المقعد الخلفي للسيارة مشرئبًّا بعنقه عبر النافذة وكأنه سائح أجنبي يزور بلدًا للمرة الأولى فلا يمل من التطلع لمبانيها وواجهات المحلات التجارية والمارة بالطريق من كثرة ما سمع عنها.. كانت القاهرة بالنسبة له حلمًا صار حقيقة.

لاحظ سائق السيارة الدهشة التي اعترت ملامح ماهر في المرآة فسأله وهو يرجع بذراعه للخلف مطبقًا بأصابعه على علبة رقيقة من السجائر المحلية تطل منها سيجارتان من خلال فتحتها الورقية الأمامية:

- أظن أنها المرة الأولى لك بالقاهرة.. أليس كذلك؟

تناول منه ماهر السيجارة دون أن يُعير سؤاله اهتمامًا قائلًا في حسم بعد أن تذكر تحذيرات منصور الطيب له من ثرثرة سائقي سيارات الأجرة بالقاهرة:

- لا.. لا ليست أول مرة..

كان يبدو مضطربًا ونبرته غير صادقة فعاد السائق الفضولي يسأله بإلحاح:

- أين تريد الذهاب في ميدان طلعت حرب؟ هل تعمل هناك؟

أجابه ماهر بلا مبالاة مبالغ فيها هذه المرة عن السابقة حتى يشعره بأنه يتجنب حديثه:

- سأنزل في الميدان.. في وسط الميدان تمامًا..

قالها وعاد يتطلع للمارة من النافذة.. ونصائح منصور الطيب تقفز إلى ذهنه حتى امتزجت مع كرهه وجهله بالسياسة وأخبارها وتلح على أذنيه: «لا تتحدث في السياسة إذا أردت أن تعيش في القاهرة بسلام» نظر إلى السائق في حدة عبر مرآة السيارة وعندما تلاقت نظراتهما قال ماهر بحدة:

- إشارة المرور خضراء الآن.. أرجوك تحرك بسرعة فأنا في عجلة من أمري.. قالها وهو يثبت عينيه تجاهه في غضب..

دقائق أخرى مرت بطيئة حتى علا صوت ماهر من الخلف قائلًا:

- إلى اليمين قليلًا سأنزل أمام محل جروبي..

نطقها بتعطيش حرف الجيم.. ابتسم السائق في استنكار مكررًا إياها خلفه في سخرية بنفس اللهجة.. وتزحزح بنصفه السفلي ومال بجذعه إلى أقصى اليمين وأدار عداد السيارة دورتين ثم التفت إلى ماهر قائلًا:

- عشرون قرشًا..

نقده ماهر إياها ثم غادر السيارة ووقف في قلب الميدان.. أدار ظهره إلى واجهة محل جروبي ثم قطع الميدان طولًا حتى بلغ نهاية قطره وانحرف يسارًا حسبما وصف له منصور الطيب بالضبط.. مع ذلك راوده شعور بأنه سيفقد اتجاهه الصحيح فاستوقف أحد المارة سائلًا إياه عن العقار رقم 3 فأشار له وهو

يبتسم قائلًا:

- أنت تقف أمامه الآن..

شعر بقليل من الخجل.. ظل ساكنًا منبهرًا وهو يتأمل واجهة العقار المعمارية التي تزين شرفاته رؤوس لتماثيل رومانية ذات شعر مجدول ووجوه منحوتة بدقة.. ارتسمت على وجهه ابتسامة رضا بجمال المعمار..

قبل أن يدلف للعقار لفتت نظره لافتة خضراء كبيرة على الحانوت الملاصق للمدخل وتحتل مساحة كبيرة جدًا من الواجهة **«عاديات الشافعي».** ..لم يفهم معنى كلمة عاديات فاقترب قليلًا من الواجهة الزجاجية بعد أن لمح بها تماثيل فرعونية مذهبة تبرق خلفها.. فجأة خرج من الحانوت شابان في اندفاع ورجل متوسط العمر أسمر البشرة يسرع الخطى خلفهما. كان الرجل الأسمر ضخم الجثة يضع طاقية بيضاء ذات خيوط متشابكة على رأسه.. التفت ماهر ناحيتهم. كانوا يهرعون لاستقبال شخص ما.. سيارة سوداء طويلة لم ير مثلها في حياته ذات مقاعد جلدية ذكّره لونها بالسمن البلدي..! توقفت أمام الحانوت مباشرة فتقدم أحد الشابين ففتح بابها بينما هرع الآخر نحو صندوقها ليحمل ما به من متاع بينما وقف الرجل الأسمر متأخرًا بخطوتين لتحية صاحب السيارة الذي غادرها من المقعد الخلفي وما أن انتصب واقفًا حتى بدا مهيبًا وقورًا..

كان طويل القامة قمحي البشرة ذا شارب كثيف ولكنه منسق بعناية.. له فودان اشتعلا شيبًا ويضع خاتمًا كبيرًا ملحوظًا بفص أخضر ضخم في بنصره..

ترجل الرجل المهيب من السيارة باتجاه الحانوت محييًا الرجل الأسمر بابتسامة مبتسرة قابلها الأخير بانحناءة خفيفة احترامًا للرجل الذي أمسك بتلابيب عباءته التي تشبه وبر الجمل في لونها حتى لا يتسخ طرفها من أتربة الطريق ثم خطا خطى واثقة نحو مدخل الحانوت وإن لم يفته أن يرمق ماهر بنظرة خاطفة زادته ارتباكًا.

***

7

آلام السيدة العجوز

لم تعد نظيمة تقوى على الحركة كما كانت فقد أصيبت بشبه شلل بسيط في أطرافها السفلية وعقدت فجيعتها في ولدها لسانها قليلًا فصار حديثها غير مفهوم.. بات كلامها قليلًا ولسانها ثقيلًا وقضى مرض السكري على ما تبقى لها من أسنان.. فباتت حروف كلامها مبهمة.. حتى بيتها لم تستطع الذهاب إليه مرة ثانية ولو لتوديعه بعد أن استوى والأرض بين عشية وضحاها.. فانزوت في أحد أركان البيت المبني بالطوب اللبن الذي يسكنه الخولي جلال وزوجته وأطفاله منذ سنوات بعيدة.. فقدت شهيتها للحياة وللطعام بالتبعية وكلما مر على ذهنها هذا الخاطر قالت: ليته مات بدلًا من فعلته الشنعاء تلك..

صارت ترى الدنيا من حولها أطيافا متحركة كالأشباح، صورًا مهزوزة تكاد ألا تتعرف عليها ولا تتبين شخص محدثها إلا عندما تسمع صوته فتهز رأسها وتصدر أنات مكتومة أحيانا لتعبر لهم عن فهمها لما يقولونه.. كان أكثر ما يؤلمها ويدمي قلبها بعد خديعة ماهر لها أنها باتت عبئًا على جلال الخولي وأسرته فكانت كرامتها تُجرح كل صباح وتظل تنزف حتى تتمزق كبرياؤها إربًا صغيرة إلى أن تأوي إلى فرشتها المتواضعة هربًا من همومها عند الغروب.. ازداد حالها سوءًا فتعبت وهرمت وأضنت من حولها حتى جاء ذات صباح فألحت على جلال وأقسمت عليه بأغلى ما يملك أن ينفذ طلبها الأخير بأن ينقلها لتعيش عند المسجد الجديد وتنام بداخله بعد صلاة العشاء بعد أن علمت بهدم المسجد القديم وتشييد الباشا زاوية صغيرة بدلًا منه، بعد جدل طويل وامتناع منها عن الطعام لكي ينفذ رغبتها، تراجع جلال عن رفضه وامتثل لها حتى لا تسوء صحتها أكثر مما هي عليه وإن كان من داخله يتمزق قلبه على حالها ولا يطاوعه عقله أن يتركها تعيش وحيدة..

مضت سيارة نصف نقل تسير على طريق ترابي بمحازاة مصرف صغير راكد وتُخلف وراءها سحابة من الأتربة نال بعضها من وجه العجوز نظيمة وهي مستقرة بالصندوق الخلفي مرتكنة بظهرها على أحد جوانبه في استسلام دون حراك وكأنها تمثال من البازلت بجلبابها الأسود..!

عندما أنزلها السائق والخولي جلال برفق من صندوق السيارة الخلفي وأراحت ظهرها على جدار الزاوية الجديدة تحسسته برفق ثم قالت لجلال بصوت متحشرج وعبارات مختلطة كعادتها مستعينة بإشارات من كفيها:

- اتركني هنا في رحاب بيت من بيوت الله. أنا سأرتاح في هذا المكان أكثر وسأريح الجميع أيضا..

رد جلال في شجن وهو يكتم حزنه:

- لا يمكنني يا خالة نظيمة أن أفعل ذلك.

أشاحت نظيمة بوجهها عنه بعد أن ترقرقت دموعها رغمًا عنها وسالت ثقيلة ساخنة على وجنتيها وهي تقول بصعوبة بالغة:

- أرجوك نفذ لي رغبتي وإن تعبت فأنا سأطلب منك أن تعيدني معك إلى بيتك..

رد جلال وقد انسابت دموعه هو الآخر:

لقد كنا سعداء بوجودك معنا وهذا دين في رقبتي أمام الله وأمانة ائتمنني عليها ابنك ماهر..

ربتت العجوز برفق على كتفيه ثم أطبقت بكفيها المرتعشتين على وجهه حتى قربت رأسه من شفتيها فطبعت قبلة حانية على جبهته وأصدرت أنات حزينة وبدا صوتها واهنًا ضعيفًا وهي تستحلفه بأن يتركها ويمضي إلى حال سبيله..

قبل جلال يديها وبللهما بدموعه التي ظلت تنساب بغزارة مؤكدًا لها أنه سيحضر إليها يوميًّا مرتين وأن زوجته ستحضر لها عند الظهيرة كل يوم للاطمئنان عليها..

ترك بجوارها صرة طعام تحوي بعضًا من الجبن الأبيض وكسرات خبز شمسي ثم أخرج قروشًا كثيرة من جيبه لم يحصها ووضعها في كفها.. استقل السيارة عائدًا من حيث أتى مخلفًا وراءه غبارًا كثيفًا من جراء انطلاق السائق بسرعة حتى لا يضيع يومه في مشوار وحيد.. بينما قبعت العجوز مرتكنة إلى جدار المسجد ودموعها تنساب في صمت ثم رفعت رأسها نحو السماء وكان صدرها يعلو ويهبط ببطء وهي تتضرع إلى خالقها بأن يرحمها من عذاب الدنيا.. وفي ذات الوقت يغفر لولدها العاق..!!

***

8

الشافعي الكبير

لاك ماهر اللقمة في فمه بعد أن سال بعضٌ من مرقتها على جلبابه والفتات يتقافز في حلقه ويفلت بعضه من بين أسنانه متطايرًا مع حديثه كعادته المقززة في تناول الطعام وهو جالس القرفصاء إلى طبلية خشبية صغيرة:

- لم تأكل كعادتك يا منصور لقد غيرتك مصر كثيرًا حتى جسمك صار أنحف عما غادرت عليه أخميم منذ سنوات

ابتسم منصور وهو يرفع قدمه إلى الحوض ويُسبح في همس ماسحًا إياها برفق بينما الماء البارد ينساب من بين أصابعه قائلًا:

- العمل هنا مضنٍ ومرهق يا ماهر أكثر مما تتخيل.. فأنا مطلوب مني حراسة العقار وقضاء طلبات السكان ونقل أمتعتهم وتنظيف الطرقات أمام الشقق ومسح درج سبعة طوابق كل أسبوع هذا بخلاف أسقف المدخل وتحصيل الإيجار مع أنني في فترة أجازة قصيرة وسأعود للجبهة بالسوىس بعد عشرة أيام مرة أخرى ولكن صاحب البيت الأستاذ جرجس كان كريمًا معي ووافق على استمراري هنا أثناء الخدمة العسكرية وترك لي حجرة صغيرة أبيت بها مع أسرتي.. والله لو كان لديّ أرض مثلك لما بعتها أبدًا ولكنت فلحتها حتى أدفن فيها..

تجشأ ماهر مرتين متتاليتين وهو يضع القلة على يساره بعد أن عب منها جرعات متتالية فوقع بصره على صورة متوسطة حديثة مثبتة بالحائط بلا إطار يحميها للرئيس جمال عبد الناصر يبدو فيها مهمومًا متجهم الملامح تحمل عيناه أسى وانكسارًا ملحوظين عكس صورته التي كان يراها معلقة في إطار خشبي عريض فخم بداخل المقهى بأخميم قبل النكسة وكانت ابتسامة الرئيس فيها عريضة وعيناه تشعان ببريق غريب.. التفت إلى منصور قائلا:

- هانت.. كلها عامين وتنتهي فترة تجنيدك، لا أحد يظل على حاله فالزمن يغيرنا يا منصور كل فترة والأرض لم تكن تعطي لنا شيئًا حتى نتمسك ببقائها والمبلغ الذي بعناها به أبرك لنا من فلاحتها ومن البيت ومن محصولها أيضًا..

أتم ماهر جملته الأخيرة وهو يجز على أسنانه من شدة الغيظ فشعر بالدم يفور في رأسه بعد أن طاف بخاطره حادث السرقة الذي تعرض له بالقطار..

رد منصور وهو يمط شفتيه غير مقتنع فاردًا سجادة الصلاة أمامه في رفق:

- على أية حال ربك يهديك للأصلح لك ولخالتي نظيمة من المؤكد أنها سيدة صالحة وإلا لما تمكنت أنت من أن تبيع أرضك لكاظم بك بهذا السعر المرتفع..

ضاق ماهر بالحديث حتى كاد يختنق فقال في عصبية واضحة وهو يحول دفته:

- متى نذهب للقاء الشافعي؟!

- سأصلي العصر ونذهب فورًا.. لقد حدثته عنك أول أمس للمرة الثانية وطلب رؤيتك عندما تحضر وهو كما أخبرتك يريد عاملًا لمخزنه..

امتعض وجه ماهر قليلًا فلم يكن يخطط للعمل في مهنة بسيطة أبدًا تبدو له بلا حراك..

وأردف منصور وهو يبتسم في هدوء:

- لا تقلق المخزن أسفل الحانوت.. وبعدها سنذهب إلى منطقة إمبابة لترى الغرفة التي ستقيم بها فإن أعجبتك ادفع إيجارها ولتبت فيها من اليوم إن أردت فأنا شبه متفق مع صاحبة البيت..

قاطعه ماهر:

- وكم إيجارها في الشهر؟

نظر إليه منصور باندهاش:

- معك ألفًا من الجنيهات وتسأل عن إيجار غرفة مساحتها عشرة أمتار بالكاد أعلى سطح عمارة قديمة بإمبابة.. ما هذا الشح؟ لقد تصورت أنك ستستأجر شقة في هذه العمارة.. أنت من الأثرياء يا رجل..

قالها وهو يبتسم في وداعة..

ارتبك ماهر وتظاهر بانشغاله في إخراج علبة سجائره من سيالة جلبابه وهو يقول:

- لقد أودعت المبلغ كله بالبوسطة اليوم باسم خالتك نظيمة لذا تأخرت عليك.. ولن أصرف منه مليمًا.. ولا يوجد معي سوى خمسين جنيهًا تقريبًا.. هي كل ما أملك.

ابتسم منصور مطمئنًا إياه قائلًا:

الغرفة إيجارها ثلاثة جنيهات في الشهر وكلها يوم أو اثنين وتتسلم عملك لدى الشافعي وتنتظم أمورك في مصر..

ثم رفع كفيه بمحاذاة أذنيه للتكبير وقبل أن ينطق الله أكبر نظر إلى ماهر قائلًا:

ألن تصلي معي؟!..

كان ماهر قد وضع قدميه في بُلغة قديمة ثم أردف في عجالة:

- ادع لي يا شيخ منصور.. أنا سأدخن سيجارة في الخارج فغرفتك خانقة..

قالها ومضى متجهًا في خطوات واسعة نحو الباب وكأنه يفر منه.. وعندما علا صوت منصور وهو يكبر لإقامة الصلاة ويستعيذ بالله كان ماهر قد اختفى..!

***

تعثر منصور وشرع في الانكفاء حتى كاد يسقط عندما انحنى ليقبل يد الشافعي الجالس إلى مكتبه الخشبي العتيق داخل ركن منزوٍ في نهاية حانوته الذي يشبه في تصميمه جسم ثعبان ملتوٍ.. ممر طويل أشبه بدهليز وتماثيل مرصوصةً يمينًا ويسارًا وعلى أرفف وأخرى داخل واجهات زجاجيةً منخفضة في مواجهة بعضها مرايا كبيرة تزيد الداخل ارتباكًا.. والممر يموج سابحًا في إضاءة خافتة تجبرك على تبين خطواتك بدقة حتى ينتهي بصالة رحبة فسيحة مضيئة بوهج وفي منتصفها تمامًا سلم خشبي يؤدي إلى دور علوي وله درجات منحدرة من الناحية الأخرى تهبط إلى بدروم أو ما شابه.. تذكر ماهر أن منصور قد أخبره بوجود المخزن أسفل الحانوت، لابد وأن هذا الدرج يؤدي إليه.. هكذا حدث نفسه..

كان الرجل الأسمر ذو الطاقية البيضاء الذي شاهده ماهر في صباح اليوم واقفًا بجوار الشافعي مستندًا بظهره إلى الجدار متراخيًا قليلًا في وقفته ويلوك خلة طويلة نوعًا ما بشفتيه بعد أن أطبق عليها بين

فكيه..كان الرجل يتفحص ماهر بدقة من أخمص قدميه إلى رأسه وكأنه عبدٌ سيشتريه من سوق النخاسة.. فشعر ماهر بأن الرجل يكاد يعد عليه أنفاسه!!

بينما جلس أمام المكتب شاب من نفس عمر ماهر تقريبًا يرتدي سترة صوفية سوداء أنيقة أسفلها قميص أحمر من الحرير وقد حرص على ترك الكثير من شعيرات صدره تبرز من فتحته الأمامية بعناية لإعلان رجولته رغم برودة الشتاء.. بينما تدلت قلادة ذهبية ضخمة وسميكة من رقبته على هيئة مصحف تعلن بوضوح مع ساعة اليد المصنوعة من الذهب الخالص عن مدى ثراء هذا الشاب الذي أطال شعر رأسه بصورة مبالغ فيها بينما كانت قسمات وجهه تعبر عن تأفف صريح من هيئة ماهر وزيارة منصور حارس العقار..

لم يرد الشاب تحية ماهر أو حتى منصور الطيب مكتفيًا بنظرة حادة رمقهما بها وكأنهما شحاذان ضلا الطريق إلى داخل الحانوت..! كان يخشى أن يستعين والده كالمعتاد كل فترة بشاب في العمل فيكشف كسله وخموله وقلة خبرته وجميعها مثار انتقاد أبيه له.. فحرص دائمًا على ترهيب وتنفير الباحثين عن فرصة عمل من الإصرار عليها حتى يصابوا بالإحباط ويصل بهم الحال إلى شعورهم بنشوة الفرح ومتعة النجاة عند تركهم الوظيفة لدى الشافعي الكبير..!!

عبث الشافعي بشاربه الأبيض الكثيف ثم قطع الصمت قائلًا:

- كيف حال أولادك يا منصور؟

ظل منصور يتمتم بكلمات الحمد والشكر المشفوعة بالدعاء للشافعي وهو يضرب بكفه على صدره برفق وكأنه لا يصدق نفسه لمجرد تذكر الشافعي لأطفاله..!

لم يرق الأمر كثيرًا لماهر فخفتت ابتسامته وشرد برهة حتى انتبه مرة أخرى على يد منصور وهي تهبط على كتفه قائلًا:

- هذا هو ماهر الذي حدثتك عنه.. ابن خالتي من سوهاج.. شهم ومخلص وأمين ولا يريد سوى أن يعمل فقط..وهو لايرى ولا يسمع ولا يتكلم كما طلبت بالضبط ويشرفه أن يكون خادمًا لك يا حاج..

وقعت الكلمة ثقيلة على مسامع ماهر فبهتت الابتسامة المزيفة وحل محلها قليل من الضجر وبعض الضيق سرعان ما انقلب إلى غضب عارم عندما وضع الشاب ساقًا على أخرى وهو يقول في تعالٍ:

- لن نتخلص أبدًا من هؤلاء الفلاحين الراغبين في العمل بالقاهرة ألا يوجد لديكم عقل..؟

قالها وهو يطرق جانب رأسه بأصبعه في عصبية عدة مرات متتالية وكأنه سيثقبه..! ثم أردف وهو يزفر:

- مثلكم مثل البهائم فعلًا.. إذا كنتم ستعملون جميعًا هنا فهل نذهب نحن لفلاحة الأرض بدلا منكم..؟!

ثم أضاف ووجهه يزداد امتعاضًا وهو يشهر إبهامه رافعًا إياه من أعلى إلى أسفل صوب ماهر:

- ومع ذلك صدقت يا منصور هذه المرة فهو بهذه الهيئة لا يصلح إلا خادمًا فعلًا..

لم يدر ماهر ماذا يقول أو يفعل وغلى الدم في عروقه ولكنه ظل ساكنًا وإن كان قد بدا كلغم على وشك الانفجار في أي لحظة إذا ما اقترب منه أحدهم..

اعتدل الرجل الأسمر في وقفته ومال الشافعي الكبير بصدره ناحية حافة المكتب وقد عقد حاجبيه قائلًا بحسم:

- لقد تأخرت على موعدك يا طلال مع الخواجة رالف.. هيا تحرك بسيارتك وأنا سوف ألحق بك مع توفيق.. هيا..

قالها للمرة الثانية في حدة مشوبة بالغضب.

تحرك طلال ببرود وهو يعبث بسلسلة مفاتيح سيارته التي لاحظ ماهر أنها ذهبية أيضًا.. اقترب طلال منه حتى صار في مواجهته تمامًا ليجبره على إفساح الطريق له.. فتصلب ماهر في مكانه ونفرت عروق رقبته وأطبق أصابع كفه الأيسر كمن يتهيأ لتسديد لكمة مفاجئة.. تلاقت عيناهما في نظرات تحدٍ غريبة غير مبررة وكأنهما غريمان قديمان.. ولم يعد متبقيًا إلا أن يشهر كل منهما سيفه في وجه الآخر استعدادًا لبدء النزال..

مرت ثوانٍ ولكن بطيئة حسمها منصور بوضع نهاية لهذا المشهد المتوتر بأن جذب ماهر من ذراعه ناحيته وهو يدعو لطلال بصوت لا يخلو من تزلف بأن تصحبه السلامة في طريقه وفي ذات الوقت يضغط بشدة على ذراع ماهر الذي بدا كالحمار الذي يحرن من صاحبه فجأة فيتشبث بالأرض وكأنه ملتصق بها..

زفر طلال في وجه ماهر وهو يمضي بجواره ثم تبادل ابتسامة ساخرة مع توفيق الرجل الأسمر ذي الطاقية البيضاء الذي كان لا يزال يصوب سهام نظراته إلى ماهر وكأن جعبته لا تنضب أبدًا من النظرات الحادة..!

رجع الشافعي بظهره في مقعده وتناول مسبحته من على سطح مكتبه وعبث بها وهو يتفرس في هيئة ماهر التي بدت مضطربة وحبات عرق تلمع على جبهته من جراء توتره وكأنها لا تزال في طور النمو تنتظر اكتمالها لتنساب رغم برودة الطقس ثم قال:

- وماذا كنت تعمل في سوهاج؟

رد ماهر وهو يفتح فمه بالكاد من شدة جزه على أسنانه:

- لا شيء..كان عندي بضعة قراريط وبعتها وأحيانا كنت أزرعها.. وأغلب الوقت أؤجرها..

تدلت شفة الشافعي السفلية امتعاضا وهو يقول:

- سنك ليست صغيرة ولا تعمل.. من أي قرية أنت في سوهاج؟

أجابه ماهر وقد بدأ صبره ينفد:

- من أبار الملك.. أخميم.. ناحية كاظم باشا.

تبادل الشافعي نظرة خاطفة مع توفيق ثم أردف قائلًا في صوت رخيم وهو يشرع في الابتسام:

- أخميم يا أهلا بالسخامت..!

ثم ضحك بشدة وهو يتأمل دهشة ماهر بينما انفجر توفيق وبعض العاملين بالمحل ضاحكين.. في حين اكتفى منصور بالابتسام تأدبًا واحترامًا لهيبة الشافعي ومكانته عنده..

ظل ماهر منتصبًا في وقفته واكتفى بأن تفحص وجوههم حتى فرغوا تمامًا من الضحك وساد الصمت لبرهة ثم فاجأهم قائلًا:

- تماثيل سِخمت مدفونة غرب النيل ناحية الجبل يا معلم شافعي.. قال جملته الأخيرة بنبرة ساخرة قليلًا ثم أردف في ثقة:

- أنا من أبار الملك والأرض فيها طينية لا يوجد بها سوى الشقف والفخار..!

انحسرت الابتسامة من على وجه توفيق وكادت دموعه التي انسابت من جراء شدة ضحكه أن تتجمد عند منتصف خده واتسعت عيناه في دهشة بينما تجهمت ملامح الشافعي بعد أن بلع السخرية في صمت دون تعقيب وإن كان بداخله قد أعجب بالرد القوي من ماهر فحرص على إخفاء إعجابه مصوبًا نظرة

حادة لماهر قائلًا:

- إذا كان الأمر كذلك لماذا حضرت إلى القاهرة.. إذا كنت تحفر وتنقب في الجبل؟

ثم نظر إلى منصور في غضب فارتبك الأخير وتلعثم وهو يحاول أن ينفي الاتهام عن ماهر بعبارات عامة مجهلة فقد كان منصور الطيب اسمًا على مسمى.

تراخى ماهر قليلًا وتراجع عن حدته وهو يقول بنبرة لا تخلو من الانسحاب:

- أنا لا أحفر ولا أنقب.. أنا فقط أسمع من أهل القرية عن وجود آثار هناك.. أنا... أنا كما قلت لك بدون عمل وأقضي معظم وقتي على المقهى وأحيانًا مع بعض الخفراء التابعين لمصلحة الآثار بالناحية الغربية وأبي كان منهم ومن هنا وهناك أسمع كلامًا كثيرًا عن الآثار.

ثم التفت إلى منصور مباغتا إياه بسؤال:

هل تعرف عني أنني أتجر في مساخيط؟

رد منصور بعفوية:

- لا..لا والله يا حاج شافعي.. ماهر متدين حتى أنه عرض على كاظم بك بناء مسجد لأهل القرية بدلًا من المسجد القديم الذي يرقد أسفله جده..

تبدل وجه الشافعي مرة ثانية وتبادل مع توفيق نظرات ذات مغزى عند الحديث عن مسجد كاظم وأفلتت من توفيق كلمة عابرة مغلفة بالدهشة:

- أنت؟! ..

فجأة هب الشافعي واقفًا تاركًا مكتبه فأفسح له منصور وماهر ممرًا بينهما وتحرك أحد الصبية في خفة وسرعة من خلف واجهة زجاجية قريبة بعدما لمح الشافعي يتحرك في الممر وسرعان ما كان الصبي يعاونه في ارتداء عباءته بينما التقط الشافعي طربوشه ذا اللون الداكن الذي لا يزال يحرص على ارتدائه من أعلى الحامل الخشبي المثبت بالحائط وقال دون أن يلتفت إليهما بعدما شعر بمنصور يسير خلفه مباشرة:

- فيما يبدو يا منصور أننا لن نحتاج لقريبك هذا.. على الأقل الآن.. فالحال واقف بعد الحرب والسوق راكدة.. وطالما باع أرضه فلديه ما يكفيه ويغنيه عن العمل مؤقتًا..

ثم رمق ماهر بنظرة حادة من عينيه الغائرتين في وجهه واللتين لم تفقدا بريقهما رغم تقدمه في السن وتركهما وانصرف بعد أن سبقه توفيق إلى السيارة التي كانت تنتظره أمام باب الحانوت مباشرة.. بينما تظاهر أحد صبية الحانوت الذي يقف خلف ماهر ومنصور بإزاحة الأتربة من أرضية الممر بمقشة صفراء ذات يد خشبية طويلة وهو يبتسم لزميليه في خبث..!!

***

9

الغرفـــة

ظل منصور وماهر واقفين على باب الحانوت يتفصدان عرقًا في عز الشتاء.. منصور يعاني من الإحراج أمام قريبه وبلدياته وما لاقاه من سخرية وصلف في المعاملة وصلت إلى حد الإهانة بداية من تطاول طلال حتى اكتملت ذروتها في مشهد الخروج.. بينما كان ماهر يشعر بالمذلة من أجل فرصة عمل تبخرت أمام عينيه رغم كونها مسألة حياة أو موت بالنسبة له خاصة أنها لدى تاجر آثار حسبما كان يحلم.. فطريقه الآن صار اتجاهًا واحدًا إجباريًّا فلم يعد بإمكانه العودة إلى أخميم مرة أخرى بعد كل ما تعرض له ولاقاه في يوم واحد فقط..!!

***

دفعت زبيدة باب الحجرة بكلتا يديها بعد أن جربت ثلاثة أزواج من المفاتيح حتى استجاب السابع أخيرًا.. تمخطرت قليلًا في مشيتها حتى النافذة ففتحتها على مصراعيها فتسرب منها تيار هواء بارد لفح وجهيهما بشدة ثم انفتحت في الحديث وكأنها تحفظه عن ظهر قلب من خلال نبرة واحدة لا تتغير أبدًا :

سرير من النحاس المتين وأريكة لم يمض على تنجيدها أكثر من عام وطبلية أسفل السرير..

- مال منصور بجذعه قليلًا حتى يراها.. ثم أزاحت السيدة السمينة بذراعها الممتلئ بالشحوم البيضاء التي تترجرج مع كل حركة منها ستارة صفراء بالية تزينها ورود حمراء اجرب لونها قائلة:

- وهنا دورة مياه بلدية وحوض.. وهذا الصيوان للملابس وبه بطانية صوف إن شعرت بالبرد..

قالتها وهي ترفع أحد حاجبيها وترسم نصف ابتسامة ماجنة على شفتيها.. فلما لم تجد استجابة من كليهما وضعت كفيها حول خصرها ناظرة إليهما في ضيق وهي تعيد على مسامعهما الكلام بنبرة لا تخلو من تهديد صريح:

- إذا لم تعجبكما الغرفة فلديّ زبون آخر جاهز ومن الليلة أيضًا ولن تسترد الجنيه الذي دفعته عربونًا..

كانت توجه حديثها إلى منصور الذي التقاها أمس ليحجز الغرفة لماهر قبل وصوله..

رمقها ماهر بنظرة غاضبة وألقى بسيجارته على أرض الغرفة ثم سحقها بحذائه دون أن ينزل عينيه من على وجه السيدة التي استشاطت غضبًا وقبل أن تنطق معترضة قال:

- سأستأجر الغرفة لمدة عام وسأدفع لك ستة أشهر مقدمًا..

تهللت أسارير زبيدة وفركت كفيها في لهفة بينما كانت عيناها تزدادان جحوظًا وهي تتأمل حافظة نقوده العريضة ذات الكباسين الفضية اللامعة المتراصة في صف منتظم على جانبها الأيسر.. اشرأب عنقها بينما كان ماهر يفض الحافظة الجلدية مرتين ثم أخرج منها ورقتين ماليتين عريضتين كل واحدة فئة العشرة جنيهات قبضت عليهما السيدة بكفها وطوتهما في صدرها فاختفيتا في ثوانٍ.. ثم استدارت في خفة لا تليق بوزنها وحجمها فعاجلها ماهر بنبرة ساخطة حادة:

- انتظري.. يتبقى لي جنيهان..

ضحكت فارتج صدرها الضخم وهي تنظر إليه بدلال مصطنع:

- سأعد لك بهما إفطارًا كل يوم أم تفضل تناول العشاء بدلًا منه؟ تبدو وحيدًا يا.....

ثم ارتكنت إلى حرف باب الحجرة المفتوح وهي تتأمز في خلاعة قائلة:

- لم أتشرف باسمك بعد؟

أجابها منصور وهو يخفض رأسه قليلًا حتى يتجنب النظر إلى صدرها الذي يطل في بجاحة متعمدة:

- اسمه ماهر السوهاجي وهو متزوج وزوجته ستأتي بعد أيام لتقيم معه..

ابتسم ماهر رغم ضيقه وأطلقت السيدة ضحكة رنانة قائلة:

- إلى أن تحضر زوجتك سأتكفل بك.. ثم صفقت الباب خلفها في شدة.

زفر ماهر في ضيق فقال منصور:

- لا تشغل بالك بها إنها تتظاهر بالدلال من أجل مزيد من المال.. ولكنها فيما يبدو لا تقصد شيئًا و....

قاطعه ماهر وهو يلتقط صرته من على الأرض ليفضها على السرير:

- هذه المخبولة يبدو أنه ليس لديها مرآة في بيتها.. لا تشغل بالك بها فهي لم تشغلني.. أنا في ضيق مما حدث اليوم..

ثم علت نبرة صوته في عصبية قائلًا:

ومن يكون هذا الشاب الرقيع المخنث الذي يُدعى طلال ؟

أجابه منصور وهو يطرق في خجل:

- الأستاذ طلال ابن الحاج شافعي..

رد ماهر وهو يضع قطع ملابسه القليلة التي لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة داخل الصيوان:

- والله لولا أنني أحترم وجودك لكنت قتلته..

ثم مضى يلعن ويسب بأقذع الألفاظ كل من قابلهم منذ أن وطئت قدماه أرض القاهرة، حتى توفيق الرجل الأسمر لم يسلم من لسانه البذيء..

فجأة توقف ماهر عن ترتيب حاجياته كمن لمعت في رأسه فكرة:

- هل لاحظت ما قاله توفيق عندما ذكرت أنت موضوع هدم المسجد وقبر جدي؟

هز منصور رأسه بالنفي ثم أردف:

ماذا قال..؟

شرد ماهر قليلًا ثم عاد يطوي جلبابًا أمامه مرتين وهو يقول:

- لا شيء..لا شيء.

ظن منصور أن ماهر قد تضايق من الحديث فلم يجد ما يقوله له وشعر بحرج موقفه فحاول تغيير الموضوع قائلًا:

- ما رأيك أن نزور سيدنا الحسين والسيدة نفيسة و.....

أشار له ماهر بيده ليتوقف قائلًا:

- أنا متعب وأريد أن أنام.. هذا أطول يوم في حياتي..

قالها وهو يزفر زفرة طويلة.. كأن جوفه يُخرج نارًا حارقة.

لم يلح منصور الطيب عليه أكثر من ذلك فودعه وتركه على وعد بلقاء في الصباح الباكر للبحث عن

عمل جديد قبل أن يغادر للجبهة.. تمدد ماهر على سريره النحاسي فأصدر أصواتًا عالية مزعجة خشي معها أن ينهار به فجأة فحرص على التقلب ببطء كلما أراد.. كانت وضعية سريره وارتفاعه عن الأرض يسمحان له برؤية أفضل عبر النافذة الوحيدة بالغرفة والتي كان يرى من خلالها الأهرام الثلاثة من بعيد كعلب ثقاب صغيرة وإن كانت واضحة على إثر ضوء قوي مُسلط عليها.. عاد الغضب يسري في عروقه عندما تذكر سرقة نقوده ثم شعر بالدماء تغلي في رأسه عندما طاف بخاطره ما لاقاه بحانوت الشافعي الكبير هذا المساء والإهانة التي تعرض لها من الشافعي الصغير الذي وصفه بأنه خادم.. تمتم بسباب قذر ليشفي غليله فلم يرق باله بما يرضيه.. اعتدل في رقدته كزاوية قائمة ثم انحنى عابثًا بيده متحسسًا الفراغ حتى أمسك بفردة حذائه فأخرج منها علبة سجائره.. أشعل واحدة ونفث دخانها ببطء مكونًا حلقات ظلت تتجمع أمامه ثم بدأت تعلو بهدوء وهو يتأمل أسطح العمارات والمباني المجاورة عبر نافذته الضيقة.. عاد يصوب بصره نحو الأهرامات الرابضة في شموخ من بعيد وإحساسه بفقد نقوده ومن بعدها كرامته يزيده غلًا وضيقًا فلم يدر بنفسه إلا وهو يردد بصوت شبه مسموع:

أقسم بالله لأن أعوض كل قرش سرق مني بل وسأسترده أضعافًا مضاعفة من كل حبة تراب فيكِ يا مصر..!!

***

10

الخبيئة

مرت ثلاثة شهور كان الهدم فيها يجري على قدم وساق ولكن دون بناء جديد، اللهم إلا زاوية صغيرة بناها كاظم بك للفلاحين شرق بيت ماهر السوهاجي الذي أصبح هو والأرض سواء بسواء بينما بقيت الشجرتان التوأم وكأنها شاهدة على جريمتين.. ما خبأه ماهر في جوفها من قطع أثرية.. وما فعله كاظم بك بالمسجد الذي لم يتبق منه سوى أطلال.. ثلاثة جدران ونصف سقف بينما ترقد المئذنة في هدوء وسط الأرض الزراعية التي ورثها كاظم عن أبيه الباشا..

لم ينشغل أهل القرية كثيرًا بهدم المسجد وأنساهم بناء الزاوية الجديدة قصته فانشغلوا بأمور دنياهم عنه ونجح الشيخ عبد الدايم في إلهائهم بحديثه عن الغيبيات وعذاب القبر والثعبان الأقرع فكان جُل ما يفعلونه أنهم يقرأون الفاتحة لـ آل السوهاجي ذهابًا وإيابًا في طريقهم للزاوية عندما يمرون بجوار أطلال المسجد القديم ولم يلفت نظر أحدهم أن أشخاصًا مجهولين يترددون على تلك الأطلال محملين بحبال غليظة وفؤوس ومقاطف مجدولة من خوص النخيل يتقدمهم مراد الشامي ذلك الرجل الغامض مهندس صفقة هدم المسجد الذي كان كل ليلة يحمل مصباحًا ضخمًا يطلق منه أضواءً متقطعة ليتبين طريقه عبر الزراعات حتى يتوارى خلف أطلال المسجد التي تركوها عمدا لتسترهم أثناء حفر البئر.. وفي ليلة مقمرة من ليال شهر مايو كان مراد الشامي يسرع الخطى مستعينًا بمصباحه بينما تقبض يده اليسرى على كيس مخملي صغير وعندما لاحت له أنوار السرايا لمح خيال كاظم وهو يتحرك جيئة وذهابًا في الشرفة كأسد جائع حبيس ينتظر وجبة دسمة يلقي له بها حارسه..!!

قفز مراد درجات السلم في رشاقة ثم بسط كفه في حركة مسرحية فظهر الكيس المخملي متربعًا على راحة يده يتلقى نظرات اللهفة التي أطلت من عيني كاظم حتى جحظتا.. كانت ابتسامة مراد الخبيثة وانتفاخ الكيس كافيين لأن يدرك كاظم بك أن كل ما أبلغه به مدير المنطقة الأثرية بأخميم كان صحيحًا وأن هناك كنزًا ذهبيًّا من العملات الرومانية أسفل المسجد..

بصوت خفيض متلهف وصدر يلهج قال كاظم:

- هل وجدتها؟!

رد مراد بنبرة المنتصر:

- آلاف من العملات الذهبية يا كاظم بك في انتظارك.. هذه ليست خبيئة.. هذا كنز حقيقي.. لن تصدق عينيك أبدًا..

بأصابع مضطربة وأيد ترتجف فتح كاظم الكيس ومضى يقلبه بحرص شديد حتى صارت فوهته ناحية كفه الآخر المنبسط وهو يرتعش وظل يراقب العملات الذهبية وهي تتهاوى برفق واحدة تلو الأخرى وبريق الذهب يخطف أبصارهما معا..

بعض العملات كان مطموسًا من التربة الطينية التي دفن فيها قرونًا طويلة وبعضها لايزال يحتفظ بنقوش رومانية واضحة على وجهيه..

احتضن كاظم الكيس برفق فسقطت عملتان على الأرض وتدحرجتا حتى انزوت واحدة تحت المنضدة بينما استقرت الأخرى خلفها بمسافة، فركع على ركبتيه كطفل يبحث عن دميته الصغيرة التي سقطت منه مخاطبًا مراد في لهفة:

- يوجد منها الكثير يا مراد.. الكثير أليس كذلك ؟!

زادت ابتسامة مراد اتساعًا وهو يجيبه:

- نعم..لابد وأن تشاهدها بنفسك سترى مشهدًا لا يمكنك أن تراه حتى في أفلام هوليوود..

تردد كاظم كثيرًا فلم تكن سنه ولا لياقته الصحية تسمحان له بمغامرة غير محسوبة كتلك.. خاصة وهو يعلم من مراد أن البئر التي حفروها عميقة..

وكأن مراد كان يقرأ أفكاره فقال:

- لا تخف أنا نزلت مرتين فهناك حبل قوي ورجال أشداء ويمكننا وضع سلم خشبي لك في فتحة البئر فقطرها عريض والأمر لن يحتاج منك سوى خمس دقائق فقط لكي تمتع عينيك بالكنز في بيئته الأصلية فاستخراجه سيستغرق وقتًا..

قالها وهو يضحك مشجعًا له بهز رأسه بالإيجاب..

لمعت عينا كاظم بك بشدة ثم اتخذ قرارًا انتحاريًّا فخلع روبه الأزرق وتخفف من رابطة عنقه ودس الكيس المخملي في جيبه ومضى خلف مراد وكل برهة يستمهله ممسكًا بذراعه حتى لا تزل قدماه أثناء السير بأرضه الزراعية التي ربما لم تطئها قدماه بهذه اللهفة والاشتياق يومًا ما..!

***

فرغ منصور من صلاته وجلس على سجادة الصلاة كالمعتاد يُسبح.. في حين أطفأ ماهر سيجارته في ضيق وهو يشوح بيسراه معربًا عن يأسه قائلًا:

- لا فائدة.. ثلاثة أشهر الآن وأنا لم أجد وظيفة أو مهنة حتى ولو كانت حارس عقار..

قالها ماهر بسخرية واستهزاء.. ثم تنبه بسرعة لما قاله فنظر إلى منصور في خجل قائلًا:

- سامحني يا منصور لم أقصد أن.....

قاطعه منصور وهو يربت على كتفه برفق والابتسامة لا تفارق وجهه:

- لا عليك أنا مقدر ما أنت فيه إن شاء الله تفرج يا ماهر عن قريب وأنت معك مال وفير فلا تقلق..

رد ماهر في عصبية أزاحت بقايا خجله من قسمات وجهه:

- لا.. هذا المال ملك أمي ولن أتصرف فيه أبدًا أرجوك لا تفتح هذه السيرة مرة أخرى معي.. انسها تمامًا.

تعجب منصور من نبرته الحادة فدعاه لكوب شاي حتى يُريح أعصابه إلا أن ماهر كان قد ضاق بحديث الصبر والدعاء والأمل الذي لا يفارق منصور كظله فانتعل حذاءه وهم بالانصراف..

فباغته منصور قائلًا:

- إلى أين أنت ذاهب الجو حار الآن وغير معقول أن تبقى في غرفتك من العصر حتى صباح الغد..

أجابه ماهر في يأس:

- سأتمشي قليلًا لقد مللت الجلوس في غرفتك..

قال عبارته ثم صفق باب الغرفة خلفه في شدة معربًا عن غضبه..

مضى ماهر يتسكع في شوارع وسط المدينة ويراقب حركة المارة والسيارات في بلادة ثم ابتاع بعض الأرغفة وقليلًا من الفول المدمس ووجد نفسه يعود أدراجه إلى عقار منصور إلا أنه لم يدخله بل قرر أن يفترش الأرض في مساحة صغيرة منزوية بجوار مدخل العقار ومحل لعب الأطفال الملاصق له والمملوك للخواجة جاكوب أرتينيان.. انتبه بعد قليل إلى صوت تصادم خفيف بالقرب منه.. كانت سيارة حمراء حديثة ذات سقف مكشوف تقودها سيدة في منتصف العشرينات من عمرها ترتدي قبعة قطنية كبيرة لونها كلون سيارتها تحاول أن تجد مكانًا لها بين سيارتين أمام محل جاكوب.. مضى يتأملها وهو يبتسم ويغمض عينيه كلما اصطدمت بإحدى السيارتين.. بعد ثلاثة محاولات فاشلة من السيدة هب واقفًا ومسح فمه في أحد أكمام جلبابه ثم اقترب منها بهدوء موجها إياها بإشارات من يده وصيحات تحذيرية مصحوبة بابتسامة مطمئنة حتى استقرت السيارة آمنة تمامًا بين السيارتين.. وقف أمام السيارة مندهشًا بينما كانت السيدة تحكم إغلاق سقف سيارتها بعصا يدوية دوارة أسفل المرآة الامامية وانبهاره يتزايد بما يراه لأول مرة في حياته فقد كان يظن أن تلك السيارات المكشوفة بالقاهرة قد صنعت بلا سقف..

نزلت السيدة من سيارتها ونظرت إليه بابتسامة ودودة قائلة بلهجة فرنسية رقيقة:

ميرسي..

ثم مدت يدها ناحيته فبسط كفه تلقائيًا وهو ينظر لعينيها فتركت له بها شيئًا ثم غابت عن عينيه المتعلقة بها داخل حانوت الشافعي.. كانت سمراء متوسطة الطول وتميل إلى البدانة قليلًا ولكنها تحتفظ بكثير من الأنوثة أظهرت بعضًا منها في نبرة صوتها وبعضًا آخر في مشيتها.. هز رأسه مرتين بعنف وكأنه يطردها من ذاكرته ثم نظر إلى كفه الممدود كانت هناك خمسة قروش فضية تتوسطه فظل يتأملها في وجوم وبدا من كثرة شروده وكأنه يقرأ طالعه..!

***

- والآن أدر ظهرك وتحرك ببطء.. ببطء يا كاظم بك.

كان مراد ممسكًا بيد أحمد كاظم الذي أدار ظهره لفوهة البئر أسفل أطلال المسجد وبدأ يحرك قدميه إلى أسفل متحسسًا موضعها على السلم الخشبي القديم الذي يمسك به من الناحية الأخرى بالبئر أحد رجال مراد الشامي..

ظل مراد مشجعًا ومطمئنًا إياه في كل خطوة ممسكًا يده بقوة وبالأخرى يطلق مصباحه في فوهة البئر لينير له موضع قدميه..

عندما وصل كاظم لمنتصف السلم تقريبًا كان مراد لا يزال في ثلثه الأول أو أعلى قليلًا وكفاهما قد انفصلا بعد أن اعتمد على كلتا يديه في الإمساك بجوانب السلم وفجأة شعر أحمد بك كاظم بأنفاسه تعلو وعرقه البارد الغزير يغزو جبهته وسرت رجفة غريبة بجسده فصوب مراد المصباح على وجهه قائلًا:

- ماذا بك يا كاظم بك لماذا توقفت؟

أغمض كاظم عينيه من شدة الضوء وهو يقول بصوت خفيض:

- أشعر باختناق ودوار يا مراد..

تحرك مراد خطوة غير محسوبة إلى أسفل لكي يقترب منه أكثر فصار الحمل ثقيلًا في تلك النقطة فلم يتحمله السلم الخشبي المتهالك فتصدع أحد عروقه وطقطق آخر وكأنه متضامن معه محدثين جلبة مزعجة في جوف البئر كجرس إنذار ولكن بعد فوات الأوان فسرعان ما ترنح كاظم بعد أن تملكه الدوار وخارت قواه ففقد توازنه وهوى بشدة على ظهره فاصطدمت رأسه بإحدى الجرات الفخارية الضخمة فشقتها نصفين بينما تعلق مراد بحافة البئر بيسراه بعد أن سقط مصباحه من جراء اضطرابه..

فجأة تعالت شهقة مكتومة من الرجل الذي كان أسفل البئر بعد أن أطلق ضوء المصباح فوجد كاظم بك وقد جحظت عيناه بعد أن فارق الحياة.. كان ممددًا بجوار إحدى الجرات المهشمة والتي انسابت العملات الذهبية منها على صدره حتى غطته بينما تتسع ببطء بقعة من الدماء أسفل رأسه.. في حين كانت باقي الجرار الفخارية الأخرى ترقد بجوار جثته على جوانبها وقد امتلأت عن آخرها بالذهب تنتظر في سكون وترقب مالكها الجديد..!

***

11

زبيدة

صعد ماهر الطوابق الثمانية ثم دلف إلى حجرته منهكًا من التعب.. لم ينم تلك الليلة جيدًا فقد كانت أصوات النسوة التي تتعالى من الغرف الخمسة المتناثرة على سطح العقار تقض مضجعه.. لم يعد يعترض مثلما فعل منذ شهرين عندما اكتشف أنهن ساقطات جلبتهن زبيدة لتدير سطحًا للدعارة..! مستعينة بثلاثة رجال أشداء من القوادين مساعدين لها على إتمام مهمتها وفي ذات الوقت يتظاهرون بأنهم من قاطني السطوح والنسوة الساقطات زوجاتهم كي لا ينكشف أمرهم.

دار في خلده وقتها أنها فكرة جديدة لا تلفت الأنظار فالعقار هو الأعلى عن أي بناية أخرى حوله وبمسافة كبيرة كما أنها تضفي جوًّا أكثر غموضا وإثارة أثناء ممارستهن الجنس، فجميع الغرف ترى أهرامات الجيزة إذا ما كانت مضاءة أثناء عروض الصوت والضوء.. يا لها من فكرة شيطانية جذابة..

مع الوقت اعتاد وجودهن حوله وأصبح يقضي وقته أحيانا أثناء ساعات النهار متلصصًا على أفخاذهن البيضاء الناصعة وقد انحسرت عنها جلابيبهن عمدًا بينما ينشغلن بالعناية بكعوب وأظافر أقدامهن وإزالة ما نبت على سيقانهن من شعيرات.. ثم نجح بعد فترة وجيزة في استغفال قوادي زبيدة واستدرج إحدى الفتيات وتدعى نرجس إلى غرفته عدة مرات بعد أن أوقعها في غرامه وأغراها بفحولته ثم وعدها بالزواج حتى لا يدفع لها مقابلًا لما يحصل عليه منها وبعدها استمرأ البقاء وسطهن دون تذمر أو شكوى..

استيقظ في الصباح متكاسلًا، طرقت زبيدة باب حجرته طرقات متناغمة راقصة كعادتها.. فطلب إمهاله قليلًا وهو يبتسم فقد كان يجلس في دورة المياه ملتويًا على نفسه يعتصر أمعاءه لإخراج فضلاته.. بعد فترة فتح باب غرفته وهو يرفل في جلباب أبيض جديد فوقع نظره على إحدى الفتيات جالسة على أرض السطوح عارية الساقين، لمحته زبيدة وهو يختلس نظرة خاطفة إلى الفتاة التي ابتسمت له في مجون فدفعته زبيدة في صدره بغضب إلى داخل الغرفة وهي تسأله بلهجة لا تخلو من الغيرة:

- هل تعجبك هذه المقفعة؟

كان ماهر يدرك أن تلك المرأة الحيزبون تصر على الزواج منه وتُلح في طلبها بعد أن أوهمها بحبه لها وأقام معها علاقة جنسية ولكن في شقتها بعيدًا عن فتاته نرجس.. وهي لا تدري إلى الآن أن هذه العلاقة كانت وسيلته الوحيدة ليتمكن من البقاء في هذه الغرفة بعد أن نفد ما كان معه من نقود متمتعًا بإقامة مجانية بالإفطار فصار يؤدي هذه المهمة وكأنه ثور يحرث أرضًا بورًا فتنهكه حتى تخور قواه بينما هي ميتة لا حياة فيها ولا رجاء منها.. وبقدر ما كانت هذه العلاقة ممتعة له في البداية تُشبع غرائزه وتُشعره برجولته وتنُسيه ما كان يمر به يوميًّا من مهانة وكأنه ينتقم من إخفاقاته في اعتلاء جسدها بقدر ما أصبحت مقززة له مع مرور الوقت خاصة أن المرأة العجوز أصبحت تطارده ولم تعد تكتفي بلقاءاتهما الأسبوعية التي يؤدي مهمته الثقيلة فيها..

أدار ظهره لزبيدة فاقتربت منه حتى التصقت به تمامًا ووضعت كفها على كتفه فشعر بأنفاسها الساخنة تغزو رقبته ببطء وهي تهمس:

- فكر جيدًا يا ماهر.. ستعمل معي في إدارة هذا المكان.. أنا وحيدة والغرف كما ترى كثيرة وأخاف من هؤلاء البغال الثلاثة فلا أمان لهم..

ثم أردفت بنبرة إغراء:

وشقتي بالطابق الثالث سنعيش فيها وتكون أنت الآمر الناهي في المكان.. ثم ضحكت قائلة:

- وفي صاحبته أيضًا..

أزاح ماهر كفها بتأفف وكأنه يزيح همًّا ثقيلًا يجثم على كتفيه وهو يتململ بعد أن امتعض وجهه قليلًا عندما استدار وصافحت عيناه وجهها الذي بدا كورقة طويت ثم أعيد فردها فظهرت عليه آثار السنين محفورة بعمق بعد أن فشلت المساحيق الزاعقة في حجبها..

ثم قال لها في نبرة لا تخلو من باب خلفي تركه مواربًا عمدًا ربما يحتاجه يومًا ما للهروب من شبح الإفلاس والبطالة:

- أنا لا أصلح لهذه النوعية من الأعمال يا زبيدة..

ثم ابتسم ابتسامة مصطنعة باهتة وهو يردف:

- وأنت تستحقين من هو أفضل مني.. أنا مضطر لأن أتركك الآن رغمًا عني فقد تأخرت عن موعد عملي..

ردت زبيدة وهي تتصعب بشفتيها وقد أحست بخيبة الأمل تعتريها وبامتعاض يغزوها بكثافة بعد أن خاب مقصدها كالمعتاد في إغواء ماهر العنيد:

- أي نوع من العمل هذا الذي تذهب إليه كل يوم في موعد مختلف؟

أجابها وهو يبتسم في خبث:

- موظف بإدارة قلم المرور بوسط القاهرة ..

***

12

على الجانب الآخر

دس ماهر يده في جيب جلبابه وهزها برفق مستمتعًا برنين العملات الفضية التي جمعها من أصحاب السيارات.. أربعون قرشًا حصيلة يومه ابتاع منها كعادته بعضًا من أرغفة الخبز وقليلًا من الفول المدمس وحزمتي جرجير وجلس يتناولها في مكانه المفضل مستندًا بظهره إلى الجدار الفاصل بين محل لعب الأطفال وحانوت الشافعي الكبير لتجارة العاديات..

لم تمر دقائق كثيرة حتى خرج إليه الخواجة جاكوب رامقًا إياه بنظرة احتقار اعتاد ماهر عليها فمضى يحشو فمه بالطعام غير عابئ بوجوده ..

أطلق جاكوب في وجهه وابلًا من الشتائم باليونانية أعقبها بسيل مماثل بلغة عربية ركيكة قابلها ماهر بابتسامة باردة وتشويح بيسراه مثل كل مرة، إلا أن مشهد النهاية كان مختلفًا اليوم، فقد غاب الخواجة جاكوب لثوانٍ بداخل محله ثم عاد حاملًا وعاءً معدنيًّا لامعًا مملوءًا بالماء وسرعان ما كان ماهر غارقًا تمامًا وقد التصق جلبابه بجسده من جراء رطوبة الطقس وشدة البلل..

جذبت تلك الجلبة صبيان محل الخواجة ورجال حانوت الشافعي الكبير وحال تواجدهم دون وقوع مشاجرة كانت وشيكة بعد أن أمسك ماهر بتلابيب جاكوب حتى كاد يطرحه أرضًا.. انفض السامر إثر صفارة طويلة متقطعة من أميني شرطة نقطة بوليس طلعت حرب وهما يهرولان بزيهما الأخضر الداكن التقليدي وأجهزة اللاسلكي الضخمة تتأرجح على جوانبهما..

لم يكن هناك ما يستدعي اصطحاب ماهر لنقطة الشرطة خاصة وهو يحمل بطاقته الشخصية فاكتفى أمينا الشرطة بصرفه من المكان، وهو بدوره انتظر برهة على الجانب الآخر من الميدان بالقرب من محل جروبي حتى انصرفا ثم عاد ليساعد أصحاب السيارات في إيجاد أماكن انتظار لها متعمدًا الجهر بصوته وكأن شيئا لم يكن.

اضُطر ماهر أمام لعنات وشتائم الخواجة جاكوب وجرادل المياه التي كان يسكبها كل فترة أمام محله أملًا في رحيل ماهر عن ركنه الذي يستظل به من لهيب شمس النهار إلى إحضار مقعد خشبي صغير وضعه أمام مدخل العقار الذي يتوسط الحانوتين، فإذا ما لاحت له سيارة تبطئ من سرعتها تمامًا وبدا على سائقها أنه يبحث عن مكان لتركها به هبَّ ماهر واقفًا لمساعدته، وإذا ما استدعى الخواجة جاكوب له أمناء الشرطة عاد ليجلس في تكاسل عابثًا في أصابع قدميه متظاهرًا بأنه حارس العقار الأصلي فيتركونه وشأنه.. بينما يظل جاكوب لا يملك حياله سوى أن يطلق لعناته وشتائمه باليونانية تارة وبالعربية تارة أخرى..

مرت أسابيع وماهر لا يتغير حاله ولا يسعى هو لتغييره.. استسلم تمامًا لقدره رغم أن مهنته لم تكن تروق له كثيرًا ولكنه بات متكاسلًا متواكلًا، فلم يعد يبحث عن وظيفة بعد أن استقر بينه وبين نفسه على التقرب من الشافعي الكبير بأي وسيلة فصار لا يفعل شيئًا سوى انتظار فرصة سانحة بعد أن بيَّت بنفسه أمرًا وضعه القدر في طريقه..

***

كان كالإناء المملوء بالماء كلما استعرت النار تحته يغلي ويفور ثم يهدأ فجأة عندما تخبو وتنطفئ بفعل فاعل.. وفي كل مرة كانت حماسته تزيد وتكبر كلما استنفرت وكأن بداخله أسدًا هصورًا ينمو وينتظر اللحظة الفارقة ليزأر ويفترس عدوه.

وقف منصور بجسده الضئيل على الضفة يراقب الجهة الأخرى بمنظار مكبر رآهم على الضفة الأخرى يرتعون وكأنهم يحكمون ما ملكوا..!! أفلت المنظار من يده ليستقر على صدره مشدودًا إليه بخيوطه فانتابه إحساس غريب بأنهم باتوا أقرب عما كان يراهم منذ قليل وكأن صفحة مياه القناة قد اختزلت فصاروا على مرمى حجر منه.. تملكه شعور بالجرأة والعزيمة ولم يدر بنفسه إلا وهو يغوص بقدمه متخطيًا الشاطئ فتراجع حسيرا.. زفر في ضيق فصدره معبأ عن آخره حتى كادت ضلوعه تتحطم تحت وطأة الغضب.. شعر لوهلة بيأس يتسرب إليه وبأنهم لن يعبروا إلى الجانب الآخر أبدًا فلا عتادهم أو عددهم يسمحان بذلك.. شرد قليلًا في أحاسيسه المتباينة التي تعتصره كثعبان أرقم لا فكاك منه.. كان يؤمن أن بداخله طاقة هائلة لو أخبر بها قادته ورؤساءه في المعسكر لسمحوا له بالعبور فورًا..

ابتسم في أسى ثم سار على الرمال عائدًا لخيمته وهو يتأمل زملاءه الجالسين في حالة استرخاء بعد قبول قرار وقف إطلاق النار بين الجانبين ثم لاحت منه التفاتة أخرى للضفة الأخرى فلمح قرص الشمس وهو يتوارى خلف الساتر الترابي رويدًا رويدًا حتى يكاد يجثم عليها ويمحوها فلا يمكنها من أن تشرق من جديد.. فأغمض عينيه وهو يجز على أسنانه ويتمتم ببعض الآيات القرآنية لتعينه على الصبر والاحتمال.

***

اندفع مجندان كثورين هائجين نحو الباب الخشبي الضخم بجانبي كتفيهما فانهار أمامهما في ثوانٍ معدودات ولكنها كانت كافية لإيقاظه من نومه وأيضا لكي يطبق على أنفاسه ويجثم على صدره ضابطانٍ وثلاثة مخبرين آخرين صفعه أحدهم على وجهه بشدة مرتين متتاليتين حتى سال خيط رفيع داكن من جانب فمه بينما حدقتاه تتسعان في فزع ودهشة انتزعوه من فراشه كشجرة تقتلع من جذورها ثم عبث الضابط أسفل الوسادة براحة يده لعله يعثر على سلاح فالتقط بطاقته الشخصية ففضها وهو يقرأ بنبرة لا تخلو من استهانة:

صادق عبد الدايم عبد الحق، المهنة فلاح مولود ومقيم في أخميم أبار الملك محافظة سوهاج.. نظرات زائغة من صاحب البطاقة وأخرى نارية تقابلها على الجانب الآخر حيث اصطف الضباط في مواجهته بينما شد المخبرون وثاقه وسرعان ما وضعوا عصابة سوداء على عينيه فصلت بينه وبين الزمان والمكان لأيام طويلة.

***

- هل أرشد عن باقي العناصر أو أماكن الاجتماعات؟

أجاب أحد الضباط على مدير الإدارة وهو يلتهم سطور محضر الاستجواب بعينين مجهدتين تسندهما هالات سوداء وجفون منتفخة:

حتى الآن يراوغ ويدلي بمعلومات مضللة ولم نصل إلى شيء يذكر، رغم أنه مفرج عنه من شهور قليلة.

ضغط اللواء سيد نوير مدير الإدارة زرًا صغيرًا مثبتًا أسفل حافة مكتبه ثم قال بلهجة آمرة لمن امتثل بين يديه:

استدع الرائد هشام فتحي فورًا، وسوف أستجوب صادق عبد الحق بنفسي، ثم خلع ساعة يده في عصبية ونحاها جانبًا.

مر ثلاثة عشر يوما على صادق عبد الحق وكأنها سنوات وهو معلق كالذبيحة.. فشل اللواء نوير في انتزاع اعترافات منه تحت وطأة التعذيب ولاحق الفشل الرائد هشام فتحي الذي استخدم الترغيب وظلت خطوط السياط المتقاطعة التي ألهبت ظهره جروحا حتى تقيحت وصديدها هو الشاهد الوحيد على انتهاك آدميته قبل أن تلتئم تذكره بعقوبة من يظن نفسه رجلًا على حد تعبير اللواء سيد نوير.. مخالب الكلاب وأنيابها لا تزال آثارها جميعا عالقة بصدره وفخذيه ورائحة لعابها تزكم أنفه بشدة رغم ابتعادها عنه بعد أن نالت منه فكان يراها في كوابيسه ويقظته لا فرق بينهما أبدًا!!

ظل يترنح ويتلوى ويموج جسده المتدلي في فراغ الحجرة العطنة المظلمة التي ألقوه فيها.. كانت الفكرة قد اختمرت في ذهنه المرهق بعد أن خارت قواه وضعفت مقاومته ووهن جسده وتبخرت طاقته تماما فنادى بصوت ضعيف على حارسه الذي اقترب منه وهو يطرقع سوطه بجوار وجهه المدلى بين ذراعيه فترتعد فرائصه.. بادره صادق قائلًا بعد أن افتعل نبرة يائسة مهزومة:

أرجوك أبلغ سيادة اللواء نوير بأنني سأعترف لكم بكل ما تريدون.. وعندما استدار الحارس مبتسمًا بعينين لامعتين أردف صادق:

بل أكثر مما تريدون أيضا، ثم بصق نحوه لعابه المختلط بالدماء بينما قطرات دموعه تزين خديه المتورمين.

***

13

سـر المهنـة

اتكأت بساعديها على السور المنخفض وهي تتأمل الشوارع المؤدية لبيت زبيدة حيث تسكن وتعمل.. بدت لها الطرقات الرئيسية والحواري والأزقة الضيقة الخلفية من بعيد كثعابين متعددة الأحجام تتلوى وتزحف كلها في اتجاه واحد.. نحوها..! ارتجفت نرجس وسرت رعشة بجسدها عندما طاف بمخيلتها صورة جارهم في دمنهور الذي كان يعمل عربجيًّا عندما اعتدى عليها ذات ليلة وهو في سن أبيها بينما لم تكن هي قد جاوزت الثالثة عشرة من عمرها.. لحظات فارقة في حياتها شُرخت فيها جدران طفولتها لتخرج من بين أنقاضها امرأة غير مكتملة لم تسنح لها فرصة النضوج النفسي من الطفولة للأنوثة أبدًا بعد أن جثم عليها واعتلاها عشرات الرجال منذ أن تلقفتها أيدي قوادي زبيدة وهي هائمة على وجهها بطرقات محطة مصر عندما هربت من قريتها الصغيرة بمدينة دمنهور خوفًا من بطش أعمامها المتولين رعايتها بعد وفاة أبيها وتصميمهم على قتلها بعد الاغتصاب وكأنها هي الجانية..!

عاد الخوف يسري بداخلها وهي تحادث نفسها بشفتين مرتعدتين: ماذا سيكون مصيرها إذا عرفوا مكانها ومهنتها؟ أقدم مهنة في التاريخ والتي يلفظها المجتمع في العلن ويمارسها كل ليل سرًا وكأنه مصاب بالانفصام..!

انتفضت بشدة عندما لامست أنامل زميلتها وردة كتفيها فالتفتت إليها فألفتها تتأمز في خلاعة وهي تلوك حلوى رخوة في فمها قائلة:

- لا فائدة من انتظار السوهاجي فلن يتزوجك أبدًا وسيحصل على كل ما يريده منك ثم يتركك للفقر والمرض، وحيدة، مسنة.. صدقيني..

أطلت نصف ابتسامة خجلى من بين شفتي نرجس وهي تطلق العنان لبصرها من أعلى السطوح لعله يكون في طريق العودة ولكنه لم يظهر فعادت لأحزانها قائلة بصوت خفيض ونبرة يائسة:

- لقد سئمت ما نحن فيه.. أريد أن أكون امرأة لرجل واحد.. تمنيت أن أكون أمًا لابن شرعي ولو لمرة واحدة في حياتي ثم أردفت بعيون دامعة:

- ثلاث مرات وأنا ألفظ أطفالًا حملت فيهم ولا أعرف آباءهم.. لقد كرهت نفسي وجسدي وحياتي كلها..

قالت عبارتها الأخيرة وترنحت قليلًا كمن خارت قواه وأفلت منها زمام سيطرتها على أعصابها فانهارت باكية بحرقة وهي تحتضن وردة بقوة والتي احتوتها في رفق وسحبتها من يدها بعيدًا إلى حجرتها حتى لا يتسرب أمر تمردها وبوادر عصيانها إلى زبيدة من خلال قواديها الذين كانوا جالسين على مقربة منهما يتابعونهما بنظرات حادة ككلاب حراسة شرسة تنتظر إشارة من سيدها للفتك بهما في أي لحظة.

***

جذب الشافعي الكبير نفسًا عميقًا من الشيشة ثم أخرجه ببطء وهو يستمع لنجله طلال الذي كان متحمسًا

ومندفعا كعادته وهو يدافع عن وجهة نظره:

- وما حاجتنا للمغامرة فالسيد رالف سوف يتسلم بضاعته في الأقصر ونحن سنساعده على نقلها إلى القاهرة وعليه أن ينقلها بمعرفته إلى بلاده.. لا تنس يا حاج أن سعيد الخضري لا يزال في السجن منذ أن تم ضبطه العام الماضي في المطار..

وضع الشافعي الكبير شيشته جانبًا ثم رفع ساقًا فوق أخرى قائلا لطلال في هدوء لا يخلو من نبرة حاسمة تنبئ عن إنهاء النقاش لصالحه دون كثير من الجدل:

- ستظل دائمًا تخاف من المغامرة.. تتعامل مع التجارة وكأنك موظف ينتظر راتبه نهاية كل شهر ولا تبدع أبدًا.. هذه تجارة آثار خارج الترخيص تحتاج مقامرة والمكسب فيها يأتي فقط من هؤلاء الأجانب الذين يدفعون آلاف الجنيهات من أجل قطعة متفردة أو مجموعة أثرية حتى ولو كانت غير كاملة وهذا لا يتحقق إلا عندما نسلمها لهم في الخارج في بلادهم بأمان هل فهمت؟

قبل أن يهم طلال بالرد عاد الشافعي يقول بنبرة أعلى وأكثر حسمًا:

- عندما تسلمها لهم خارج مصر تستطيع تحديد السعر الذي تريده لأنك تتعرض لمخاطر التهريب وتتحمل خطورة ضبطك في أي وقت وهي أمور لا تقدر بثمن ووقتها سيدفعون لك في إذعان كل ما تطلبه منهم..

أجابه طلال في عناد:

- فلنكسب أقل ونسلمها لهم هنا ونتفادى المخاطر كلها يا حاج هذا له ثمن أيضًا.. لماذا لا نشتري أماننا؟!

لم يهتز الشافعي لحجة طلال ورد باستنكار:

- لا أيها الغشيم إذا ما تركته في مصر ببضاعته ونجح في تهريبها بمفرده فلن يحتاجك مرة ثانية وسيأخذ بضاعته من غيرك.. فنحن الوحيدون في السوق كله الذين نتمكن من تهريب الآثار يا جاهل.. وكل من تسول له نفسه منافستنا، نرشد الشرطة عنه وليس أمرًا سهلًا أن تجد موظفا في الجمارك يساعدك.. هذا يحتاج إعدادًا وترتيبًا لفترة طويلة حتى تضمن ولاءه.. لذا فنحن لدينا زبون خاص سخي دائمًا..

ثم أردف في برود:

- أما إذا فشل الخواجة في إخراجها فسنفقد هذا الزبون السخي وسنخسر سمعتنا في السوق الخارجي وسيقال بأننا نعرض زبائننا للخطر ووقتها سنتحول إلى مجرد حفارين والسلام هل فهمت أيها الموظف الكسول؟!

حاول طلال الاعتراض إلا أن الشافعي أشاح عنه بوجهه طالبًا من أحد صبيانه كوبًا من الشاي الثقيل وكأنه قرر إنهاء الحديث فجأة فقال:

- هيا استعد للسفر إلى الأقصر الليلة لإنهاء الموضوع..

علق طلال قائلًا وهو يجر أذيال الخيبة كالمعتاد في كل صفقة يبدي فيها رأيه ويُقطع عليه الطريق:

- هل أنقل البضاعة إلى القاهرة بالقطار أم بالسيارات؟

رمقه الشافعي الكبير بنظرة حادة كسكين مسنونة لتوها:

- سيخبرك مراد الشامي بالترتيبات عندما يلقاك في فندق ونتر بالاس هيا اغرب عن وجهي الآن..

فجأة دخل توفيق مهرولًا فاصطدم بطلال أثناء سيره في الممر المؤدي لمكتب الشافعي فناله من طلال بعضًا من الشتائم المنتقاة التي تحمل من الإهانة أكثر مما تُعبر عن الغضب.. فقد كان طلال فظًا مع الجميع لا يثق في أحد ولا يحب أحدًا من رجال أبيه إلا مراد الشامي وكأنه مُجبر على هذه المهنة بحكم صلة الدم ويُريد منها بعض المال فقط أما التدبير والتخطيط والإدارة ومعاملة الأشخاص فقد اعتبرها أمورًا ثانوية لا تخصه فلم يشغل باله بها أبدًا..

مال توفيق على أذن الشافعي وكأنه يُرد الصاع لطلال بتعمد إغاظته كي لا يسمع الحديث فهمس قائلًا:

- كاظم بك مات..

ثم روى توفيق للشافعي الكبير باختصار كيف أن مراد اتصل به هاتفيًّا وحكى له كيف انزلقت قدم كاظم أثناء تفقده الخبيئة حتى سقوطه في البئر وموته..

ثم أردف:

- مراد يسأل الآن ماذا يفعل بالجثة فهو يخشى افتضاح الأمر خاصة أن جدران المسجد مفتوحة وهو يضع رجاله للحراسة هناك بعد أن سدوا فوهة البئر..

قالها توفيق وهو يتأمل عيني الشافعي الكبير الجامدتين في لهفة وترقب من ينتظر أمرًا نافذًا.. وقد كان..

أجابه الشافعي بعد برهة من الشرود وقد بدا كقاتل بدم بارد:

- الله يرحمه..

ثم علا صوته ولمعت عيناه أكثر.

- ولكننا سنكون مثل غيرنا لا نعرف هل أحمد بك كاظم مات أم اختفى.. أعط أمرًا لمراد الشامي بنقل الجرات إلى مخزن الأقصر الليلة على أن يغادروا المكان بعد أن يسدوا فتحة البئر نهائيًّا كأنها لم تكن.. ثم يتصل بي من الأقصر بعد التخزين..هل فهمت؟

تسمر توفيق في مكانه لبرهة لم يمهله الشافعي لكي يستغرق فيها طويلًا قائلًا في حدة:

- هل هناك أمر آخر يا توفيق؟

أجابه متلعثمًا:

- لا شيء..لا شيء يا معلم شافعي.. الله يرحمنا جميعًا.

***

14

قسم إمبابة

طرقات ثقيلة على باب حجرة ماهر جعلته ينتفض مذعورًا في فراشه فلم يكن متعودًا إلا على دقات ناعمة منغمة من كفي زبيدة.. ما أن فتح باب حجرته حتى انهال عليه رجل ضخم الجثة بصفعة هائلة على وجهه طرحته أرضًا من هول المفاجأة.. لحظات وامتلأت الغرفة بسبعة رجال أحدهم كان شابًا في مثل عمره يضع مسدسًا في جانبه الأيمن يتعمد إظهاره ويعطي أوامره لبعضهم بالتفتيش بينما الباقون يحيطون به عن يمينه وعن يساره ومن خلفه ينتظرون باقي أوامر كبيرهم الضابط صغير الرتبة..!

حاول ماهر أن يفهم شيئًا مما يحدث حوله فنال صفعة أخرى ثم لكزة عنيفة في جانبه الأيمن آلمته كثيرًا ولما احتج بسبب قسوتها هوت صفعة ثالثة على قفاه فألجمت لسانه تمامًا فاستسلم لاثنين من المخبرين وهما يقتادانه كالشاة التي تساق للمذبح مشبعًا بركلات من الخلف لا يدري لها سببًا..

أثناء نزوله من سطح العقار كانت نظرات الجيران في كل طابق تتعلق به فخفض عينيه انكسارًا خاصة بعد أن التقطت أذناه شتائم ولعنات جمعته مع زبيدة وبناتها الساقطات في جملة مفيدة كان له منها نصيب الأسد.. أوجعته كلمة قواد التي تكررت في كل طابق فكانت تخرق أذنيه وتهزه مع ما صحبها من بصقات أحيانًا أثناء هبوطه الدرج.. بينما بنات زبيدة فقط كن يطلقن صراخًا كلما هوت كفوف المخبرين على وجوههن لإسكاتهن حتى حشروا جميعًا في الصندوق الخلفي لسيارة الشرطة..

ليلة كئيبة أمضاها ماهر في تخشيبة قسم إمبابة خاصة أنه تلقى صفعات إضافية عند نزوله من صندوق السيارة أمام باب القسم وكأنها تهنئه بسلامة الوصول.. فتركت إحداها علامة واضحة على وجهه فنال بسببها سخرية من بعض المحتجزين معه حتى كاد يشتبك مع أحدهم لولا إشارة من كبيرهم الذي اكتشف ماهر أنه أحد المجرمين المخضرمين الذين يسيطرون على المحتجزين بسبب سطوتهم الإجرامية في منطقة إمبابة كُلها.. ناداه كبيرهم ليقترب منه وبعد أن تفحصه جيدًا أمره بأن يجلس القرفصاء في حضرته فامتثل ماهر خوفًا فنال من خبرة الرجل دروسًا في كيفية مواجهة ضابط المباحث ومن بعده وكيل النيابة ختامًا بقاضي المعارضات إذا ما تم حبسه احتياطيًّا..

لكن لم يكن ذلك كله لوجه ربٍ كريم وإنما نظير علبة سجائره وساعة يده التي جرده كبيرهم منها في هدوء وهو يتفحصه في جشع..

مرت الرحلة القصيرة بذات المحطات التي توقعها المجرم المخضرم وكأنه كان يقرأ لماهر طالعه بدقة فقد استسلم تمامًا لرئيس المباحث الذي سطر محضره باعتبار أن السوهاجي قواد يدُير مع زبيدة وكرًا للدعارة منذ عامين.. لحظتها ابتسم ماهر في سره وهو يتذكر نصيحة المجرم في التخشيبة بأن يترك الحبل للضابط علي غاربه ولسوف يُخطئ ويعميه غروره واستسلام ضحيته ومن ثم يسلم من الصفعات والركلات.. ثم مَثَل أمام وكيل النيابة فاعتصم بالإنكار نافيًا وجوده بالقاهرة إلا منذ بضعة أشهر وأيدته زبيدة وبعض النسوة في أقواله ومع ذلك فقد تم حبسه احتياطيًّا أربعة أيام على ذمة التحقيق فُعرض على قاضي المعارضات في نهايتها فأدى دوره المرسوم له بدقة.. بكى وانهار ولطم خديه أمام القاضي الذي لم تهتز له شعرة ولما علا عويله نهره القاضي قائلًا:

- كف عن البكاء مثل النساء.. هل لديك محام يحضر معك؟

قبل أن يُجيب ماهر بالنفي انبرى شخص يرتدي روبًا أسود من الصف الأول قائلًا:

- أنا حاضر معه..

ثم مضى يسجل بياناته لدى كاتب الجلسة ويترافع مطالبًا بالإفراج عن موكله وبينما كان ماهر غارقًا في ذهوله ويتلفت حوله حائرًا لاحت منه التفاتة للخلف علها تعينه على معرفة من وكل له هذا المحامي فوجد منصور الطيب جالسًا في الصف الأخير وقد اكتسى وجهه بالغضب وأطل العتاب من عينيه حتى كاد يطول وجه ماهر في وقفته فشعر بالخزي يغمره وزادته النظرة أسفًا على تردي حاله.. ما أدهشه أكثر كان تلك السيدة الجالسة بجواره والتي لم يتعرف عليها للوهلة الأولى من جراء ارتدائها طرحة سوداء طويلة غطت رأسها وتدلت على جانبي وجهها حتى كست كتفيها.. لمح عيونها الواسعة القلقة وهي تشرئب بعنقها لتقفز بنظرات عينيها من على رؤوس الجالسين أمامها لتتطلع في وجهه وتنقل بصرها بسرعة إلى القاضي وكلها لهفة وأمل في الإفراج عنه.. لم تكن تلك المرأة سوى نرجس التي لم يقبض عليها معهم يومها فهي كانت تتغيب كثيرًا في الآونة الأخيرة منذ أن توطدت علاقتها بماهر وشعرت بأنه رجلها الوحيد فلم تقو على تحمل أنفاس رجل غيره يدفن رأسه بين نهديها ويضاجعها.. أحست نحوه بمشاعر غريبة ربما لم تهزها مثلها من قبل.. صدقت كل كلمة قالها لها فبادلته مثلها وسلمته قلبها مع جسدها دون أن تتحقق مما يقوله أو تطلب منه برهانا على صدق مشاعره.. هاجس ما ظل يسيطر على عقلها جعلها ترفض كل رجل من زبائن زبيدة يطلبها لفراشه في الأسابيع الأخيرة حتى صارت متمردة ومهددة دائما بأن تكون هدفا قريبًا لشرور زبيدة التي صبت عليها جام غضبها وسلطت عليها قواديها أكثر من مرة لتأديبها فلم يكن ينقذها من براثنهم كل مرة سوى ماهر فازدادت ثقتها بأنها تخطو أولى خطواتها في طريق التوبة والزواج..

طوال الطريق من القسم إلى الغرفة أعلى السطوح بعد سداد العشرة جنيهات قيمة الكفالة المالية التي أفرج عنه القاضي بموجبها لم ينطق ماهر بكلمة واحدة وظل يستمع لعبارات التأنيب واللوم التي كان يلقيها منصور على مسامعه وهو يسبقه بخطوتين بينما تسير نرجس صامتة خلفهما وقلبها يدق فرحًا بخروج ماهر وعندما وصلا للغرفة قال منصور في غضب وحدة وتصميم أهل الجنوب:

- هيا اجمع حاجياتك لتبيت عندي ليلة أو اثنتين حتى ندبر لك مكانًا آخر فزوجتي وأولادي سافروا سوهاج.. هيا فلن تبيت في هذا المكان النجس بعد الآن وكفى ما لحقك من عار كاد أن يلوثنا جميعًا..

ألقى ماهر بجسده المنهك على فراشه فهو لم يذق طعم النوم منذ أربعة أيام إلا جالسًا..! تثاءب وهو يتحدث ببلادة:

- أي عار الذي تتحدث عنه؟ أنا مظلوم ولا شأن لي بهؤلاء النسوة وتلك القوادة الحيزبون زبيدة. كل ما هنالك أن.....

قاطعه منصور وقد تجهم وجهه وتبدلت ملامحه:

- لا أريد أن أسمع شيئًا وإذا لم تذهب معي الآن فاعلم أنها القطيعة بيني وبينك.. وكفى ما سمعته عن سيرتك من جيرانك صباح اليوم بعد أن قلقت من غيابك الأيام الماضية.. أنت فضحتنا بتصرفاتك الحمقاء..

زفر ماهر في ضيق ثم شعر برجفة مع وقع كلمة القطيعة على أذنيه خاصة أنه يمارس عملًا تافهًا حتى الآن وقد يؤثر الشقاق بينهما على مصدر رزقه الوحيد الذي يجعله يقبع بالساعات أمام عقار منصور الطيب لمسح السيارات بخرقة بالية ومعاونة أصحابها في الانتظار فامتثل له وهو متأفف يساوره إحساس

قوي بالخوف من المجهول فمضى يحمل صرة ملابسه سائرًا في استسلام خلف منصور مرة أخرى دون أن يودع نرجس التي كانت تتنصت عليهما لعله يتراجع ويبقى معها ثم انزوت باكية في حجرتها.. بينما الضيق يكاد يخترق ضلوع ماهر لاعنًا حظه العاثر الذي أبى أن يفارقه منذ أن وطئت قدماه قاهرة المعز وهي بدورها لا تزال تقهره حتى الآن.

***

15

طلال الشافعي

طوى الشافعي الكبير مظروفًا أبيض اللون متوسط الحجم منتفخًا بأوراق مالية كل منها فئة العشرة جنيهات ثم لصقه بحرص شديد بعد أن بلل حروفه بطرف لسانه وسلمه لطلال قائلًا:

- بعد ساعتين من الآن ستجد توفيق وبصحبته محمد حسن مدير النوبتجية المسائية في جمارك قرية البضائع بالمطار في انتظارك على مقهى حسونة بشارع عماد الدين.. هل تعرف مكانه؟

أومأ طلال بالإيجاب وهو يرد:

- ولكنه مكان مزدحم وشعبي وقد لا أجد مكانًا لترك سيارتي فمن الأفضل أن تتصل بتوفيق في مخزن الهرم ليمر عليَّ هنا أو في البيت أو....

لم يكمل طلال حديثه فقد خرجت نظرة من عيني الشافعي الكبير تحمل سهامًا اخترقت صدر طلال وجعلته ينتفض خوفًا ويسكن فقد كان يعلم أن غضبة أبيه لا راد لها..

رويدًا رويدًا خفتت حدة النظرة حتى تحولت إلى استنكار دونما تعليق من الأب الذي تناول سماعة الهاتف وأدار القرص خمس مرات بعدها قال بصوته الأجش:

- توفيق اسمعني جيدًا طلال سيمر عليك بعد ساعتين بمقهى حسونة..

ثم أكمل الحديث بصوت خفيض لم يتبين طلال معظمه..

وضع الشافعي الكبير السماعة وأعاد ظهره للخلف قليلًا في مقعده محدقًا في وجه طلال الذي تناول المظروف المنتفخ وهم بالقيام عندئذ قال له الشافعي الكبير:

- راجع جيدًا البيانات مع توفيق وقارنها بمفردات بوليصة الشحن لابد وأن يكون العدد خمسًا وعشرين قطعة خلاف التابوتين ومحمد حسن سيتولى إعادة تدوين مفردات البوليصة بمعرفته بعد ذلك في قرية البضائع..

ثم ختم الحديث بلازمته الشهيرة:

- هل فهمت؟!

أومأ طلال مرة أخرى بالإيجاب وكأنه بات عاجزًا عن النطق من كثرة ما هُزم أمام والده فأشار له الشافعي بالانصراف ملتقطًا مبسم الشيشة بيده ثم أطبق عليه بشفتيه الغليظتين بعد أن قلب الفحم مرتين فطقطق من شدة توهجه..

***

كعادته منذ أسبوعين حضر إليه سيد عويس الذي يعمل مخبرًا بقسم شرطة قصر النيل في الرابعة عصرًا.. لا يكاد يمر يوم أو اثنان حتى يظهر المخبر سيد أمامه فجأة في نفس الموعد فيجلسان بالقرب من مدخل العقار يحتسيان شايًا يجلبه ماهر من مقهى قريب ويدخنان ويتهامسان لفترة طويلة ثم ينصرف سيد كما أتى فجأة..

كانا قد عقدا صفقة خفية منذ لقائهما الأول وبموجبها ظل ماهر يعمل مناديًا للسيارات في حرية بعيدًا عن مضايقة الشرطة وبلاغات جاكوب وعلى وعد بإخراجه من قسم الشرطة إذا ما أقتيد إلى هناك.. ولكن تعهدات ماهر للمخبر سيد وواجباته في تلك الصفقة ظلت سرًّا على الجميع بمن فيهم منصور الذي رآهما معًا أكثر من مرة ولما استفسر من ماهر عن هذا الشخص الدخيل عليه أجابه بغموض واقتضاب:

- كان جارًا لي في إمبابة ويعمل حاليًا ساعيًا بشركة قريبة من هنا ويأتي لزيارتي.

كل يومين تقريبًا كان ماهر يلمح الشافعي الكبير وتتلاقى نظراتهما ولكنه لا يجرؤ على الاقتراب منه ففضلًا عن رجال الشافعي الذين يحيطون به منذ حضوره حتى انصرافه فإن شيئًا ما بداخل ماهر ظل يمنعه من الاقتراب منه.. أما نظرات الشافعي له فكانت وكأنها تخلق حاجزًا وهميًّا بينهما يحول دون أن يخطو ناحيته الخطوة الأولى.

ظل الحال على ما هو عليه حتى كان أحد أيام الشتاء في نهاية عام 1968 عندما لمح سيارة الشافعي الكبير وهي تقطع الميدان في اتجاه الحانوت وصبيانه مشغولون بداخله فلم يفطنوا لحضوره فقد أتى في غير موعده المعتاد فأدرك ماهر الفرصة التي انتظرها كثيرًا ولم يستطع اقتناصها من قبل بسببهم أو لظهور مفاجئ لطلال الشافعي الذي لم يكف أبدًا عن رميه بنظرات الاحتقار كلما وقعت عيناه عليه.. والآن حان وقتها فالسر الذي يكتمه منذ فترة آن أوان إعلانه بعد أن نضج في ذهنه وحل وقت قطافه..

كمن ماهر في كرسيه كحيوان مفترس يتأهب للانقضاض على فريسة.. وما أن اقتربت السيارة حتى مرق في اتجاهها كالسهم وفتح بابها ثم انحنى في أدب مصطنع ليتجنب نظرات عينيه رافعًا صوته بالدعاء للشافعي الكبير واصفًا إياه بكبير التجار وسيدهم..!

اندهش الشافعي الكبير من تصرف ماهر ولكنه استحسنه بنصف ابتسامة أكملها برفع أحد حاجبيه وقبل أن ينقض صبيان الحانوت على ماهر لإبعاده نهرهم الشافعي بإشارة من يده قائلًا:

- أما زلت تعمل هنا؟

أجابه ماهر في خنوع:

- أنا خادمك يا معلم شافعي في كل وقت وأي مكان..!!

ثم أخرج خرقته القديمة البالية من جيبه ودار بها نصف دورة على زجاج السيارة الخلفي ليظل قريبًا من الشافعي الذي عبث بشاربه قليلًا وهو يبتسم لصبيانه فبادلوه الابتسام وكأنهم مبرمجون على مزاجه الخاص ثم هز رأسه واضعًا يده في جيب جلبابه وأخرج من حافظة نقوده ورقة مالية خضراء فئة الخمسة وعشرين قرشًا مد يده بها ناحية ماهر الذي التقطها محاولًا تقبيل يد الشافعي إلا أنه سحبها على مهل وكأنه يتلذذ بذلك ثم نظر إليه وشرد قليلًا وهو يجتهد في تذكر اسمه..

فأجابه ماهر في لهفة المشتاق:

- اسمي ماهر يا معلم شافعى.. خادمك ماهر..

قالها وهو يضغط على حروف اسمه وينظر شذرًا لصبيي الشافعي اللذين هرولا خلفه وشكلا بجسديهما حاجزًا يحول بينه وبين الشافعي الذي كان يلملم عباءته كالمعتاد فاستوقفه ماهر بنبرة صوت حادة وعالية:

- أريدك في أمر هام يا معلم شافعي..!

رمقه الشافعي دون أن يلتفت إليه بجسده كله قائلًا وهو يهم بمعاودة سيره:

- ماذا تريد؟

- ارتبك ماهر قليلًا ثم لملم شتات شجاعته وبقايا جرأته قائلًا: لا أستطيع أن أقول لك ما أريده هنا في الشارع..

ثم أردف وهو يجول ببصره بين صبيانه:

- وأيضًا على انفراد..!!

لمعت عينا الشافعي غضبًا من نبرة حديث ماهر وجرأته إلا أنه استشعر بفراسته أهمية الموضوع فقال وهو يصوب نظراته بحدة نحوه وكأنه يتوعده إذا ما كان الأمر تافهًا:

- تعال ورائي الآن..

أطلت نظرة انتصار وزهو من عيني ماهر غلفها سريعًا ببعض الاستهجان والاحتقار لصبيان الشافعي وهو يمضي خلفه إلى داخل الحانوت بينما لسان حاله يكاد ينطق:

إن غدًا لناظره قريب..

***

16

ناجي-ة

أكثر من ستة شهور مضت على تعيين ماهر السوهاجي حارسًا لحانوت الشافعي الكبير.. كان يقضي نهاره جالسًا على باب المحل ثم يهرول عند رؤية سيارة الشافعي يفتح بابها ويرحب به ثم يودعه في نهاية كل يوم ومع مرور الوقت بدأ الشافعي يكلفه بصرف شيكات من المصرف القريب من الحانوت وأحيانًا أخرى كان ينقل بضاعة إلى حوانيت بعض التجار بباب اللوق أو إلى مخازن الشافعي بالهرم.. طوال تلك الفترة لم ينقطع عن لقائه المعتاد مع مخبر الشرطة المدعو سيد حتى بات الأخير يظهر على فترات متباعدة غير منتظمة إلى أن اختفى حتى صار ذكرى كلما تذكرها ماهر مع الشافعي الكبير ورجاله ظلوا يضحكون وفي كل مرة كان يكلفه الشافعي فيها بأمر ما كان ماهر ينجز عمله بكفاءة دون أن يسأل أو يعلق عما يبدو له وإن كان يختزن كل ما تقع عليه عيناه وتلتقطه أذناه في ذاكرته وكأنه يدخره إلى حين..!

تناول رشفة من كوب الشاي الذي أعده له منصور بعد أن جلس إلى جواره على أريكة خشبية وضعاها أمام العقار.. كان منصور يرتب أوراقًا معظمها مكتوب بخط رديء يكاد لا يقرأ.

هل لا تزال مواظبًا على دراستك الجامعية؟

أجابه منصور وهو يبتسم في خجل:

- نعم.. فأنا في السنة النهائية لكلية التجارة ومن المؤكد أنني سأجد وظيفة في الحكومة عندما تنتهي خدمتي العسكرية..

قالها وهو يتنهد بضيق بعد أن مرت السنوات الثلاث المقررة للتجنيد الإجباري ولم يخرج بسبب الحرب.

امتعض وجه ماهر قليلًا فتظاهر بالانشغال برشف الشاي الساخن فلم يكن قد أكمل تعليمه بينما استغل منصور سنوات تواجده بالقاهرة وأجازاته من الخدمة العسكرية في استكمال الدراسة عن طريق الانتساب لكلية التجارة ليُحسّن من وضعه في المستقبل.. ثم قال وكأنه يريد تغيير دفة الحديث:

- ومتى ستحاربون؟

لمعت عينا منصور بعد أن أيقظ السؤال إرادته الكامنة ولكن شفتيه لم تجدا ما تنطقان به فصمت برهة ثم ردد بصوت خفيض لا يخلو من بريق الأمل:

- إن شاء الله سنعبر هذه المحنة..

مرت دقائق بطيئة والصمت يغلفهما حتى ظهرت فجأة السيارة الحمراء المكشوفة أمامهما بعد أن تركتها صاحبتها صفًا ثانيًا في لا مبالاة وترجلت منها بصحبة طفلة سمراء لم تتجاوز السابعة من عمرها ذات ضفيرتين طويلتين ولها وجه صبوح جميل.. هب ماهر واقفًا وتبعه منصور وكلاهما يرفع يده بالتحية في آن واحد.. ابتسمت السيدة ثم ألقت بسلسلة مفاتيح السيارة في الهواء وهي تضحك فتلقفها ماهر وهو يهرول باتجاه سيارتها مدركًا مهمته المعتادة منذ شهور.. الوقوف بجانب السيارة لحراستها لدقائق حتى

تخرج السيدة من حانوت الشافعي الكبير..

اقترب منصور الطيب من السيارة يتأملها عن قرب ويتحسس مقاعدها الجلدية الناعمة بأصابعه في حذر وانبهار..

أشعل ماهر سيجارة وهو يقول:

- هذه السيدة تحضر كل شهر تقريبًا وأحيانا أراها داخل الحانوت تأخذ مظروفا يبدو أن به أوراقًا مالية ثم تتصرف بعد أن تنقدني جنيهًا كاملًا.. لا تمكث في الحانوت أكثر من خمس دقائق في كل مرة.. لكنها المرة الأولى التي أرى فيها تلك الفتاة الصغيرة..!

أجابه منصور وقد زال حذره قليلًا وبدأ يتحسس كسوة المقعد بكفه كله:

- ألا تعرف من هى؟! إنها ناجية الشافعي ابنته الكبرى وشقيقة طلال وهي مطلقة بعد ثلاث زيجات إحداها لم تدم سوى أربعة أشهر فقط وتعيش بمفردها في شقة صغيرة بحي الزمالك القريب من هنا.. وهي شقة زوجها الأول ووالد طفلتها الوحيدة أشجان التي كانت معها الآن..

أبدى ماهر دهشته من كم المعلومات التي أفاض له بها منصور وكأنه ضابط مباحث مخضرم وقبل أن تستولي الدهشة على قسمات وجهه بالكامل أراحه منصور قائلًا:

- لقد كانت زوجتي تعمل في خدمتها السنوات السابقة ولما حملت من بضع شهور في طفلنا الثاني تركتها..

صمت منصور وتجهم وجهه قليلًا عندما لاحظ عودة ناجية وابنتها فابتعد عن السيارة خطوتين للوراء.. ألقى ماهر سيجارته بعيدًا وفتح لها الباب وهو يبتسم فرددت على مسامعه كلمة الشكر بالفرنسية كالمعتاد.. أغلق باب السيارة برفق شديد يتناسب ووقع الكلمة على أذنيه وأشار بكفه ملوحًا للطفلة الصغيرة التي بادلته التحية وسرعان ما انطلقت السيارة بهما والصغيرة تتلفت كل برهة لتلوح له في فرحة حتى اختفت عن أنظاره بينما ظل يعبث بأصابعه في مؤخرة رأسه ويقلب حديث منصور عن زيجات ناجية على جوانبه في هدوء وروية..

أفاق ماهر من شروده على يد منصور وهي تهبط على كتفه الأيسر قائلًا:

- بالمناسبة هل علمت ما حدث لكاظم بك؟

انتبه ماهر بكل حواسه وكأن صورة ناجية قد محيت فجأة من ذاكرته وحلت محلها صورة أحمد بك كاظم.. فالتفت لمنصور بعينين تطل منهما اللهفة والاستفسار في قلق فروى منصور ظمأه قائلًا:

- لقد اختفى منذ شهور فجأة ولا أحد يعرف مكانه أو حتى إن كان على قيد الحياة أم لا.. والشيخ عبد الدايم يدور على المساجد والمقاهي بأخميم ويقول إن هذا غضب من الله ولعنة لأنه لم يوف بوعده لأهل القرية في بناء مسجد جديد بدلا من الذي تم هدمه..

- اختفى.. اختفى كيف؟!!

ظل ماهر يرددها في حيرة وتعجب ثم أضاف بنبرة من وجد حلًا لم يفطن له غيره قبله:

ربما يكون في القاهرة أو سافر إلى الخارج كعادته كل عام أو توفي هنا..

هز منصور رأسه نافيًا كل الاحتمالات:

- لا لم يحدث هذا ولا ذاك.. لقد التقيت خادمه النوبي مصطفى منذ فترة وأكد لي أن سيده قد اختفى في أخميم فجأة فقد أعد له طعام الإفطار كعادته كل يوم في السرايا ثم ذهب ليوقظه فلم يجده في فراشه ولم

يعد إلى بيته بالقاهرة حتى الآن.. والشرطة لم تجده ويبدو أنها كفت عن البحث عنه بعدما يئست من العثور عليه.

ثم أردف في نبرة لا تخلو من حيرة:

- حتى العمل في بناء مزرعة للدواجن بأرضه توقف فجأة واختفى شركاؤه في نفس يوم اختفائه وعلمت من خادمه مصطفى أيضًا أنه لا وريث له فهو لم يتزوج ولا إخوة له ولم يظهر له أقارب حتى الآن..!

توجس ماهر خيفة وارتجف عندما مرت بخاطره عبارة الشيخ عبد الدايم «اختفاء كاظم بك غضب ولعنة من الله» كل هذا بسبب هدم المسجد الذي أفتى بجواز هدمه هذا الأفاق؟يا تُرى ما المصير الذي ينتظره؟ فهو أحد المشاركين.. لا.. لا.. بل هو أحد الفاعلين الأصليين في هذا الهدم.. زاغ بصره قليلا ثم استأذن منصور لكي يدخل الحانوت قبل أن يسترسل في الحديث معه عن حال أمه نظيمة إلا أنه أشار له بكفه ليتوقف ويؤجل كلامه إلى وقت لاحق.. ومضى يجر قدميه في تثاقل والهواجس تتقافز إلى رأسه وتزيده ارتباكًا وتكاد تشل حركته.

***

17

الاختب-ار

أمر الشافعي الكبير سائقه بأن يتوقف على بعد مائتي متر من مخزن الهرم بمنطقة نزلة السمان.. ثم غادر السيارة وترجل كعادته في المسافة المتبقية بين الأزقة الضيقة الملتوية التي لا تستطيع السيارة الصغيرة عبورها محييًا أصحاب البازارات والدكاكين الصغيرة المتناثرة على الجانبين.. انعطف يسارًا في بداية الطريق المؤدي للنزلة من ناحية ترعة المريوطية وسار بمحاذاة البيوت المبنية بالطوب الأحمر من طابق أو اثنين على الأكثر والتي لا يوحي مظهرها بأنها مصدر رئيسي لتوريد تمائم لتجار الآثار وكبيرهم الشافعي.. عند نهايتها اختلس التفاتة سريعة ثم انحرف يمينًا فجأة..

كانت هناك سيدة عجوز تجلس القرفصاء في وجوم أمام فرشتها من الخضراوات وتتشح بملابس سوداء وإن كانت نظيفة.. اقترب منها الشافعي وسألها دون أن يتوقف مكتفيًا بإبطاء حركته قليلًا:

- هل لديك بصل أبوشوشة اليوم يا حاجة؟

رفعت العجوز رأسها وأمسكت حزمتين من النعناع بعد أن طرقتهما على فرشتها مرتين قائلة:

- اليوم لا يوجد إلا نعناع أخضر يا معلم شافعي..

شكرها وقد غزت ابتسامة الرضا قسمات وجهه وهو يُسرع الخطى نحو مخزنه حيث كان توفيق وصبي آخر من صبيانه يقفان في انتظاره..

ما أن دلف إلى مخزنه الفسيح حتى تفحص الحضور بينما كان صبيه يحكم إغلاق الباب الخارجي فوقع بصره على ماهر وهو يرتب فرشته التي ينام عليها فأملى عليه بعضًا من أوامره وهو لا يزال يسير داخل مخزنه الذي تتناثر به هنا وهناك مقلدات فرعونية من الجبس بعضها لم يكتمل بعد.. تلقى ماهر الأوامر وأعاد تكرارها على مسامع الشافعي بصوت خفيض وكأنه يدونها في ذاكرته بالترتيب حتى فرغ فاستدار وغادر المخزن لينفذ ما أؤتمر به في الحال كعادته.

إنك تثق به أكثر من اللازم يا حاج وهو ليس سهلًا على الإطلاق لقد اكتشف الباب السري للقبو في محل طلعت حرب أول أمس ولولا أنني كنت موجودًا بالمصادفة لكان قد فتحه وشاهد البضاعة التي ستسافر إلى سوىسرا الأسبوع القادم وربما لو كان قد دخل القبو وأنا بداخله لكان قد شاهدني وأنا.....

لم يكمل توفيق جملته أو بالأدق قنبلته فقد كان الشافعي يحدق في وجهه وعلامات الضيق تظهر عليه بوضوح حتى ارتبك توفيق من جراء نظراته وكأنه هو المخطئ فآثر الصمت وأخفى خلة الأسنان التي كانت لا تفارق شفتيه أبدًا بين أصابع يده ..

جال الشافعي ببصره بين باقي رجاله حتى استقر على طلال الذي بادر أباه قائلًا:

- أنت تعتمد عليه منذ شهور طويلة في أعمال كثيرة وكأنه ذراعك اليمنى، تارة ترسله للبنك لإيداع أو سحب أموال، وتارة ينقل بضاعة مقلدة إلى الصعيد أو أصلية مرخصة لتجار باب اللوق والآن اكتشف الباب السري فضلًا عن مبيته هنا بمخزن الهرم ونحن لا ننقل إليه بضاعة أصلية إلا عندما يغادره حتى

نتمكن من تغليفها بعيدًا عنه.. ولم يعد يتبقى سوى أن يخرج هو البضاعة من مصر ويقف على كل أسرارنا.. هذا الرجل لا يؤتمن يا حاج وربما يكون مرشدًا حقيقيًّا للشرطة ووقتها لن.....

أشار الشافعي له بكف يده ليتوقف عن الحديث ثم التفت إلى مراد الشامي قائلًا:

- ما رأيك يا مراد فأنت أول من تعامل معه في سوهاج عندما باع أرضه لكاظم بك؟!

اعتدل مراد في جلسته بعد أن أطفأ سيجاره الصغير وهو يجيب:

- أنا لي رأي مختلف قليلًا يا حاج نحن في حاجة فعلًا إلى تغيير طرقنا وأساليبنا ونريد وجوهًا جديدة.. فتوفيق صار الآن معروفًا للشرطة وأنت لا تريد أن تغامر بطلال.. وهذا الشاب طموح وعلى استعداد لفعل أي شيء من أجل المال وهو قد يبدو صعب المراس في البداية ولكن بريق الثروة يسيل له لعابه ويجعله يلين بسهولة في النهاية.. أنا أقرأ أفكارك فأنت تجربه في اختبارات متتالية منذ شهور مثلما تفعل دائمًا ويتبقى له الآن عملية كبيرة لكي يحوز ثقتك كاملة.. أنا متفق معك يا حاج شافعي ولكن دون ثقة كاملة فيه فهو خسيس ويجب أن يظل تحت المنظار دائمًا.. حتى لا يرشد الشرطة عن نشاطنا.

ارتاح الشافعي لحديث مراد الشامي وانفرجت أساريره قليلًا فالتقط طرف الحديث قائلًا:

- نعم يا مراد ولكن قبل العملية الكبيرة لابد من ضمان ولائه أكثر..

انبرى طلال ملتقطًا هواجس أبيه وهو يتزحزح من على حافة المكتب التي يستند إليها بأليته اليسرى:

- ولكنه قد يطمع فينا ياحاج ويبلغ الشرطة وقد يكون ولاؤه لتجار آخرين ونحن لنا أعداء ومنافسون ولن تضمن ولاءه أبدًا بهذه الاختبارات البسيطة وأنت تثق به أكثر من اللازم فهذا الشاب لا أصل له ومن يبيع أمه من أجل ألف جنيه سيفعل بنا أكثر من ذلك.. لابد من طرده فورًا وهناك المئات الذين يصلحون لوظيفة مرمطون عندك.. قالها وهو يضع يديه حول خصره كمن ينتظر الموافقة من الشافعي الكبير تأمينًا على قوة حجته.. هز الشافعي رأسه يمينًا ويسارًا رافضًا لفكرة طلال ثم أطلت ابتسامة استنكار معتادة من بين شفتيه فامتعض طلال لرؤية بوادرها فهي نُذر الإحباط وسُحب الهزيمة التي تسبق تسفيه والده لآرائه..

بصوت رخيم قال الشافعي الكبير:

- هذا الشاب قطع معنا شوطًا كبيرًا وصار الآن يسير في اتجاه واحد بلا عودة فلديه تصميم وإرادة وطموح يصلح لإدارة تجارة كبيرة لا أن يُدفن هنا كمرمطون لقد رابط أمام محل طلعت حرب شهورًا من أجل فرصة ضئيلة.. ثم لا تنسوا أنه أتى إلينا حاملًا قرابينه عندما أخبرنا بأمر التحريات والمراقبات التي تُجرى حول الحانوت لضبطنا متلبسين وقت أن اطمأن المخبر سيد لماهر تمامًا وأنه يعمل مرشدًا لصالح الشرطة.. ولا تنسوا أيضا أنه ظل يُضلل هذا المخبر الغبي لعدة شهور بمعلومات مغلوطة حتى ابتعدت الشرطة عنا تمامًا ونحن تأكدنا وقتها من صدقه وتعاونه معنا بعد أن راقبناه بدقة.. أنا يعجبني هذا النوع من الرجال وأحتاج إليه وعلينا استثمار ذلك لصالح تجارتنا.. أما مخاوفكم فأفضل شيء يا طلال لمن يراك تعد السم أن تجبره على مساعدتك في طهوه بل تجعله يشاركك في تقديمه بيديه لمن تريد الخلاص منه فتضمن سكوته للأبد بعد أن يتورط تمامًا..

قاطعه توفيق قائلًا:

- ولكن الخوف أن يغافلنا ويضع هو لنا السم جميعا فجأة بعد أن يُتقن الصنعة..!!

نزلت كلمات توفيق أشبه بستار المسرح عند نهاية الرواية.. فقال طلال مؤكدا:

- ماهر سيصبح حوتًا كبيرًا سيبتلعنا جميعًا.. توفيق لديه كل الحق.

تأملهم الشافعي في روية وبرود ثم ارتكن بكلتا يديه على المكتب الخشبي الصغير الذي يتوسط مخزن العاديات المقلدة وهو يهب من جلسته:

- فلنجربه مع صبري الأهواني موظف الحيازة.

ثم التفت إلى توفيق قائلًا:

- متى موعد مروره القادم يا توفيق؟

بعد أسبوع.

قال الشافعي وكأنه يعيد رفع الستار في هدوء مؤجلًا مشهد النهاية: إذن فليكن هذا اختباره الأخير قبل العملية الكبيرة.. فصبري الأهواني صار كارتًا محروقًا بمصلحة الآثار.. والشرطة تُشمشم خلفه منذ فترة فإما أن يحترقا معًا أو نكسب نحن ماهر السوهاجي.

ثم أردف وهو يخص توفيق بباقي الحديث:

- أنت من سيعلمه تقديم السم وسيراك وأنت تطبخه..

أومأ توفيق بالإيجاب على مضض فأردف الشافعى:

- بالمناسبة النزلة آمنة اليوم.. أخرج البضاعة الآن وفي غضون ساعة تكون قد غلفتها هنا حتى ننقلها إلى الأسكندرية بعد ثلاثة أيام وهناك سوف تجد محمد حسن ينتظرك في الميناء..

أومأ توفيق بالإيجاب مرة أخرى فألقى الشافعي على مسامعه ما جعله يرتبك:

- فإذا ما نجح ماهر في التعامل مع الأهواني سيسافر بيروت بالبضاعة بمفرده ومنها إلى سوىسرا..

استولت الدهشة على الجميع فعقدت لسان توفيق وأبدلت ملامح طلال وتعلقت أبصارهما بمراد الذي بدا مرتبكًا نوعًا ما لعله يفلح في إثناء الشافعي عن قراراته.. نهض مراد الشامي وبابتسامة خجلة اقترب من الشافعي الكبير وهو يقول بصوت خفيض وإن كان يضغط على مخارج ألفاظه:

- وهل ستخبره بما نفعله مع محمد حسن في الجمارك؟ اعتقد أنها مغامرة كبيرة في هذا التوقيت..

ابتسم له الشافعي وهو يقول:

- الصفقة تستحق المغامرة يا مراد.. سنخبره في حينه ولكن عليه الآن أن ينغمس مع موظف الحيازة وبعدها لن يتوقف كثيرا عند محمد حسن!!

***

18

الاختيار

وقف ماهر على محطة الأتوبيس منتظرًا الحافلة العمومية التي تحمل رقم 81 لتقله إلى ميدان الجيزة وهو يضع أوراق شحن وبوالص التأمين الخاصة بخروج بعض من حضارة بلده التي تقبع الأهرامات الثلاثة على بعد أمتار قليلة منه وهو لا يدري ماهيتها.. فالمستندات التي طواها ثم حشرها بين قميصه وفانلته الداخلية دون أن يدرك دلالتها لعدم إلمامه بأي لغة أجنبيةكانت لا تحوي إلا أرقامًا وبنودًا لمنتجات خان الخليلي ولعب أطفال مشتراة من محل جاكوب لم يتوقف عندها كثيرًا.. ولكنه كان يدرك أن محمد حسن موظف الجمارك المرتشي يتولى إخراجها دون تفتيش بعد أن يُعمي بريق المال أبصار زملائه من صغار الموظفين الذين يختارهم بعناية فائقة خاصة بعد ضبط سعيد الخضري أحد أهم وأخلص رجال الشافعي الكبير منذ عامين ولا يزال يقبع خلف الأسوار.. ومع ذلك فقد تظاهر أمامهم بأنه لا يرى ولا يسمع وبالطبع لم يتكلم..

تحسس ماهر مقدمة بطنه من خلف قميصه ليطمئن على موضع المستندات وأنها في أمان فكل ما يهمه هو كسب ثقة الشافعي فيما يكلفه من أعمال أيًّا كانت.. شرد وهو يجلس بجوار النافذة بداخل حافلة النقل العام المزدحمة بالبشر ورائحة العرق تزكم الأنوف فاستعان عليها بفتح النافذة حتى نهايتها..

سرح فيما رآه بسرداب حانوت طلعت حرب من تمائم ومومياوات صغيرة لصقور وتماثيل لقطط خضراء وقطع أثرية مختلفة الأشكال والأحجام بعضها جداريات منتزعة من مقابر بحرفية شديدة.. متحف صغير تحت الأرض لا يدري أحد عنه شيئًا رغم أن آلاف البشر يمرون من فوقه كل يوم.. مساحة ضئيلة ولكنها تعج بثروة طائلة تخرج تباعًا لمن يدفع ثمنها.. يا تُرى كم حقق الشافعي من ثروة من وراء تجارته تلك..؟! لمعت عيناه وهو يتمتم شاكرًا حُسن حظه أن توفيق لم يكتشف أمره وظنه لم يدخل السرداب وإلا كان قد دُفن حيًّا بهذا القبو للأبد..!!

قال لنفسه: لن أترك هذه الثروة تمر أمامي دون أن أحصل على نصيبي منها.. فمن يطبخ السم يتذوقه حتمًا.. وسرقة السارق حلال وأمواله تكون حلالًا أيضا كما كان يقول لنا دائما الشيخ عبد الدايم..!!

عادت الرجفة تسري في عروقه على ذكر الشيخ عبد الدايم فتذكر المسجد وأمه العجوز فحاول أن يطردهما من ذاكرته فأطال النظر في وجوه المارة من النافذة. كانت أمواج من البشر تصعد وتهبط كل يعرف طريقه ولكن من منهم يدركه حتى النهاية؟! شعر لوهلة بأنه يرى الناس من حوله واجمة كمن ينتظرون حدوث أمرٍ ما ولكنهم لا يدركونه.. وجوه مكفهرة استقر عليها الضيق والضجر حتى كاد يلتصق بها، عيون زائغة وآذان متلهفة لمن يشنفها بما يثلج صدرها.. سرعان ما انسحب بهواجسه وعاد لمن يهمه فقطب حاجبيه وهو يتساءل: متى يثق فيه الشافعي الكبير ويسلمه مقاليد الأمور لإدارة هذه الثروة التي لو نقب عنها في سوهاج كلها ما عثر على ربعها.. لماذا لم يعتمد عليه حتى الآن؟! وهو قد أظهر له من الإخلاص والأمانة ما يفوق توقعاته بكثير.. لقد بذر الثقة وزرع الاطمئنان في صدر الشافعي وحان وقت الحصاد..!!

هل كانت مصادفة أم أن القدر تعمد وضع الشافعي الكبير في طريقه لانتشاله من الفقر وتحقيق طموحه في هذه التجارة.. يكاد يُجزم بأن القدر يعمل لصالحه والدنيا سوف تبتسم له قريبًا ولكن ما كان يُحيره لماذا تأخر عليه حتى الآن؟! لو كان الأمر بيده لعجل به فلم يُعد يطيق الانتظار أكثر من ذلك.. كان يشعر أنه بات أشبه بدانة مدفع وضعت في غرفة الاحتراق وأصبحت جاهزة للإطلاق في أي وقت ولا عودة لها مرة أخرى فلماذا لم تُطلق؟

توقفت الحافلة في إحدى المحطات أكثر من اللازم بسبب تدافع الركاب.. فوقع بصره على سيدة عجوز تتكئ على إفريز الطريق بكلتا يديها محاولة النهوض للحاق بها.. كانت شديدة الشبه بأمه وقد حفر الزمن أخاديد عميقة في وجنتيها وتساقطت أسنانها إلا قليلًا عندما صاحت بصوت ضعيف لكي ينتظرها السائق أو يساعدها أحد ولكن لا مجيب.. تحركت الحافلة مخلفة إياها وراءها فسقطت بعد أن كانت تستند بكفيها على حافة الباب ففقدت توازنها ونالت أتربة الطريق من ردائها الأسود..!

لعن في سره الفقر والمرض وهو يتابعها بعينيه ثم أردف في ضيق وهو يتذكر أمه: ليتها جاءت معي للقاهرة.. ماذا كسبت من وراء عنادها؟ لقد خسرت كل شيء.. حتى أنا خسرتني ودفعتني للحيلة لكي أبيع أرضي ولم أحصد إلا المذلة..

ارتاح قليلًا لهذا التفسير الذي يُميت ضميره كلما دبت فيه روح ولو يسيرة.. عاد للتجهم عندما تذكر أمواله التي تبخرت من بين أصابعه قبل أن تطأ قدماه أرض القاهرة فازداد تجهمه حتى صار وجهه معتمًا.. عاد يلقي باللوم كله على أمه فلو أنها كانت لينة مطيعة وكانت تدعو له لحفظ الله نقوده ولتغيرت أحواله بدلًا من حالة القلق التي باتت تسيطر عليه وكأنها سُحب لا تنقشع أبدًا.. شعر بأنه لم يقبض بكفه على حاضره بعد ولم يعتصره حتى الآن.. لم يحصل على رحيقه ومازالت كفه خاوية مبسوطة ممتدة.. وبحركة لا إرادية فرد كفيه أمام عينيه وتأملهما بعد أن بسط الاثنتين متلاصقتين.. مضى ينظر في شرود غريب لخطوط كفيه وهي تبدو على شكل أرقام تشبه الواحد والثمانية متعرجين وتساءل مع نفسه: ترى ماذا تعني؟ نظر إلى السماء عبر النافذة وكأنه يناجي مُسير الكون وخالقه: متى يحين موعد وصولي لما أريد؟! لقد قدمت قرابين كثيرة وحان وقت ردها لي!! لماذا تأخرت عليَّ؟! لقد اخترت طريقي فلماذا لا تفتح لي أبوابه على مصراعيها؟ ماذا تنتظر؟ لماذا تتعمد إذلالي هكذا؟.

ظل على حاله وهو يخاطب ربه صارخًا من أعماقه وشعر بأنه يسمع صوتًا ولكنه لم يتبينه بوضوح حتى فاتته محطته التي كان يتعين عليه النزول فيها ومضت الحافلة منحرفة به إلى أقصى اليسار بينما لاح له الميدان الفسيح من خلفه بعيدًا وهو يغيب عن نظره رويدًا رويدًا وظلت رأسه مطلة من النافذة وعيناه لا تخلوان من وجوم.

***

19

السرداب

عندما دلف ماهر إلى حانوت الشافعي لم يكن الأخير موجودًا وإنما كان توفيق في انتظاره وسرعان ما أمر صبيان المحل بالمغادرة لحراسته من أعين المتطفلين ثم أحكم إغلاق الباب الخارجي فتوجس ماهر خيفة وفكر لماذا طلب منه الشافعي الكبير الذهاب اليوم للحانوت وشعر بأن توفيق قد كشف أمر دخوله للسرداب وأنه يدبر له مكيدة للخلاص منه وبدا له أن نهايته قد حانت فتسمر في مكانه ودار عقله بأفكار متباينة ما بين الانقضاض على توفيق وعراكه أو التملص منه ومحاولة الفرار أو الصياح ربما يغيثه منصور أو ينقذه أحد المارة..

نظر إليه توفيق بعين الخبير الذي يقرأ ما يدور بعقله بوضوح قائلًا:

- هيا لا تخف ودعك من الهواجس ولا تحرن هكذا كالحمار عند مطلع التبة فلدينا عمل هام..

قالها وهو يربت على كتفه ويبتسم فبث فيه بعض الطمأنينة فسار خلفه بقليل من التردد المشوب بالحرص وإن كان قد انتوى المقاومة عند أول بادرة غدر..

نزل توفيق الدرج متجهًا إلى البدروم حتى بلغ نهايته فأزاح بعضًا من القطع الأثرية المقلدة كبيرة الحجم ولكنها خفيفة الوزن حتى ظهر تجويف غائر قليلًا في الجدار يكاد لا يُرى للوهلة الأولى.. استدار توفيق وقلب جرة فخارية فسقط في كفه المنبسط مقبض معدني صغير أداره في فتحة السرداب عند نقطة محددة ولكنها تبدو مطموسة فانفتح.. سرت الرجفة في جسد ماهر وهو يسير خلف توفيق فقد بدا له وكأنه يعيد أمامه مشهد اكتشافه للسرداب بنفس ترتيب الخطوات منذ أسبوع مضى..

أشعل توفيق مصباحين زيتيين فبدت التماثيل الأثرية كأشباح مخيفة بعد أن اعتلت ظلالها ثلثي الحائط بل ووصلت أحيانا للسقف.. وقف توفيق خلف طاولة خشبية مستطيلة عليها مادة طينية لونها برتقالي داكن وجردل ماء صغير مملوء لنصفه وأدوات خشبية ومعدنية متفاوتة الأحجام والأشكال ثم ابتسم حتى ظهر صفا أسنانه البيضاء اللامعة فبدا كطاهٍ متمرس يستعد لإعداد وجبة دسمة شهية..

- لا تقف متسمرًا هكذا أحضر من خلفك صندوق الحيازة الأثرية رقم 115 /9 .

تلفت ماهر حوله حيث أشار له توفيق فوجد صندوقًا خشبيًّا صغيرًا ما أن وضعه على الطاولة حتى أخرج منه توفيق تمثالًا على هيئة قط فرعوني يميل لونه إلى الاخضرار ولا يزيد طوله على عشرين سنتيمترًا.

طلب توفيق من ماهر أن ينظر في ساعته ويحدد الوقت بدقة وعندما يمر من الزمن عشرون دقيقة فعليه أن ينبهه.. أومأ ماهر بالإيجاب بعد أن زم جبهته قليلًا في انتظار ما سيقوم به توفيق.. الذي سرعان ما غرس أصابع كفيه الطويلة في العجين الذي أمامه وخلطه ببعض الماء ثم أضاف إليه مادة أشبه بالصمغ مستعينًا بقطارة صغيرة حيث سد ثلاث قنوات دقيقة حفرها بخنصره ثم عاد يعمل بأصابعه العشرة ويلتقط الأدوات التي أمامه ويستبدلها بسرعة فائقة فبدا كأخطبوط يلتهم عشبًا بحريًّا في نهم..

عندما قارب عقرب الساعة الكبير على الدقيقة السابعة عشرة وقبل أن يتجاوزها بثوانٍ كان ماهر يقف فاغرًا فاه تمامًا في دهشة بالغة بينما تكاد عيناه تخرجان من مقلتيهما من شدة جحوظهما فقد أكمل توفيق صنع قط فرعوني مماثل تمامًا للأصلي الذي كان يقبع منذ قليل بالصندوق وفيما عدا اللون تكاد لا تفرقهما إلا من تفاصيل دقيقة جدًا قد تخطئها عين الخبير أيضًا..

عقد توفيق ذراعيه حول بطنه وابتسم في ثقة بعد أن وضع خلة الأسنان بين شفتيه ولاكها في زهو وهو

يشير إلى ساعة يد ماهر برأسه قائلًا:

- هل انتهى الوقت؟

لم يتمالك ماهر نفسه فصفق بشدة:

- أنت عبقري يا توفيق.. أنت فنان حقيقي.

استحسن توفيق المديح والإطراء ثم اقترب من ماهر وقد تغيرت نبرة صوته فبدت آمرة نوعًا ما:

- ستجد أنبوبًا رفيعًا في هذا الركن احضره لكي نرش به التمثال من مسافة لا تقل عن نصف متر حتى يجف ويتماسك تماما وسوف يبدو قديما بعض الشيء أيضا .. هيا لا تتلكأ..

تحرك ماهر وكأنه تحت تأثير تنويم مغناطيسي فنفذ ما كلفه به توفيق وفي دقائق معدودات كان التمثال قد جف تمامًا بفعل هذا السائل العجيب.. بعدها أمره توفيق بوضع التمثال المقلد في نفس صندوق الحيازة رقم 115/9 .. تردد ماهر قليلًا إلا أنه أمام سطوة عيني توفيق فعل ما طلبه منه ثم أطلق سهام الحيرة من عينيه صوب توفيق ورأسه تموج بعشرات الأسئلة عن سبب قيامه بهذا العرض الغريب أمامه الآن فلم يشف توفيق غليله بل زاده حيرة ودهشة عندما أخرج من جيبه خمسة جنيهات ورقية فردها أمامه حتى يراها جيدًا ثم طواها مرة أخرى ووضعها برفق في الجيب العلوي لقميص ماهر الذي لم يتمالك نفسه فقال بسخرية:

- ما هذا؟ هل تحولت إلى ساحر أيضا؟

ضحك توفيق ملء شدقيه وهو يهم بمغادرة السرداب قائلًا:

- لا ليس بعد ولكن ربما أفكر في ذلك يومًا ما.. سأصعد الآن لأفتح باب الحانوت حيث سيحضر إليك مفتش الحيازة صبري الأهواني وعليك نقل الصندوق إلى البدروم حيث سيقوم بمعاينته مع باقي الصناديق الأخرى فكما تعلم رخصة الحيازة لا تُجدد إلا من خلاله بعد هذا المرور الدوري.. ثم أردف بلهجة آمرة:

- ولا تنس أن توقع أمامه في الدفتر.

في سذاجة مصطنعة أجابه ماهر بخبث:

- ولكنه سيكتشف الفارق بين التمثالين فهو موظف في مصلحة الآثار وهذه مهنته وحتى لو لم يكتشف فاللونان غير متطابقين..

أطلق توفيق ضحكة عالية تلك المرة تردد صداها في جنبات السرداب فبدت مخيفة نوعًا ما خاصة مع جسده العملاق وبشرته السمراء الداكنة وهو يقول بنبرة أقرب للفحيح:

- أعطه الجنيهات الخمسة..

رفع ماهر أحد حاجبيه مستنكرًا:

- ماذا سيفعل حتى يحصل على خمسة جنيهات كاملة؟!

أجابه توفيق وهو يغادر السرداب والابتسامة لا تفارق شفتيه:

- نحن نعطيه هذا المبلغ كي لا يفعل شيئًا! لأنه إن فعل ستكون الخسارة أكبر بكثير..

قبل أن يدرك ماهر كل ما حدث ليستوعبه ويبدأ بعدها في استعادة توازنه كان قد سمع وقع أقدام تهبط الدرج وما هي إلا دقائق قليلة حتى شاهد أمامه رجلا في نهاية الأربعينيات من عمره متوسط الطول بدين أصلع الرأس يرتدي نظارة طبية سوداء سميكة ويرتدي حلة صيفية رمادية بهت لونها وتركت زيوت

الطعام بقعًا متناثرة على جوانبها وصدرها بينما أزرارها تكاد تنوء بكرشه المنتفخ خلفها والذي بدا وكأنه يدفعها للتطاير من شدة ضغطه عليها بعد أن اتسعت المسافة بين كل زر وآخر حتى أطلت منها شحومه في بجاحة.. أما المنديل الذي كان يلفه حول رقبته ليمتص قطرات العرق التي يتسرب بعضها على قفاه ثم تنساب على رقبته فكان من الصعب على ماهر الوقوف على لونه الأصلي من شدة اتساخه..!!

حياه الرجل بصوت أجش وهو يرمقه بنظرة متوجسة بادله ماهر إياها فكلاهما لا يعرف الآخر من قبل والاثنان يستعدان لارتكاب جريمة معًا بعد لحظات قليلة.. شعور بالتنمر ينتابهما ومشاعر تتأجج في صدريهما بين الإقدام على الخطوة الأولى وبين التأهب للتراجع عند أي بادرة تظاهر بالشرف من أيٍّ منهما..

ظلت نظراتهما تتلاقى كلما ناوله ماهر صندوقًا خشبيًّا من صناديق الحيازة الخاصة بالشافعي الكبير ثم كلما يشرع الأهواني في فتحه ومطابقة محتواه على دفتره ثم التأشير بدفتر حيازة الشافعي بعدها..

مضت تسعة صناديق بسلام وصبري الأهواني يدون ذات العبارة أمام كل منها **« الأثر سليم وصحيح وشروط التخزين مستوفاة»** حتى جاء دور الصندوق الأخير الذي يحمل رقم 115/9 فأخرج ماهر القط الفرعوني المقلد منه بعد أن كان قد جف تمامًا.. متظاهرًا بأنه يضعه على الطاولة بحرص شديد باعتباره أثرًا قيمًا.. أطلت نصف ابتسامة استنكار من بين شفتي الأهواني وهو يطالع صورة الأثر بالدفتر ثم سرعان ما غابت الابتسامة بعد أن شرعت كفه في الإمساك بالقلم فسبقتها كف ماهر وهي تقبض على الورقة المالية فئة الخمسة جنيهات بلونها الأزرق الداكن ليفردها أمامه على صفحة الدفتر.. ولكن لم يحرك الأهواني ساكنًا.. فقط أزاحها جانبًا قليلًا ثم رمق ماهر بنظرة رضا ودون عبارته الأثيرة السابقة ثم وقع بجوارها ثم كرر نفس البيانات في دفتر حيازة الشافعي وأداره ناحية ماهر حتى يوقع أمامه بتزييف الحقيقة ففعل مترددًا بكف مرتعش وبعدها طوى الأهواني دفتره بعد أن اختلس الورقة المالية من بين دفتيه ودسها في جيبه في هدوء ثم انصرف بينما ظل ماهر يتصبب عرقًا وهو يشعر بلذة غريبة لم يدركها من قبل ولكنه صار مقبلًا عليها في نهم وكأنه كان ينتظرها طويلًا لإشباع رغبة دفينة تأخرت عليه والآن بلغ نشوته منها وبدا أنه سيشتاق للمزيد..!

***

20

بائعة الخضراوات

ظل منصور يلوح بكفيه حتى شعر بذراعه يتخدل.. جماهير غفيرة تراصت على جانبي الطريق منذ أن وصل وباقي زملائه المحاربين محملين بحافلة عسكرية من مدينة السويس بعد أن وضعت الحرب أوزارها وكللت الجهود بالنصر.. لم تفارق الابتسامة وجهه الذي بدا وكأنه يشع نورًا بعد أن كان معتمًا لسنوات عجاف.. فرحة الناس كانت عارمة فكانوا يقتربون من السيارات الضخمة التي تقله وزملاءه كي يلامسوا أياديهم تشجيعًا وتقديرًا وعرفانًا.. شعر منصور للحظات أنه تجاوز الزمن والألم وعبر إلى لحظة أخرى يحلق فيها بآماله وطموحاته بعد أن شعر بقوة إرادته وهي تخرج مندفعة لتطيح بكل ما في طريقها.. أحاسيس مفعمة بالنصر والتفوق والتفرد ومغلفة بفرحة طاغية غالية..

عادت الروح إلى وجدانه فاقتنصها من قلب التاريخ وأودعها في عقله وقلبه لتكون زاده في المستقبل وعتاده عندما تشتد عليه المحن وتعتصره الأزمات..

- الله أكبر مبروك علينا جميعًا..

قالها الشافعي الكبير وهو يرتشف أول كوب من الشربات بعد أن أمر صبيانه بتوزيع العشرات منه على المارة بالطريق والحوانيت المجاورة.. الكل كان يحتفل بطريقته والجميع كان يشعر بأنه صاحب الفرح.. اقترب ماهر بخطى بطيئة من الواجهة الزجاجية للحانوت وقبع خلفها مراقبًا صبيان الشافعي وهم يستوقفون المارة وبعض السيارات ويناولونهم أكواب الشربات في خفة وسعادة.. فلما وجد استجابة خرج من مكمنه مهرولًا ناحية أحدهم فجذب منه الصينية ليدور بما تبقى عليها من أكواب بدورة أخيرة على أصحاب المحلات القريبة ليعلق في ذاكرتهم مع هذا الحدث وكأنه ينال شرف المشاركة ويحفره في الذاكرة إلى الأبد.

ذاب كثير من الثلج بينه وبين الشافعي الكبير بعد تقديمه الرشوة لصبري الأهواني وتوقيعه على دفتر الحيازة وأفلتت على يديه لأول مرة قطعة أثرية رائعة على شكل قط فرعوني في طريقها لخارج مصر بعد أن باعها الشافعي لسائح أمريكي بعشرة آلاف دولار. بعد ذلك بثلاثة أيام ووضعت المقلدة التي ولُدت على يد توفيق بدلًا منها داخل صندوق الحيازة الأثرية.. ونال ماهر عشرين جنيهًا كاملة مكافأة خاصة من الشافعي..

ثم صار الثلج ماء عندما اقترح ماهر عليه فكرة جديدة بأن يلجأ لحيلة كف مريم حتى يُحير رجال الشرطة أكثر ويصعب الإيقاع به أو بأحد رجاله طالما يراقبون هواتفه حسبما أخبره.. مؤكدًا له أنه حتى وإن وقع في قبضتهم فليس من السهل كشف سر كف مريم أبدًا فلن تخطر على بال أحد على الإطلاق.. ولما نالت الفكرة استحسان الشافعي الكبير ودخلت حيز التطبيق أصبح ماهر من أقرب رجاله إليه وأحبهم إلى عقله فلم يكن الشافعي يستخدم قلبه في عمله أبدًا..!

توقفت السيارة لدى مدخل نزلة السمان كالمعتاد وترجلا منها وسار ماهر خلفه مخترقين الأزقة الضيقة حتى أنهيا صف البيوت الصغيرة المبنية بالطوب الأحمر واقترب الشافعي من السيدة العجوز التي تبيع الخضراوات فتوقف تلك المرة والتفت إلى ماهر ثم نقل بصره إلى السيدة قائلًا:

- هل لديك بصلًا بشوشة يا حاجة؟

أجابته السيدة على الفور:

- كم حزمة تريد يا حاج لدينا الكثير منه اليوم وكله صابح وطازج..!!

تجهم وجه الشافعي وأشار لماهر بأن يتبعه والذي كان قد غرق في دهشته فالسيدة لم يكن لديها سوى بعض عيدان الجرجير وقد اصفرت قليلًا دليلًا على ذبولها.. ثم لماذا لم يشتر الشافعي منها طالما قررت بأن لديها الكثير من البصل المسمى أبوشوشة؟ ولماذا يسمونه كذلك؟ولماذا تجهم الشافعي هكذا فجأة؟! فلم يجد من يجيبه عن تساؤلاته..

مر الشافعي من أمام المخزن الذي كان بابه موصدًا فبدا وكأنه مهجور من سنوات بعيدة من شدة الصدأ العالق بالمزلاج الكبير ثم انحرف يسارًا حتى ظهر مقهى بلدي صغير في مواجهتهما.. جلس الشافعي ودعا ماهر للجلوس بجواره وطلبا كوبين من الشاي الثقيل.. كانت صورة رئيس الجمهورية أنور السادات مثبتة على أحد جدران المقهى القابع في مواجهة ماهر السوهاجي تماما.. ذات إطار أسود أنيق ورفيع وعندما تفرس فيها قليلا شعر بأن عينيه تطل منهما نظرة غامضة أشبه بمن يتكتم أمرًا أو يترصد لآخرين..!

مال ماهر على أذن الشافعي وهو يهمس:

- لماذا لم ندخل المخزن؟

رشف الشافعي رشفتين متتاليتين من كوبه بينما كانت عيناه تتفحصان رواد المقهى في سرعة ثم قال:

- الشرطة كامنة اليوم في النزلة كلها وربما هنا في المقهى أيضًا وإذا ما دخلنا المخزن سيدخلون وراءنا والبضاعة كلها بداخله الآن بعد أن غلفها توفيق وطلال فهل تظن أنني سأفتح مخزني لكي أقدم نفسي لهم في حالة تلبس.. هذا ما يريدونه بالضبط منذ عامين لأنهم يعرفون أن المخزن ليس مسجلًا باسمي..!!

أحس ماهر بالخوف وقد بدأ يسري في عروقه ببطء بعد أن مرت بخاطره تجربته في قسم شرطة إمبابة إلا أنه أخفى شعوره بمهارة فائقة وبلامبالاة مصطنعة:

- وماذا سنفعل الآن؟

اعتدل الشافعي في جلسته وعبث بشاربه قائلًا بصوت حرص على أن يكون مسموعًا:

- لا شيء سنشرب الشاي وننصرف.. فالقانون حتى الآن على الأقل لا يمنعنا من تناول الشاي على المقاهي.

***

21

صحارى سيتي

صعدت السيارة مطلع الطريق المؤدي إلى أهرام الجيزة متجاوزة فندق مينا هاوس بسرعة فائقة، ثم انحرفت يمينًا وسارت في مدق متعرج ملتوٍ حتى منطقة الهضبة العليا فظهرت أنوار متناثرة هنا وهناك فشقت السيارة طريقها في بطء بين الشاليهات الخشبية الصغيرة حتى توقفت أمام إحداها وترجل منها شبحان لرجلين دلفا إلى الشاليه.. أضيئت أنوار خافتة ودارت موسيقى غربية هادئة ودار حوار بينهما لا يخلو من شجن..

ملأ طلال كأسه بالشراب للمرة الرابعة وقد بدأ يشعر بنشوة الخمر تلعب برأسه ولسانه يزداد ثقلًا فيفيض في حديثه أكثر لنديم خمره تلك الليلة مراد الشامي أقرب شركاء أبيه إليه ربما لأنه الوحيد الذي يُحسن الإنصات إليه وربما أيضا لأنه يشاركه الشراب كل حين أو لاختلافه عن توفيق وباقي رجال الشافعي في الثقافة والبيئة التي أتى منها فقد كان بيروتيًّا يتجر في الحاويات الخشبية حتى تعرف على الشافعي الكبير منذ سنوات فصارا شركاء ومضى يقيم بالقاهرة أكثر من إقامته ببيروت وبحكم علاقاته المتشعبة بالمسئولين بالميناء صارت لديهما محطة ترانزيت ببيروت إلى أمريكا الجنوبية وبعض دول أوروبا لتصدير الحضارة المصرية القديمة بأمان وإلى غير رجعة..

- لقد ضقت بالعمل معه يا مراد.. أربع سنوات الآن وأنا لا أفعل شيئًا حقيقيًّا مجرد مُنفذ لأوامر أبي دون نقاش أو استماع لرأيي وكأنني صبي من صبيانه.. الشافعي الكبير ديكتاتور لا يهمه سوى تجارته وجمع المزيد من المال وطالما أطيع أوامره فالأمور تسير على ما يرام.. ولكن مع شقيقتي ناجية الأمر يختلف فهو يخشاها ويخاف من غضبتها ويدللها أكثر من اللازم دائما ويتفاخر بدراستها الجامعية في مجالسه وكأنه لم يرزق بولد..!! ولم ولن يجرؤ يوما على مفاتحتها في أمر تجارته في الآثار خارج الترخيص، يعمل لها دائما ألف حساب وكأنها صوت الضمير الذي سيصم آذانه ويعمي بصره إذا ما عرفت الحقيقة الغائبة!! أما أنا فلأذهب إلى الجحيم دائما! بسبب فشلي في الدراسة.

ضحك مراد وهو يصب لنفسه كأسًا بعناية قائلًا:

- كُلنا هذا الرجل يا طلال.. لا صوت يعلو على صوت الشافعي الكبير وهو معذور في إخفاء حقيقة التجارة عن ناجية لأنها لن تتفهم أبدًا طبيعة هذا النشاط التجاري بسبب أفكارها المختلفة عنكم تماما مع أن التراث الحضاري ملك الإنسانية جمعاء ونحن نساعد على ترسيخ هذا المفهوم..

قالها وهو يضحك.. زفر طلال في ضيق ثم أفرغ كأسه دفعة واحدة في جوفه وظل يتفحص في وجه مراد عله ينطق بما يشفي غليله ويؤيد موقفه..

كان مراد يقلب مكعبات الثلج بأصابعه في برود ويصنع بها دوائر عميقة صغيرة ثم ارتشف رشفتين بتمهل قائلًا:

- اسمعني جيدًا يا طلال.. أنت لا تواجه نفسك بحقيقة مشاكلك فأنت لم تحب تجارتنا أبدًا ولا تعرف ماذا تريد أن تعمل وهو يشعر بأن طموحك منعدم بحكم خبراته في الحياة، والآن بعد أن ظهر ماهر

السوهاجي في حياتك وشعورك بأنه يزحف نحو أبيك ببطء ويكاد ينتزعك من موقعك فأصبحت مثل قطعة الشطرنج التي تتحرك في مساحة ضيقة بعد أن تساقطت من حولها قطع أخرى صغيرة كانت تحميها..

أطاح طلال بكأسه بعيدًا في حركة عصبية فتهشم محدثًا جلبة غطت على صوت الموسيقى المنبعثة من جهاز الأسطوانات ذي الإطار الخشبي الفخم الذي يحتل ركنًا مميزًا في الشاليه الصغير..

اعتدل مراد في جلسته أكثر وكأنه يهم بالنهوض فعاجله طلال قائلًا بحدة:

- لا تذكر سيرة هذا الحقير ماهر أمامي مرة أخرى فأنا لست في منافسة معه.. أنا أستطيع سحقه كالصرصار ولكنني أحترم رغبة والدي لا أكثر ولا أقل ولو أنني لا أرتاح لطريقة معاملته له وكأنه ابنه الذي لم ينجبه..!!

تنبه مراد للعبارة الأخيرة وحدق بعينيه في وجه طلال وكأنه يحثه على الاستزادة، فقد بدا له أن هناك أمورًا قد استجدت ولا يعلم عنها شيئًا، فاستجاب طلال دون مجهود مسترسلًا:

- إنه يعتمد عليه في كل شيء الآن.. حسابات البنوك والمعاملات مع التجار في خان الخليلي وباب اللوق.. يصطحبه إلى الأقصر كل فترة حتى عندما التقى بالخواجة رالف كان ماهر معه وأنت تعلم حجم تجارتنا معه.. وأخيرًا فهو يذهب معه الآن كل ليلة إلى عوامة الكيت كات ولم يعد يتبقى في الأمر ما يخفيه عنه.. قالها وهو يبتسم في سخرية يشوبها الحزن والأسى.

صب له مراد كأسًا جديًدا ناوله إياه وهو يبتسم في خبث:

- وماذا أيضًا؟!

أطرق طلال مستسلمًا وكأنه يجلس على كرسي الاعتراف الكنسي:

- لن أستطيع استعادة ثقة الشافعي إلا بعد الخلاص من ماهر نهائيًا.. ثم نظر إلى لا شيء وهو يردف:

- هل تتذكر سعيد الخضري؟

أومأ مراد بالإيجاب فقال طلال:

- لقد كان لديه طموح هو الآخر وكان أبي يعتمد عليه ولكن لم تكن له تلك المنزلة التي يحظى بها السوهاجي.. فقد كان سعيد مرمطونًا وظل هكذا، ومع ذلك لم أكن أطيق رؤيته لأكثر من ثلاث دقائق متصلة حتى انتهى طموحه به إلى باب السجن ولا يزال أمامه ثماني سنوات أخرى فلم يكن هناك حل آخر سوى ذلك.. فأنا لا أتحمل هذه النوعية من الرجال حول والدي ومنذ أن رأيت ماهر لأول مرة وهو يذكرني بسعيد الخضري..

تغير وجه مراد قليلًا وهو يسأل ويكاد يدرك الإجابة:

- أأنت الذي أبلغت عنه الشرطة وقتها؟

ابتسم طلال في زهو واتسعت عيناه ببريق غريب كقائد مجنون يتلذذ بإحراق المدن التي يغزوها قائلا:

- نعم.. والآن جاء دور السوهاجي ليلحق به..!!

***

22

العوامـة

عبأ الدخان الأزرق فضاء الغرفة مشكلًا دوائر متداخلة أشبه بسحب صيف سرعان ما انسحبت في هدوء عبر النافذة الواسعة المطلة على صفحة النيل وكأنها كانت سحابة عابرة.. ترك الشافعي الشيشة جانبًا وتناول ثمرة فاكهة خطفها ماهر من يده بسرعة قبل أن تصل إلى فمه ومسحها جيدًا بطرف جلبابه ثم قدمها إليه وعاد لينشغل بتسوية الفحم وتكسيره إلى قطع صغيرة مرة أخرى دون أن ينظر إلى الشافعي:

- ماذا كان يعمل توفيق قبل أن يشتغل لديك؟!

تناول الشافعي الكبير المبسم وجذب نفسًا عميقًا توهج معه الفحم وازداد احمرارًا:

- لن تصدق - ثم سعل قليلًا - كان مجرد ساعٍ في كلية الفنون الجميلة ويومًا ما اكتشفوا أنه قلد تمثالًا واختلس الأصل فقُبض عليه ولكن في التحقيقاتٍ تبين أن التمثال الذي اختلسه لم يكن أصليًّا هو الآخر فعوقب بعقوبة بسيطة وانشغلوا عنه بأمر سرقة التمثال الأصلي.. ووقتها كنت أزور أحد رجالي في السجن واسمه سعيد الخضري فعرفني على توفيق أثناء الزيارة وأوصاني به والحقيقة كانت وصية عظيمة فتوفيق له كفان يستحقان أن يتم لفهما في حرير ولولاه ما استطعنا إخراج نصف الحيازة الأثرية التي لدينا إلى الخارج بينما المقلدات تقبع مكانها في هدوء والبركة بعد ذلك في صبري الأهواني ثم فكرة كف مريم أيضًا التي أتحفتنا بها حتى لا تتبعنا الشرطة..

قالها وضحك مردفًا:

- أكاد أتخيل رجال البوليس وهم يضربون أخماسًا في أسداس عندما يسمعونني في كل مرة وأنا أقول لكم كف مريم.. ثم لا يجدون من يراقبونه..!!

ابتسم ماهر على ذكر كف مريم ثم سرعان ما كست الجدية وجهه وكأنه وزير يضع ملامح الخطة الخمسية القادمة:

- ولماذا يقتصر دور توفيق على تقليد الحيازة فقط؟.. هذا التوفيق كنز لم يستغل بعد..!

نظر إليه الشافعي بعينيه الغائرتين في وجهه كنسر عجوز لا تزال روح الصياد تدب في أوصاله ولم تخفت بعد.. فأردف ماهر:

- لقد لاحظت أن تجارًا كثيرين من النزلة والأقصر يحضرون بضاعتهم إليك.. خبيئة تضم تماثيل صغيرة أو تمائم وجعارين وأنت تشتريها منهم بمبالغ كبيرة لتعيد بيعها للأجانب بسعر أعلى.. أليس كذلك؟

أومأ الشافعي مرتين وكأنه يستعجله ولا يرغب في سماع مقدمات طويلة فأصاب ماهر قلب الموضوع بضربة واحدة بعد أن التقط الشغف وهو يطل من عيني الشافعي فقال:

- توفيق لا يستغرق أكثر من ثُلث الساعة لتقليد تمثال طوله عشرين سنتيمترًا وهو ذات الوقت الذي

يستغرقه التاجر ليعرض بضاعته عليك والتي في أحيان كثيرة تعطيها لتوفيق لفحصها بعدك.. ولن يكلفك الأمر أكثر من فنجان قهوة ولا بأس من كوب شاي بعده إن لزم الأمر بينما يكون الخبير العالمي توفيق القابع بالمخزن قد قام بدوره وانتهى منه..!

لمعت عينا الشافعي وربت بكفه على كتف ماهر قائلًا:

- أنت إبليس وبعدها نُعيد التمثال المقلد للتاجر قائلين له بضاعتك ليست أصلية..

ابتسم ماهر في خبث ظاهر محاولًا رسم خجل مصطنع:

- وربنا يعوض عليه أيضًا.

أطلق الشافعي ضحكة عالية ملء شدقيه ارتجت لها جنبات العوامة فبدت لماهر وكأنها تتهادى قليلًا على صفحة النيل بعد أن راقت الفكرة للشافعي الكبير ولاقت قبوله.

***

23

الإسكندرية 1975

وقف ماهر على مؤخرة السفينة يتأمل رصيف الميناء والفضاء الواسع بين السماء والبحر الذي شقته بعد برهة صافرة طويلة عالية تعلن عن إقلاع الباخرة.. فُكت الحبال ورُفعت المراسي وبدأت السفينة تتهادى على صفحة المياه الزرقاء التي كانت زرقتها تشتد كلما توغلت الباخرة في عرض البحر مغادرة ميناء الإسكندرية في طريقها إلى بيروت. بدا له الكورنيش من بعيد كشريط صغير والمباني البيضاء تبتعد رويدًا رويدًا وتزداد ضآلة ورذاذ البحر يلفح وجهه كل برهة فيشعر بانتعاش ويبتسم في رضا..

أخرج جواز سفره ومضى يتأمله في فخر. يخطو الآن خطوات واثقة مرسومة بدقة نحو تحقيق طموحه بل إنها الآن أدق خطوة للعبور إلى المستقبل الذي رسم ملامحه بدقة منذ أن وطئت قدماه حانوت الشافعي وها هو الآن يقبض على الشافعي الكبير بكفه ويكاد يعتصره.. ابتسم في مكر وهو يتذكر المخبر سيد عويس الذي أخفى عن الشافعي ورجاله أنه لا يزال يعمل مرشدًا له بعد أن أجبره ضابط مباحث القسم على الاستمرار معهم وكيف كان يرشدهم عن بعض الحفارين ومن يخفون تمائم صغيرة ببيوتهم بنزلة السمان حتى يتركوه يعمل مع الشافعي الكبير في أمان.

تأمل صورته الفوتوغرافية المثبتة بالجواز. يبدو فيها مذهولًا بعض الشيء، عيناه متسعتان بلا مبرر في حين قد غابت الابتسامة تمامًا عن وجهه وبدا شعره المجعد أكثر ارتفاعًا وكأنه في حاجة ماسة إلى تصفيف يليق بالمرحلة الجديدة التي بات يقف على أعتابها بخطى واثقة.. تعلقت عيناه بتاريخ انتهاء صلاحية جواز سفره في يناير 1977 ثم تسرب إليه وجوم مفاجئ وشعر بشعور غريب ينتابه لم يجد له تفسيرًا أخرجته منه دُفعة قوية تلك المرة من رذاذ الماء فطوى الجواز بحرص حتى لا يبتل ودسه في جيب المعطف الداخلي ومضى نحو قمرته حيث استلقى على فراشه محاولا الاستسلام للنوم.. كان مضطربًا فباءت كل محاولاته بالتغلب على أرقه بالفشل بينما كانت بضاعة الشافعي ترقد في سلام بحاوية البضائع في قاع السفينة..

تقلب في فراشه للمرة العاشرة وجال بخاطره مراد الشامي الذي ينتظره على الجانب الآخر من البحر المتوسط ليخرج البضاعة في أمانٍ تمهيدًا لتوزيعها في بلدان أخرى.. مهمة كان يقوم بها طلال كل مرة وها هو الآن يؤدي دور البطولة فيها لأول مرة بعد أن أجبر طلال على الجلوس احتياطيًّا.. زاد قلقه قليلًا وشعر بأنه يكاد يسمع صوت ضربات قلبه وانتابه دوار خفيف عندما طافت أمه بذاكرته في صورة مشوشة مهتزة لا يكاد يُدرك ملامحها فضاقت عيناه قليلًا وكأنه يحاول التركيز واستشراف ملامح وصورة المستقبل فاستعصت عليه أكثر وكأنها تنسحب مجددًا من ذاكرته ولكن ببطء فألقى ببصره من النافذة الدائرية الصغيرة محاولًا رؤية الميناء من بعيد فلم يعد يرى إلا بحرًا بلا نهاية!!

***

النقيب شريف أبو النجا في الخارج يا فندم؟

نزع اللواء أنور عبد اللطيف مدير شرطة السياحة والآثار الكاب الأبيض الذي يتوسطه النسر الذهبي عن رأسه ووضعه على مكتبه الذي يتصدر أحد جدرانه إطار خشبي ضخم يضم صورة ملونة للرئيس

السادات بردائه العسكري وأوسمته ونياشينه واقفًا في شموخ وكبرياء بينما تطل من عينيه نظرة تشي بكثير من الزهو والتحدي.. رفع اللواء رأسه قليلًا وقال بصوت منهك لمدير مكتبه:

- دعه يدخل..

جلس النقيب شريف بعد أن أعاد ترتيب أوراق تقريره بعناية شديدة للمرة الثالثة تحسبًا لأي أسئلة مفاجئة من رئيسه الذي أعاد ظهره إلى الوراء في استرخاء ثم تثاءب في كسل وكأنه سيستمع لقصة رتيبة تُعينه على النوم في هدوء بعد أن بات يجافي عيونه في الفترة الأخيرة عقب ازدهار نشاط تجار الآثار بصورة ملحوظة دفعت منظمة اليونسكو إلى وضع مصر على قائمة سوداء باعتبارها من أكثر الدول التي تُفرط في حضارتها عمدًا..!!

أشار اللواء عبد اللطيف بطرف عينه للنقيب شريف بما يعني البدء في تلاوة التقرير.

اعتدل شريف في جلسته كزاوية قائمة وقال:

- على ضوء تعليمات السيد وزير الداخلية وتوجيهات معاليك ومن خلال المصادر السرية والتحريات المكثفة لتوجيه عدة ضربات متلاحقة لتجار الآثار فقد تبين أن أكبر عائلتين لتجارة القطع الأثرية المسروقة في مصر الآن هما عائلتا الناجي والشافعي.. وكما تعلم سيادتك فقد تم القبض على ثلاثة من كبار رؤوس عائلة الناجي على مدار الأشهر الثلاثة الأخيرة وحاليا تتم محاكمتهم أما عائلة الشافعي الكبير حسبما يطلق عليه التجار في السوق فهي.....

قاطعه اللواء أنور:

- هل هذا الشافعي هو الذي لديه مخزن بالنزلة وحانوت للعاديات بشارع طلعت حرب؟

رد النقيب شريف في حسم:

- تمام يا فندم ولكن المخزن باسم شركة لبنانية لتجارة الأخشاب..!

وعائلة الشافعي لا يظهر لنا منها من خلال المراقبات والتحريات سوى الشافعي الكبير نفسه. وهو يعتبر مؤسس تجارة العاديات في مصر منذ بداية الأربعينيات وكان قبلها يعمل وهو شاب صغير مع بعثة إنجليزية بالأقصر أو ما شابه ذلك وقت اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون وكان وقتها أحد صبيان عائلة عبد الرسول التي تعمل في التنقيب وخفارة الآثار هناك وكل تجار الآثار الحاليين خرجوا من عباءة الشافعي الكبير فهو إمامهم في هذا المجال.!!

تململ اللواء أنور قليلًا من التفاصيل فشعر النقيب ببعض الحرج فتجاوزه برفع نبرة صوته قليلًا وهو يضيف:

- كان الشافعي الكبير يعتمد على نجله طلال بالإضافة لمساعد يدعى سعيد الخضري وهو حاليًا يقضي عقوبة عشر سنوات سجنًا بعد أن ضُبط بميناء الإسكندرية يُهرب مومياوات ولكنه لم يعترف على الشافعي.. وبعدها ظهر شخص آخر يدعى توفيق إبراهيم المحلاوي وكان قد سبق ضبطه في قضية تقليد تمثال من مقتنيات كلية الفنون الجميلة ولكنه.....

في ضيق قاطعه اللواء أنور:

- أنا أعرف قصة توفيق المحلاوي وقبضت عليه بنفسي منذ سنوات، ادخل في الموضوع أكثر يا شريف..

تلألأت حبتا عرق على جبهة شريف وشعر بسخونة أذنيه وهو يسترسل قافزًا بعض السطور بعينيه بسرعة محاولًا الاختصار:

- في الآونة الأخيرة ظهر على مسرح الجريمة شخص يُدعى ماهر السوهاجي ولكن التحريات لم تحسم أمره تمامًا ولم نتوصل لطبيعة دوره رغم أنه أرشدنا عن تجار صغار من قبل ولكنه مريب للغاية وكثير السفر للخارج. بعض المصادر ترجح أنه أصبح الذراع اليمنى للشافعي بعد أن تركه نجله طلال وافتتح معرضًا لتجارة السيارات بباب اللوق.. وهناك أيضًا شخص لبناني الجنسية يدعى مراد.....

لم يستطع شريف الصمود في تلاوة تقريره التفصيلي أكثر من ذلك. كان اللواء أنور قد قطب جبينه وضاق ذرعًا به فقال في حدة:

- هل يعقل ألا يتم ضبط أيٍّ من هؤلاء.. الشافعي والشامي والسوهاجي متلبسين حتى الآن؟! ما الذي أسفر عنه تسجيل المحادثات الهاتفية؟

أجابه النقيب أبو النجا في إحباط واضح:

- لا شيء على الإطلاق إنهم في منتهى الحرص تقريبًا..

استوقفت كلمة «تقريبا» اللواء عبد اللطيف وجذبت انتباهه:

- ماذا تعني بـ«تقريبا»؟

ارتسمت الحيرة على وجه شريف وهو يجيبه:

- هم يتحدثون دائمًا عن منتجات خان الخليلي وعاديات مشروعة ولكننا رصدنا في نهاية بعض المحادثات عبارة تتكرر دائمًا ولم نفهم المقصود بها حتى الآن ولم تدلنا المصادر عليها ويستخدمها الشافعي الكبير مع توفيق المحلاوي فقط ولم تظهر إلا من فترة قريبة وفقًا لملفات المتابعة حيث ينُهي الشافعي الكبير المحادثة بها وهو يرد عليه دون مناقشة قائلًا: على بركة الله!! ثم لا شيء بعد ذلك..

في لهفة سأله اللواء عبد اللطيف وهو يترقب الإجابة:

- وما هي تلك العبارة؟!

كف مريم..!!

***

قطع رنين الهاتف الذي يقبع بالقرب من حافة المكتب الخشبي بمخزن الهرم الصمت الذي كان يلف المكان بينما توفيق وبعض صبيان الشافعي يعملون بهمة في تغليف تمثال ضخم للإله سخمت من البازلت الأسود ويزن أكثر من مائتي كيلوجرام على شكل نصف لبؤة تضع تاجًا على رأسها..

عندما رفع الشافعي سماعة الهاتف كان منصور الطيب على الطرف الآخر يتحدث بصعوبة وبصوت مخنوق طالبًا الحديث مع ماهر السوهاجي.. تبادل معه الشافعي التحية وسأله عن أحواله في العمل مع طلال بمعرض السيارات الجديد والذي كان منصور بعد أن حصل على شهادته الجامعية يتولى أمر حساباته المالية ويخبر بها الشافعي تباعًا ليقيلهم من عثراتهم المالية.. فجأة تبدلت ملامح الشافعي الكبير وبدت أقرب إلى الانزعاج.. أنصت مرة أخرى لحديث من منصور الطيب ثم ناول سماعة الهاتف لماهر وهو يقول بصوت رخيم:

البقاء لله.

بعد نحو نصف ساعة كان الخولي جلال ومنصور الطيب يلتقيان ماهر على أحد المقاهي القريبة من مخزن الهرم بنزلة السمان وقد اغرورقت عيناهما بالدموع خاصة عندما روى له جلال كيف ماتت الخالة نظيمة بعد أن غابت كثيرًا عن مكانها المعتاد وتنقلت بمساعدة المتطوعين بين قرى مجاورة تتسول طعامها من المارة وأهل الخير وتُبيت ليلتها في الطرقات حتى بلغ بها شظف العيش أشده فكانت تأكل

أحيانًا من صناديق القمامة.. ولما ماتت لم تجد من يدفنها وتُركت على قارعة الطريق ليلة كاملة بالقرب من أحد الحقول الملاصقة للسوق التي كانت تبيع فيها بضاعتها الهزيلة..

أردف جلال بصوت متحشرج:

- كانت في طريق العودة لزاوية كاظم فيما يبدو ولكنها لم تُكمل رحلتها فقد أدركتها النهاية فتُركت على حالها في العراء ساعات طويلة حتى نهشت الكلاب الضالة أطرافها ولما تعرّف عليها بعض أبناء القرية قاموا بدفنها بعد أن كانت جثتها قد أوشكت على التعفن..

ظل ماهر جامدًا وكأن وجهه منحوت كتمثال من جرانيت صلد فلم يرمش له جفن ولم تسل دموعه رغم أن مقلتيه ابتلتا قليلًا ولكن دموعه ظلت حبيسة حتى جفت وكأنها أبت أن تسيل أبدًا وكأن الرحمة انتزعت من قلبه فلم يعد قادرًا على استدعائها مرة أخرى!!

شعر بالمرارة في فمه فابتلعها وهو يلعن الفقر والعوز كعادته ثم أغمض عينيه وارتاح للتفسير الذي ينفض به المسئولية دائمًا عن كاهله ووخز الضمير الذي يداهم قلبه.. بينما راح الخولي جلال ومنصور يتابعانه في وجوم فبدا لهما وجهه وقد مال إلى السواد وكأن به جانبًا معتمًا طغى على باقي ملامحه..!!

لم يقطع الصمت الحزين سوى دقات متقطعة من بوق سيارة نصف نقل يقودها أحد صبيان الشافعي وهو يُشير إلى ماهر بيده ثم يدق بإصبعه على ساعته لينبهه إلى ضرورة الإسراع بنقل التمثال الذي كان قابعًا بصندوق السيارة الخلفي مغلفًا بقماش داكن سميك وقد شُدت إلى جوانبه الحبال حتى يتحمل الطرق الغير ممهدة من نزلة السمان حتى مخزن سقارة..

صافحهما ماهر في وجوم ودون أن ينطق بكلمة استقل السيارة وغاص في مقعده بجوار سائقها الذي أدارها وغادر في عجالةٍ بينما ظل منصور وجلال ساكنين على مقعديهما بالمقهى يتابعان السيارة وهي تخلف وراءها قدرًا بسيطًا من الغبار والتمثال القابع فوقها يبدو كشبح أسود فانسابت فجأة دموع جلال الخولي بغزارة وكأنها كانت تنتظر تلك الإشارة لتنهمر بعد أن طاف بذاكرته مشهد الخالة نظيمة وهي تستقر بصندوق خلفي لسيارة مماثلة عندما غادرت قريتها بصحبته في رحلتها الأخيرة إلى المجهول منذ بضع سنين فشعر لوهلة بأنها كانت في الأمس القريب.

***

24

السرادق

كان المقرئ يختتم بسورة الرحمن بينما السرادق الصغير المقام أمام مسجد كاظم الجديد بقرية أبار الملك يبدو واسعًا من قلة عدد المعزين فيما كان منصور الطيب والخولي جلال في مقدمة السرادق يقفان كل حين من الوقت لاستقبال من رق قلبه لوفاة الخالة نظيمة فدخل السرادق يترحم على روحها وينقي قلبه بسماع القرآن أو يهبان واقفين تارة ثانية عندما يغادر آخر بعد أن يكون قد أدى واجبه وحان وقت انصرافه..

في ذات التوقيت وعلى بعد مئات الكيلومترات وفي قلب القاهرة تحديدًا بمسجد عمر مكرم كان الشافعي الكبير يتصدر مدخل القاعة الفسيحة التي بدت ضيقة من كثرة الوافدين عليها وتراصهم إلى جوار بعضهم البعض وبجواره يقف نجله طلال يتلقيان العزاء في وفاة زوجة الشافعي الكبير التي وافتها المنية فجأة.. وعلى بعد خطوات قريبة منهما كان ماهر السوهاجي يُقبل من نهاية القاعة مهرولًا ليستقبل من حضر من علية القوم ليجامل الشافعي وأولاده فيصطحبه ماهر في ترحاب وود مصطنع إلى حيث يجلس كبار المعزين في صدارة القاعة من ضباط شرطة إلى مسئولين سابقين وكبار التجار وبعض المسئولين الحاليين الذي انفتحوا على القطاع الخاص في منتصف السبعينيات وبدأت شبكة العلاقات بين الثروة والسلطة تنسج أولى خيوطها على استحياء..!

خفتت أنوار القاعة بالتدريج حتى أظلمت تمامًا وبدا الشافعي وطلال وماهر وتوفيق ومراد الشامي كأشباح واقفة من بعيد أمامها بعد أن انصرف الجميع.. تحرك الشافعي الكبير نحو سيارته وهو يستند على رسغ ماهر حتى استقلا السيارة معًا ومضت بهما تشق قلب القاهرة باتجاه العوامة على نيل الكيت كات والتي أمر ماهر أحد الصبيان بأن يسبقهما إليها لتكون مستعدة بأبخرة المزاج في استقبالهما كي يُخرج الشافعي من همومه ولا يستسلم لها وتركا خلفهما الشامي وطلال وتوفيق بعد أن بذرا بنفوسهم بذرة مؤامرة أوشكت على النضوج واقترب وقت قطافها من جراء استحواذ السوهاجي على كبيرهم..

لم يأت..! قالها الخولي جلال بنبرة مغلفة بالأسى..

رد منصور بصوت يغلب عليه الحنق والضيق:

كنت أعلم أنه لن يأتي فقد قطع جذوره وحرق سفنه خلفه منذ أن غادر هذا المكان..

لم يكن هناك سواهما وخادم المسجد فحملا مقعديهما وأدخلاهما إلى أحد أركان الزاوية وانصرفا وبعد برهة طواهما ظلام الحقول.

***

نظر ماهر في ساعة يده للمرة الثانية ثم أعاد النظر إلى باب الدخول فلم تقع عيناه على من ينتظر ظهوره فانشغل مرة أخرى بالحديث مع مراد الشامي الجالس إلى جواره على مائدة الشافعي الكبير الذي يتوسطهما بينما يحتل باقي المقاعد رجل أمريكي اشترى حاوية كاملة سيتم شحنها خلال أيام إلى بيروت وسيدتان من الناحية المقابلة للشافعي إحداهما كانت زوجة الشامي والثانية أتى بها لتؤنس وحدة الشافعي الكبير وتجالسه بعد مرور ثلاثة أشهر على وفاة زوجته إلا أنه لم يعرها اهتمامًا فقد كانت رغم أنوثتها

البادية من ملابسها الضيقة إلا أنها قد تجاوزت الخامسة والأربعين وقاربت على الخمسين فلم ترق له كثيرًا..

مع الدقات الشهيرة المتتالية لنغم يُبهج الفؤاد ويثير العواطف حتى تصير جياشة لرائعة أم كلثوم ألف ليلة وليلة والتي بدأت الفرقة الموسيقية في عزفها تمهيدًا لظهور الراقصة الشهيرة سهير زكي على المسرح الصغير الذي يتوسط الملهى الليلي بلفدير بفندق النيل هيلتون.. كان ماهر يطيل النظر صوب المدخل فقد شاهد تلك الفقرة أكثر من عشر مرات سابقة ولم تعد تغريه مثلما كانت في المرات الأولى.. طافت ناجية بمخيلته.. تذكر أول مرة عندما رآها هنا في ذات المكان عندما استجاب الشافعي لنصيحته واصطحبها معه في إحدى سهراته لكي تكون تحت بصره دائمًا.. مرتان حضرت واليوم هي الثالثة وفي كل مرة لم يكن يتجاذب معها أطراف الحديث بحرية بسبب والدها أو ضيوفه.. هز رأسه في رفق وهو يحدث نفسه قائلًا: لا.. لا.. بل هناك حاجز نفسي خلاف الحاجز البشري بيني وبينها ويجب عليَّ أن أكسره اليوم..

جز على أسنانه وهو يعيد الجملة على مسامعه وكأنه ممثل يتأكد من حفظه لدوره الذي سيؤديه بعد دقائق أمام البطلة ..!

هندم ملابسه وبدأ يستعد لقدومها وهو يبث الثقة في نفسه فقد صار له وضع مميز لدى والدها كما تغيرت هيئته تمامًا عن تلك التي شاهدته عليها أول مرة فالآن يرتدي ثيابًا فاخرة عصرية.. وشعره أكثر تهذيبًا وطريقته في الحديث باتت أقرب لأهل المدن ولكن بقيت معه طريقته المقززة في تناول الطعام فلم يقو على التخلص منها وإن كان يحرص على مداراتها بتعلله بالشبع دائمًا حتى لا تنفر منه..!

مرت لحظات بطيئة وكأنها على موعد مع أطياف خياله فقد ظهرت ناجية فجأة عند المدخل أطلت بإشراقتها المميزة والابتسامة الخفيفة التي لا تفارق شفتيها وكأنها التصقت بهما دوما.. ظلت تبحث بعينيها عن مائدة والدها فأشار لها ماهر بكفه في جذل فتحركت نحوه والابتسامة تزيدها إشراقًا.. هب واقفًا وهو يعيد ترتيب هندامه للمرة الثانية.. حلته الزراقاء الداكنة وقميصه الفاتح بلون السماء ورابطة عنقه العريضة ذات اللون الأزرق الزهري والورود الحمراء الكبيرة التي تزينها بعد أن تحررت من بين أنامله كأس الماء التي كان يرتشف منها كل حين عندما يُصر مراد على تبادل الأنخاب معه فلم يكن ماهر يحتسي الخمر ولم يشأ حتى أن يجربها مكتفيًا بجلسات الحشيش التي صارت مقررًا يوميًّا منذ فترة طويلة بعوامة الشافعي الكبير حيث يرتدي جلبابًا فضفاضًا يشعر معه بالرحرحة فلم يكن يناسبه غير هذا المناخ وتلك الطقوس التي تذهب به إلى عوالم بعيدة يجد ذاته فيها.. أما تلك السهرات فلم ترق له أبدًا ولكنه تحملها للقاء ناجية والتقرب منها..

قام من مكانه محييًا إياها ثم أجلسها بجواره لتبادل أطراف حديث مؤجل وحتى يحصل على هدنة من ثرثرة مراد الشامي وذكريات الشافعي الكبير التي مل من كثرة تكرارها كما آثر الهروب من هواجس باتت تنتابه كل فترة كلما وردت سيرة عائلة الناجي التي لقي ثلاثة منهم حتى الآن مصيرًا مظلمًا في غياهب السجون بتهمة تهريب آثار خارج البلاد أحدهم كان الناجي الكبير شخصيًّا.. خيم شبح السجن للحظات فوق رأسه ونقر طائر القلق صدره فتبدلت سحنته وبدأت هواجسه تلقي بظلالها على وجهه فلم يخرجه من براثنها إلا عطر ناجية الذي تسلل إلى أنفه بهدوء فجذبه إليها أكثر وهي تسأله بأنوثتها الطاغية رغم أنها لم تكن على قدر كبير من الجمال:

- ماذا بك هل تشعر بتعب؟

ابتسم لها وهو يكاد ينطق بأن كل أوجاعه قد زالت وانحسرت مع نبرات صوتها.. خذلته جرأته المعتادة تلك المرة فاكتفى بابتسامته العريضة ليطمئنها ثم مضيا يتابعان العرض الراقص في استمتاع.

***

كان النقيب شريف أبو النجا يسرع الخطى بديوان الوزارة وفي يده أوراق كثيرة داخل ملف من الكرتون المقوى أبيض اللون يحمل شعار وزارة الداخلية.. وقف أمام باب المكتب وهندم بدلته الرسمية ثم طرق طرقتين خفيفتين ودخل مكتب اللواء أنور عبد اللطيف حيث أدى التحية العسكرية في انضباط شديد وجلس كزاوية قائمة بعد أن أشار له اللواء بالجلوس..

بادر شريف بالحديث ليشق ستائر الصمت المسدلة منذ برهة:

- خير يا فندم؟!

زفر اللواء عبد اللطيف في ضيق:

- من أين يأتي الخير يا شريف والبلد حالها يقلق هكذا..

صمت شريف فقد كان يعرف أن اللواء عبد اللطيف عائد لتوه من لقاء مع وزير الداخلية ومساعديه وربما يكون قد ناله بعض التوبيخ فآثر السكوت فالمعرفة من الأفضل أن تكون دائمًا على قدر الحاجة خاصة أن حركة الشرطة على الأبواب وهو لا يرغب في نقلة مفاجئة لأحد النجوع بعدما استقر لعامين بشرطة السياحة والآثار بإدارتها العامة بالقاهرة ولا يزال يرغب في المزيد.

أردف اللواء قائلًا:

- السيد الوزير تحدث اليوم في أمور كثيرة بعضها لا يخص عملنا بصورة مباشرة وإنما كان المعني به المباحث العامة بالدرجة الأولى ولكنها مؤشرات تنبئ بقلق وتشي بصدام على وشك الحدوث.

ظهرت أمارات الدهشة على وجه شريف وهو يتابع الحديث بشغف وينتظر البقية في لهفة.

- منذ أن أفرج الرئيس السادات عن الكثيرين ممن ينتمون للتيار الديني لتقويض الشيوعيين والناصريين أعطاهم حريات كثيرة بل وغير مسبوقة بعدما نكل بهم الرئيس عبد الناصر.. إلا أنهم بدأوا ينقلبون عليه ويعملون لصالح التيار الذي ينتمون إليه لتقويته وتدعيمه بعناصر جديدة ويبدو أنهم يريدون أن يحكموا قبضتهم على مقاليد الأمور رويدًا رويدًا وكأنهم يقبضون على ثمرة ويعتصرونها ببطء حتى لا تبدو جافة ذابلة فجأة في أعين من يتابعهم فيتنبه لما يفعلونه.

تنهد اللواء بضيق وكأنه يزيح حجرًا جثم على صدره وهو يضيف:

تقارير مدير المباحث العامة لا تبشر بالخير. وعلى الجانب الآخر تيار اليسار يتحرك بجرأة كعادته والتخوف الآن من وقوع مصادمات وشيكة.. هكذا تقول التقارير..

قالها وكأنه يحاول طمأنة نفسه بأنها مازالت كلمات على ورق ربما لا تظهر على أرض الواقع ثم تغيرت ملامحه فبدت أكثر صرامة وهو يسأل النقيب شريف:

- لقد وعدت وزير الداخلية اليوم بإنهاء إمبراطورية الشافعي خلال شهر واحد.. ما الجديد لديك؟

أجابه شريف في ثقة:

- مصادرنا أكدت أن الخطابات المجهولة التي تصلنا تباعًا عن دور ماهر السوهاجي في تجارة الآثار مصدرها شخص واحد.. هو طلال الشافعي.

اتسعت عينا اللواء معبرة عن دهشته فأردف شريف دون أن يحيد عن جديته:

- نعم.. فهو وفقًا للتحريات الدقيقة لم يكن على وفاق معه وهو السبب في تركه العمل مع والده واتجاهه لمشاركة أحد الأشخاص في تجارة السيارات وهو فيما يبدو يحاول إرشادنا للقبض على ماهر بدون أن

يظهر في الصورة وفي ذات الوقت يستبعد أي دور للشافعي الكبير في تجارة الآثار وهو أمر مفهوم بالطبع بحكم العلاقة بينهما..

اهتم اللواء أنور بالمعلومات وقام من مكتبه مقتربًا من شريف الذي شرع في النهوض بدوره فربت على كتفه لكي يظل جالسًا وهو يحدثه:

- إذن نحن على أعتاب ضبط ماهر متلبسًا؟ ولكن أليس ماهر مرشدًا لنا؟!

عاد الإحباط يغزو ملامح النقيب بغزارة وكأنه كان ينتظر تلك العبارة ليبزغ فجأة على وجهه:

نعم ولكنه في الآونة الأخيرة يتعمد تضليلنا ولا نملك دليلًا ضده.

للأسف رغم أن طلال يعطينا معلومات كثيرة عن القطع الأثرية ومصدرها إلا أن ميعاد التسليم وطريقة التهريب يبدو أنهما غير معلومين له ونحن بدورنا نكثف التحريات والمراقبات وفقا لما يرد إلينا من مصادرنا السرية وعلى ضوء مضمون خطاباته ولكن دائمًا التوقيت يكون خاطئًا وكلما راقبنا من يتلقى عبارة كف مريم من الشافعي الكبير تكون العملية قد انتهت فيما يبدو بواسطة آخرين غيرهم.. دائما ما نكون متأخرين..

قالها وهو يهز رأسه في أسى..!

عقد اللواء أنور كفيه خلف ظهره وهو يسير في مكتبه رائحًا وغاديًا ثم توقف فجأة سائلًا شريف:

- وهل عرفتم ماذا تعني كف مريم؟

هز شريف رأسه بالنفى..

عاد اللواء يقول وكأنه يسأل نفسه تلك المرة:

- وماذا تعني هذه العبارة أصلًا؟

أجابه شريف في سرعة:

- مجرد نوع من النبات ينمو بعد سقوط الأمطار في الخريف ومع بداية الشتاء في الأماكن ذات التربة الطمييية.. وعندما تموت النباتات تلتف الأفرع إلى أعلى لتكون على شكل كرة تشبه قبضة اليد المغلقة بإحكام..

نظر إليه اللواء عبد اللطيف شاردًا وكأنه لم يفهم شيئًا مما قاله.. ماله هو ومال هذه المعلومات التفصيلية عن النباتات.. فاستشاط غضبًا وصب جام غضبه على النقيب شريف قائلًا:

- نحن لا نحقق في جريمة خاصة بالبيئة يا سيادة النقيب ولو كنت تجمع معلومات مماثلة عن السوهاجي والشافعي مثلما جمعتها عن نبات كف مريم هذا لكنا قد انتهينا من هذا الملف.. أمامك أسبوعان فقط من الآن وأريد قضية متكاملة هل فهمت؟ وتعامل مع ماهر على أنه مجرم لا مرشد.

هب الضابط شريف من مقعده وهو يردد على مسامع اللواء عبارة «تمام يا فندم» مرتين حتى غادر حجرة مكتبه وهو ينعي حظه العاثر الذي أوقعه في قبضة هذا النبات المسمى كف مريم فزاده حيرة..

***

25

الحـادث

كانت ناجية ودودة معه ولكنها لم تبد له إعجابًا وإنما من داخلها بدأت تشعر بأنه مختلف عن الآخرين ممن تراهم في مجتمعها.. وجدت به ما يجذبها دون أن تعرف هل تأنس بصحبته أم أنها تنجذب برفق دون أن تدري.. كانت ترى في اختلافه عن الآخرين ما يشدها إليه.. حديثه وهيئته وتعبيرات وجهه واعتزازه بنفسه وحبه لعمله وإخلاصه فيه حسبما يروي لها أبوها.. وجدت فيه وسامة ظاهرة وخشونة رجل تفتقدها فيمن حولها .. كانت تحاول أن تتفادى نظرة عينيه الثاقبتين فقد كان يسيطر عليها دائما شعور بأنه يخترقها اختراقا من خلالهما.. حاولت كثيرًا طرد هذا الهاجس من خيالها خاصة بعدما عرفت أنه أصغر منها بعام وأن بيئته مختلفة تمامًا عنها إلا أنها كلما ابتعدت كانت تعود بعمق أكثر وكأنها تحاول في كل مرة أن تعوض ما فاتها منه..! فترسخ وجوده في وجدانها دون أن تشعر..

مضت السهرة تلك المرة بملهى بلفدير هادئة.. لم يعكر صفوها شيء حتى قررت ناجية فجأة أن تنصرف وكأنها شعرت بدنو سقوطها في براثن ماهر فآثرت الابتعاد لتلتقط أنفاسها فاستأذنت بحجة إصابتها بدوار خفيف وهمت بالانصراف إلا أن الشافعي الكبير فاجأها بدوره بأن طلب من ماهر أن يوصلها حتى المنزل فرقص قلبه طربًا ولم يعطها فرصة للتفكير بل حثها على الانصراف حتى كاد يدفعها بيديه دفعًا وهما يغادران الملهى كي لا تتراجع مرة أخرى.

عندما جلست بجواره في سيارتها الحمراء المكشوفة ابتسم في خجل وهي تنبهه إلى ضرورة وضع عصا القيادة في وضعية الاستعداد حتى لا تقفز السيارة بهما فجأة إلى الأمام.. ارتبك قليلًا ثم أدار محرك السيارة بصورة خاطئة فأحدث صوتًا عاليًا متحشرجًا وكأنه يئن من ثقل كفه على مفتاح التشغيل..!

نظرت إليه ناجية والابتسامة لا تفارقها:

- لا تشغل نفسك بي كثيرًا.. أستطيع القيادة حتى المنزل وهو قريب من هنا.. فأنا أسكن في حي الزمالك.

كان ماهر قد بدأ يتحرك بالسيارة فلم يعر محاولتها المغلفة باللطف لإثنائه عن القيادة التفاتًا.. ولكنه لم يستطع أن يرفع قدميه بصورة متوازنة من على بدالات القيادة فعلا صوت المحرك أكثر وبدت السيارة كدجاجة تصيح وتقفز أمتارًا قليلة للأمام كل برهة وكأن هناك ما يفزعها فجأة.. عادت ناجية تسأله بعد أن خفتت ابتسامتها وبدأ القلق يغزو ملامحها من جراء قيادته المتقطعة والتي بدأت تصيبها بالخوف:

- هل أنت واثق من أنك تجيد قيادة السيارات يا ماهر؟

أجابها بصوت عال حتى تسمعه بعد أن كاد صوت المحرك يغطى على حديثه وهو مطبق على المقود بكلتا يديه وكأنه يخشى عليه من الهرب:

- في الحقيقة إنها المرة الأولى.. فأنا معتاد على قيادة جرار زراعي فقط!!

لم تتمالك ناجية نفسها فأطلقت ضحكة عالية ثم اقتربت منه قليلًا ومالت عليه بكتفها الأيسر وهي توجه مقود السيارة بكفيها ناحية اليمين ثم طلبت منه إيقاف السيارة من البدال الأوسط فهبط عليها بقدمه الثقيلة

بقوة فتوقفت السيارة وكأن حركتها قد شلت فجأة فاصطدمت ناجية بالمقود وارتجت حتى استقرت على صدره وصارت رأسها بمحازاة كتفه العريض فاحتواها برفق وهما لا يكفان عن الضحك..

تبادلا المواقع فقادت ناجية السيارة بسلاسة بعد أن أدارت جهاز التسجيل فانبعث منه موسيقى فيروز ناعمة تضفي ظلالًا من رومانسية مفتقدة على الأقل لديها في حين ظل ماهر ينظر إليها بإعجاب دون أن يُحيد بصره عنها طوال الطريق متحدثًا عن بلدتهم وقيادته للجرار الزراعي بأرض كاظم باشا وهو صغيرٍ وهي لا تكف عن الابتسام وبالطبع أخفى عنها كل الجوانب المظلمة في حياته حتى تبدو أكثر إشراقًا..

عقب اجتيازها كوبري قصر النيل وانحرافها يمينًا إلى منطقة الزمالك ظهر صبي عابرًا فجأة أمام السيارة وكأن الأرض قد انشقت عنه بعد أن أفلت من يد أمه التي كانت تحمل صغيرًا على كتفها وتعتني ببصرها بفتاة تبدو أكبر قليلًا إلى يمينها..

لم تستطع ناجية حتى أن تتوقف فصدمته أولًا ثم حملته على مقدمة سيارتها لمسافة ثم أطاحت به عدة أمتار للأمام حتى هوى مضرجًا في دمائه عندما توقفت العربة فجأة.. سرعان ما علا صوت صراخ الأم فنزلا من السيارة فزعين وكأنهما هبطا من عالم حالم إلى واقع أليم.. لحظات مرت بطيئة عليهما حتى كان عشرات الشهود المتطوعين في مثل هذه الحالات يحيطون بهما وتعالت أصوات غاضبة بعضها يردد العبارات المعتادة كلما صدمت سيارة طفلًا: السرعة هي السبب.. اتقوا الله في خلق الله.. من المؤكد أن الطفل مات..!

دقائق أخرى مرت ببطء أشد قبل أن يقوما بنقله إلى السيارة بعد حضور أمين شرطة من النقطة القريبة ركب السيارة بصحبتهما لنقل الطفل إلى أقرب مستشفى وهناك بدأ أمين الشرطة في تدوين محضره في حين كان أحد الأطباء يجري إسعافات للمصاب وسط دعوات أهله.. رفع الأمين رأسه ورمق ناجية بنظرة متعجرفة قائلًا:

- أين رخصة القيادة وبطاقتك الشخصية؟ وقبل أن تنطق بحرف واحد كان ماهر يتقدم خطوة للأمام بجرأة واضحة قائلًا بحسم:

أنا الذي كان يقود السيارة ولا أحمل رخصة قيادة..!!

***

26

المايسترو

وقف النقيب شريف في وضع الاستعداد ثم ضبط كعب البندقية عند التقاء كتفه مع صدره حتى احتواه تمامًا وكتم أنفاسه للحظات ثم طرق الزناد مرتين متتاليتين فانشطر الطبق الطائر أمامه إلى نصفين.

أنزل البندقية بهدوء بعد أن فتح مزلاج ماسورتها فتصاعدت أبخرة دخان البارود عقب تطاير الخرطوشتين الفارغتين ثم نظر إلى العقيد هشام فتحي ضابط المباحث العامة الذي ابتسم له مشيرًا بعلامة النصر وأخذ هو الآخر وضع الاستعداد فقد حان دوره في الرماية.. كان مشتت الفكر مهمومًا مجهدًا فرأى الهدف متكررًا فصوب طلقته على ما وقعت عليه عيناه أولًا فأخفق!

عندما فرغا من إشباع هوايتهما بنادي الصيد بالدقي جلسا يتناولان مشروبًا مثلجًا ويتجاذبان أطراف حديث طويل فقد مضت فترة لم يجمعهما لقاء لانشغالهما بالعمل..

- أنا لديّ العذر فالعمل في المباحث العامة يجعلك لا تعرف الليل من النهار بل أحيانًا أخطئ في معرفة اليوم أما أنت فما هي حجتك؟ سائحون أجانب ومتاحف ومناطق أثرية وشواطئ.. أنا لا أحسدك على أي حال.. قالها العقيد هشام وهو يضحك..

ابتسم شريف أبوالنجا وهو يجيبه:

- الصورة ليست وردية كما تظن فنحن مضغوطون بصورة غير مسبوقة هذه الأيام فتجارة الآثار على أشدها وهناك رجل كالزئبق لم يضبط من قبل ويبدو أن الأمر سيصير مستحيلًا.. ولكن طمئني أولًا على أحوال البلد..

قال عبارته الأخيرة ثم روى له الحديث الذي دار بين اللواء عبد اللطيف ووزير الداخلية..

تنهد العقيد هشام وشرد قليلًا وهو يقول:

- نعم الوضع غير مستقر الآن ولكن منذ متى وهو مستقر؟! هناك دائمًا شد وجذب بين التيار الديني والدولة لدرجة أنني من كثرة التقارير والمتابعة سئمت حتى مجرد الحديث في هذا الأمر ولكن المُقلق أنه عندما أعطاهم السادات الأمان وأخرجهم من السجون خرجت من عباءتهم تيارات متشددة قتلت الشيخ الذهبي وارتكبت حادث الكلية الفنية العسكرية والآن الوضع يغلي في الجامعات بعد أن سيطروا عليها بالكامل تقريبًا واعتدوا على فرق مسرحية وموسيقية بدعوى تحريم الفنون.. الحقيقة أن أكثر ما يقلقني أنهم منظمون ويبدأون دائمًا من القاعدة بصبر غريب على أمل أن يصلوا للقمة ولو بعد مائة عام.. لديهم عقيدة قوية صعب أن تفتتها وهم يتغلغلون في المجتمع دون أن نشعر فصورة رجل الدين الطيب تجد استجابة لدى الكثيرين خاصة البسطاء.. والتعليمات الرئاسية تأتينا دائمًا بأن يكون التعامل معهم برفق بعد أن قدموا قرابين كثيرة نالت رضا النظام فاقتنع بأنهم الثعبان الذي سيبلع كل ثعابين الشيوعيين.. مع أن من يتوسل بالدين سيطمع في السلطة بالتأكيد..!

لم يكن النقيب شريف على دراية بأصول التيار الديني ونشأته وكانت قراءاته في هذا الأمر لا تتعدى

الجرائد الثلاث وبعض أحاديث متناثرة من ضابط زميله وأحد أقربائه ممن عاصروا بدايات عصر عبد الناصر وصدامه مع جماعة الإخوان المسلمين وكان شريف يظن أنهم التيار الديني الوحيد الموجود على الساحة وبالتالي كانت آراء العقيد هشام فتحي بالنسبة له مصدر ثقة فلم يقو على مجادلته بسبب ضحالة معلوماته..

عاد العقيد يقول له وابتسامة استنكار لا تزال تطل من بين شفتيه وكأنها تسمرت عليهما:

- المشكلة يا شريف أن المواطن البسيط يتقبلهم فمن الذي سيعارض كلام الله ورسوله؟ إنهم يحدثونهم في أمور الدين التي لا نعرف أنا وأنت عنها إلا القشور فما بالك بالبسطاء والجهلاء؟! وبالتالي لا يجدون مقاومة ويبدأون بعدها في بث أفكار التكفير في هدوء بعد أن يكون عقل المتلقي بات أرضًا خصبة لأي فكرة فتنمو وتكبر.. نحن لدينا قنابل موقوتة تعيش بيننا لا نعلم متى تنفجر وفي وجه من أولًا؟ وأخطرها من وجهة نظري هو نجمهم الصاعد الشيخ صادق عبد الحق ورغم صغر سنه فلديه أنصار بالآلاف يتزايد عددهم كل يوم حتى أنني أشك أن أتباعه صاروا أكثر من مشجعي النادي الأهلي..! ولو عرفته على حقيقته مثلما يتكشف لنا من التسجيلات والمراقبات لعلمت أنه أفاق ليس لديه من اسمه نصيب فلا هو صادق ولم يتبع الحق أبدًا..!

انزعج شريف أبو النجا وسأله في براءة:

- ولكني أعرف أن جماعة الإخوان المسلمين قد توقفت تمامًا عن انتهاج العنف منذ نحو عشرين عامًا وأن الجماعات التي تحدثت عنها الآن لا تنتمي إليها وإنما هي ممن يعتنقون فكر تكفير المجتمع أليس كذلك؟

أجابه هشام وعيناه تلمعان وهو يصوب نظراته الحادة في وجهه:

- هل سبق وأن شاهدت فرقة موسيقية وهي تعزف؟

أومأ شريف برأسه وهو مندهش من رده..

فأردف هشام:

- حسنًا.. هل لاحظت أحيانًا أنه أثناء العزف يتوقف بعض العازفين بإشارة من المايسترو ثم يبدأ فاصل عزف منفرد لعازف الكمان مثلًا.. وأحيانا لعازف الناي وهكذا إلى أن تعود الفرقة للعزف بعدها بكامل طاقتها..

ثم سكت لبرهة وأضاف:

- ولكن دائما ستجد أن المايسترو هو من ينال الجانب الأكبر من التصفيق في نهاية الحفل!

بدا على ملامح شريف أنه لم يستوعب الفكرة فأطلت من عينيه نظرة حائرة تحث العقيد هشام على المزيد فلم يبخل به عليه قائلًا:

- مثلما يُشير المايسترو للفرقة كي تعزف بكامل طاقتها فهو يشُير بيده أيضًا لأحدهم بأن يعزف منفردًا ثم يتبعه آخر.. هذا يا عزيزي هو ما يحدث على أرض الواقع فمجوعة تذهب للمناطق العشوائية توطد صلتها بأهلها وساكنيها.. تعاونهم وتساعدهم بمواد تموينية أو بملابس مستعملة أو بملازم دراسية توفيرًا لثمن الكتب وغير ذلك كثير أما إذا كانت الفئة المستهدفة شبابًا من الجامعات فهنا يتدخل المايسترو ليوجه فريقًا آخر يتحدث عن الحلال والحرام ومظهر الشخص المسلم ثم فكرة الحاكمية والجهاد ثم تكفير الحاكم الذي لا يحكم بشرع الله والآيات القرآنية المقتطعة من سياقها كثيرة ومحفوظة من كثرة

تكرارها.. وهكذا إلى أن نصل لفكرة الجهاد والتغيير تمهيدًا للتمكين وإقامة دولة الخلافة وهي أفكار تتطلب من المايسترو تركيزًا شديدًا عند انتقاء العازفين المناسبين لهذا اللحن المشئوم بعناية فائقة.. ابحث دائمًا عن المايسترو فهو المحرك الرئيسي لجميع أفراد الفرقة..

قال جملته الأخيرة وهو يقدم له كأسًا أخرى من عصير الليمون البارد ليهدئ أعصابه..!

***

27

نرجس

- من حسن حظك أن الطفل لم يمت وإصاباته بسيطة سنفرج عنك بكفالة مالية مؤقتًا لحين المحاكمة..

قالها وكيل النيابة ثم وقع قرار الإفراج عن ماهر السوهاجي من ديوان القسم..

في المساء كان ماهر متواجدًا بعوامة الكيت كات حيث كان الشافعي الكبير قد أعد له احتفالًا يليق بمروءته.. كان هناك توفيق ومراد الشامي وبعض صبية الحانوت حتى طلال كان موجودًا..

أجلسه الشافعي بجواره وهو يربت على ساقه في محبة وود مبديًا إعجابه بشهامته بينما ظل طلال يرمقه بنظرات تطل منها سهام الغيرة بعد أن ارتفعت أسهمه ببورصة الشافعي فصار أقرب المقربين له..

لم تحتمل أعصاب طلال البقاء طويلًا بالعوامة فانصرف مغادرًا وبصحبته مراد الشامي في طريقهما لشاليه صحارى سيتي ورغم أن مراد قد ألح على الشافعي الكبير أن يصحبهما إلى هناك مغريًا إياه بالسيدة اللبنانية التي يرغب في دفعها إلى طريقه بشتى الطرق كي يزوجها له إلا أن الشافعي فضل البقاء في العوامة.. حال مغادرتهما لم يفت طلال أن يعكر صفو الجلسة قبل انصرافه فوجه حديثه لأبيه قائلًا:

- كان يجب عليك أن تطلب منه فيشًا وتشبيهًا قبل أن يعمل لدينا فاليوم اكتشفنا أن لديه سابقة في قضية دعارة وما خفي كان أعظم..

امتعض وجه ماهر قليلًا ولكنه سرعان ما ابتلع الإهانة واستعاد توازنه بعد أن أيقن بأن المحامي الذي أرسله الشافعي لابد وأن يكون قد وقف على تلك السابقة أثناء إجراءات الإفراج عنه رغم أن نرجس أخبرته بحصوله على البراءة غيابيًا منها بينما أدينت زبيدة ورجالها وبعض النسوة ممن ضبطن متلبسات بالحبس ستة أشهر.. ولكن لا تزال تلك البقعة السوداء عالقة بثوبه في ملفات الشرطة..

ظل توفيق واقفًا في تربص يلوك الخلة بأسنانه وهو يتفحص وجه ماهر عقب استفسار الشافعي الكبير منه عن تلك السابقة المشينة فقال ماهر:

- لا شيء يا معلم شافعي فالأمر لا يزيد عن أنني كنت أقيم في غرفة بأحد البيوت المشبوهة بإمبابة ولم أكن أعلم بحقيقته وقد تمت تبرئتي من القاضي حتى دون حتى أن أذهب للمحكمة.. لقد كنت مظلومًا وإذا ما أذنت لي سوف أستعين بمحاميك لمحو هذه السابقة من السجلات ورد اعتباري..

هز الشافعي رأسه مرحبًا ومصدقًا وهو يتمتم:

- بكل تأكيد.. الحمد لله أنها كذلك فعندما أخبرني المحامي قلقت كثيرًا ولم أصدق.. والآن دعونا نتحدث فيما هو أهم.. كم قطعة لديك يا توفيق الآن؟

أجابه توفيق:

- أربع عشرة قطعة ولكن أنا أرى أن نتوقف قليلًا عن تقليد القطع المعروضة من التجار وإلا انكشفت اللعبة فقد بدأ الموضوع ينتشر في السوق وأنا أخشى أن.....

قاطعه ماهر بعصبية مفتعلة بعد أن التقط طرف الخيط منه ليقلب المائدة على رأسه:

- أنت غبي بل شديد الغباء..

بهُت توفيق واستنفرت عروق رقبته من حدة ماهر وإهانته له ولم يوقفه في مكانه سوى نظرة حاسمة من الشافعي الكبير الذي التفت إلى ماهر مستفسرًا فأردف قائلًا بذات الحدة:

- نحن عندما طلبنا منه تقليد القطع الصغيرة المعروضة لم نقل له أن يُقلد كل ما يعرض علينا.. هذا أمر أشبه بالانتحار في السوق.. وكأن المريب يكاد يقول خذوني..

ثم تنهد في ضيق وهو يسترسل:

- كان من المفترض أن كل ثلاث أو أربع قطع تقلد واحدة منها فقط على الأكثر بحيث نختار الأعلى قيمة والأغلى ثمنًا حتى لا ينكشف الأمر ويظل التجار في حيرة ويلقون باللوم على الموردين من الحفارين ونباشي القبور..

استحسن الشافعي الحديث فنعت توفيق بالغباء مرة أخرى فزاده حنقًا.. ثم زاد ماهر الطين بلة منتهزًا الفرصة عندما همس للشافعي بأنه يريد الحديث معه على انفراد في أمر خاص ومهم.. فخرج توفيق يجر أذيال الخيبة والضغينة تملأ صدره حتى كاد يفيض كرهًا للسوهاجي..

- هات ما عندك يا ماهر ها قد أصبحنا بمفردنا..

ابتسم ماهر ابتسامة خجلة أتقن صنعها ثم قال بنبرة ودودة للغاية: أي رجل يا معلم شافعي لا يستطيع أن يعيش طويلا بدون امرأة.. يحتاج المرء منا إلى زوجة تشعره برجولته وتؤنس وحدته وترعى طلباته..

ابتسم الشافعي وهو يقاطعه:

- يبدو أنك اخترت أن تُكمل نصف دينك، إذن على بركة الله لا تقلق أبدا فقط اختر وأنا سأتولى كل شيء فأنت تعرف قدرك عندي ومحبتك لديّ..

ألقى ماهر القنبلة على مسامعه بهدوء حتى بدا الشافعي مدهوشًا لوهلة وكأنه فقد النطق عندما قال ماهر:

- لا يا حاج شافعي أنا لا أفكر في نفسي أبدًا قبلك.. أنت أحوالك لا تعجبني منذ وفاة والدة ناجية.. ومراد الشامي يلقي بنسوة في طريقك وهن لا يلقن بك ولا بمقامك.. أنت تحتاج إلى فتاة صغيرة جميلة من أصل طيب تُعيد إليك شبابك وتحسن خدمتك وتكون جارية لك..

أطلت ابتسامة رضا واسعة من ثغر الشافعي ولمعت عيناه امتنانًا بإحساس ماهر نحوه.. كما كان لوقع كلمة جارية على غريزته أثر لطيف وكأنه يوقظها من غفوة طويلة:

- هل تعلم يا ماهر هذه أول مرة يهتم أحد رجالي بشئوني هكذا حتى أولادي لم يفعلوها.. وأنا الذي كنت أظن أنك ترغب في الزواج بينما أنت في الواقع مهموم بأمري بارك الله لي فيك..

أطرق ماهر وجهه بينما قلبه يرقص فرحًا بعد أن شعر أنه احتوى الشافعي الكبير فصار طفلًا صغيرًا طائعًا بين يديه يستطيع توجيهه كيفما يشاء..

- ولكن من هي تلك الفتاة التي ستقبل بالزواج برجل في السبعين من عمره.. أين سنجدها؟ وحتى لو وجدناها فأنا صحتي قد لا تحتمل الزواج من فتاة صغيرة الآن..

طرح الشافعي سؤاله وهو شارد في يأس..

رد ماهر على الفور وكأنه كان ينتظر هذا السؤال على أحر من الجمر:

- نرجس.. نرجس يا معلم شافعي.. قريبتي من أخميم وتقيم هنا في القاهرة بعد وفاة زوجها ولم تتجاوز الثلاثين من عمرها ولكن عندما تراها ستشعر أنها بنت العشرين..

ثم أضاف بنبرة خبيثة ذات مغزى وعيناه تلمعان بشدة:

- وعندما تعاشرها ستعيدك عشرين عامًا أخرى على الأقل للوراء..!!

***

كانت شاردة طوال الطريق.. قابعة في المقعد الأخير بحافلة النقل العام.. ملامح الحزن تكسو وجهها بالكامل وتضفي عليه مسحة من الأسى.. مترددة بين مشاعرها نحوه وطلبه منها مضاجعة عجوز شارف على السبعين من عمره بصورة مؤقتة؟! كيف تشعر بأنها لا تطيق رجلًا غيره وتظهر له ذلك بينما هو يريدها لغيره حتى يكون معها دائمًا!! لم تفهم منطقه وتبريراته لها منذ أسبوعين عندما التقاها ليقنعها بالزواج من الشافعي الكبير.. لم تقو على معارضته عندما أحست من نبرة حديثه بأنها قد تفقده إذا ما رفضت عرضه بإهدائها لرجل آخر.. هل مازالت رخيصة في عينيه لهذه الدرجة حتى بعد أن أظهرت له مشاعرها؟

مطت شفتيها في امتعاض ثم أزاحت زجاج النافذة الصغيرة جانبًا وتركت وجهها يتلقى نسمات الهواء وهي مغمضة عينيها وكأنها لا ترغب في مزيد من التفكير.

ظننتك ستخلف وعدك وستتخلى عني فقد تأخرت عليّ أكثر من أسبوع.. قالتها بنبرة عتاب وهي تدلف من باب شقته وتنزع ملاءتها السوداء التي تلف جسدها.

ابتسم ماهر لنرجس وهو يطوقها بذراعيه ويمطرها بقبلات كثيرة متناثرة على رقبتها وخديها وشفتيها في همجية تنم عن شهوة مكبوتة أطلت فجأة فاستجابت له في لين كعادتها.. كان يعتصرها عصرًا وينهل من جسدها وكأنه لن ينال منها ثانية وهي تبكي في صمت بعد أن باغتتها فجأة لوعة الفراق التي زحفت على صدرها من رحم اللذة والنشوة فأضاعتهما لم تدر بنفسها إلا وهي تتشبث بظهره أكثر حتى أعملت أظافرها فيه بقوة وكأنها تخشى السقوط من علٍ دون أن تدري أنها تنبش في جدار أملس وحتمًا ستنزلق..

ما أن فرغ ماهر منها حتى جلس يدخن بحجرة الصالة الضيقة بشقته بالهرم التي أعطاها له الشافعي الكبير ليقيم بها منذ فترة طويلة قائلًا لها في جدية:

- من الغد ستبدأ مهمتك حسبما اتفقنا سيعطيك الشافعي مهرًا خمسمائة جنيه سأحصل أنا على نصفها.. وهو لن يزعجك كثيرًا فقد تجاوز السبعين بكثير وليس دونها حسبما يدعي وقلبه لن يحتمل المجهود فسيكتفي بملاطفتك ولكن كما أفهمتك أريده سعيدًا مشغولًا بك طوال الوقت بحيث يشتاق للعودة إليك كلما ذهب للعمل.

أومأت نرجس بالإيجاب قائلة بجدية من يحترف مهنته وهي تبتسم في أسى:

- لا تقلق فسعادة الزبون تخصصي..

ابتسم وهو يتأملها أثناء ارتداء ملابسها فتباطأت في خلاعة وكأنها تدعوه بعينيها لمضاجعتها ثانية لعله يتراجع عن فكرته بتزويجها لهذا العجوز فاتسعت ابتسامته وهو يقول:

- انزلي الآن حتى لا تتأخرى على زبيدة وسأمر عليك غدًا بسيارة سوداء كبيرة وسأقف بها قرب المخبز البلدي القريب من ميدان الكيت الكات ولا تنسي من الآن فصاعدًا، أنت قريبتي لأمي وإياك أن تعلم زبيدة شيئًا عن اتفاقنا وإلا.....

لم يكمل جملته فقد لثمت شفتيه بقبلة ثم أردفت في خلاعة استدعتها من أعماقها بسهولة ويسر:

- من ناحيتي لا تقلق ولكن ماذا سأقول لها؟ حصلت على عقد عمل في دولة عربية أم تم نقلي في حركة الشرطة الأخيرة؟!!

ضحك ماهر وضربها بشدة على مؤخرتها قائلًا:

أخبريها بأنك ذاهبة لزيارة أمك المريضة واتركي كل ملابسك ولا تأخذي شيئًا منها معك فلن تحتاجي إليها مرة أخرى.. وهي بدورها لن تتوقف كثيرًا أمام غيابك فلم تستأنف نشاطها بصورة كاملة منذ خروجها من السجن.

- انتاب نرجس بعضًا من قلق بانت ملامحه على وجهها وهي تقول: ولكن زبيدة لن تتركني أبدًا إذا ما عرفت الحقيقة وستطلق رجالها خلفي كالكلاب المسعورة يبحثون عني في كل مكان.. أنت لا تعرفها جيدًا فهي والشر سواء..

احتواها ماهر بوضع يده حول كتفيها وفي ذات الوقت دافعًا إياها في طريق باب الخروج قائلًا بنبرة الواثق التي تبث الطمأنينة في نفس المتلقى:

لا تقلقي أبدًا فكلها أيام قليلة وستعود هي وكلابها من حيث أتت.

***

28

القاهرة ديسمبر 1976

ابتسم ماهر في ارتياح وهو يغوص بجسده في مقعده الواسع بالدرجة الأولى في طريق العودة من سوىسرا عندما تذكر ملامح الدهشة التي اعتلت وجه الخواجة السوىسري رالف وهو يشاهد كم وحجم الآثار المهربة تلك المرة وكيف استولت عليه الحيرة من بعدها عندما استفسر من ماهر عن كيفية إخراجها بهذه السهولة من مصر فأجابه ببسط كفه في وجهه متبادلًا الضحكات مع مراد الشامي ولما لم يفهم الخواجة شيئًا قال له:

- كف مريم..!!

زادت ابتسامته اتساعًا عندما تذكر الحيرة التي قفزت من على وجه الخواجة الذي كان يعرف القليل من اللغة العربية من كثرة تردده على مصر إلى عيني مراد الشامي المرتبك بسبب عدم قدرته على ترجمة معنى تلك العبارة إلى اللغة الفرنسية ..

هبطت الطائرة بميناء القاهرة الجوي حيث أنهى إجراءات دخوله وختم جواز سفره وتلفت في الصالة يمينًا ويسارًا لعل عينه تقع على أحد رجال الشافعي الذين عادة ما يكون أحدهم في انتظاره فلم يجد أيًّا منهم.. حمل حقائبه واستقر لفترة طويلة أمام بوابة الخروج وسائقو التاكسي يتكاثرون حوله كالذباب ولكن لم يظهر أحد من رجال الشافعي.. فاستسلم في النهاية وألقى بنفسه بإحدى سيارات الأجرة في طريقه إلى منزله بشارع الهرم..

عندما اقتربت السيارة من ميدان رمسيس نظر في ساعته كانت لم تتجاوز الثامنة مساءً بعد فطلب من السائق أن يعرج بهما على ميدان طلعت حرب أولًا، فقد قرر المرور على حانوت الشافعي لمعرفة سبب عدم حضور أحد لاستقباله كالمعتاد.

توقفت السيارة أمام الحانوت.. كانت أولى المفاجآت أنه مغلق تمامًا والباب المعدني الأخضر الداكن منزلق ومُحكم من أسفل بقفل ضخم يلمع على أنوار أعمدة إضاءة الميدان..

وقبل أن يأمر السائق بالتحرك مرة أخرى داهمت المفاجأة الثانية عينيه.. كانت عبارة عن ورقة بيضاء متوسطة ملصقة على الجانب الأيسر لباب الحانوت إلى أعلى قليلًا.. نزل من السيارة بخطى مترددة والهواجس تتقافز في رأسه كفئران حبيسة في قفص ضيق.. اقترب وقرأ بعينين ملأتهما الدهشة ثم سرت رعشة خفيفة في جسده وانتابه إحساس غريب لوهلة بفقد الطمأنينة والشعور بمتاهة.. كانت الورقة تعلن له بوضوح أنه من الآن فصاعدًا سيقف وحده ضد التيار بلا سند.. وكأنه قائد عسكري قُتل كل أفراد كتيبته في هجوم مباغت والعدو يحاصر قلعته من جميع الجوانب..

أعاد قراءة الورقة بصوت مسموع وكأنه لا يصدق ما يراه بعينيه فأراد إشراك أذنيه..

(المحل مغلق لوفاة صاحبه الحاج محمد الشافعي والعزاء غدًا بمسجد عمر مكرم لا أراكم الله مكروهًا في عزيز لديكم)..

تمتم وهو يلقي بجسده المفكك بداخل السيارة:

لم يعد لدينا عزيز آخر..!

***

أسبوعان مرا في بطء منذ وفاة الشافعي الكبير وبات اليوم يمر على ماهر طويلًا مملًّا بلا عمل أو حركة.. سأل نرجس عن سبب الوفاة فعلم منها أن قلب الشافعي العليل والذي كان يشكو منه في سنواته الأخيرة لم يتحمل فورة جسدها ولم يقو على تلبية متطلباتها.. مات بعد زواجه منها بثلاثة أشهر.. فتوقف قلبه وهو في أحضانها ذات ليلة فخرجت روحه على أعتاب أنوثتها الطاغية..

لفظ الشافعي الكبير أنفاسه الأخيرة ومن بعده لفظوا جميعًا نرجس من حياتهم.. طردها طلال من شقة أبيه شر طردة وعجزت ناجية أن تفعل لها شيئًا أمام توسلاتها بالبقاء مؤقتًا فيها خوفًا من أخيها طلال.. أما ماهر فقد تنصل منها في خسة لا يحسد عليها أبدًا رغم أنها كانت أمام الجميع إحدى قريباته حسبما تباهى يوم زواجها من الشافعي ورقص بالعصا أمامهما بالعوامة حتى الصباح.. تهرب منها كثيرًا فلم يكن يعرف مستقبله بعد أن بات مصيره بيد غريمه طلال الشافعي رب عمله الجديد والذي ظلت العلاقة بينهما فاترة كالحرب الباردة حالة لا سلم ولا حرب فلم يطرده ولم يكلفه بعمل من أي نوع..

أما الحانوت فقد صار مغلقًا ولا شيء يذكر بمخزن الهرم سوى تناول الشاي والقهوة حتى أصبح لا يستحق مجرد عناء الذهاب إليه.. ومع مرور الوقت بدأ يشعر أنه شخص غير مرغوب فيه من صبيان الشافعي الكبير الذين يدينون بالولاء لنجله طلال وبات ماهر كالعضو الغريب المزروع في جسد آخر فلم يتقبله باقي الأعضاء وصارت تلفظه كلما حاول العمل..

***

في أحد أيام الشتاء الدافئة من شهر ديسمبر استيقظ ماهر على رنين ملح من هاتف مسكنه وكأنه يأبى أن ينقطع.. رد بتكاسل كان توفيق على الطرف الآخر طالبًا لقاءه بصورة عاجلة بمنطقة الأهرام.. ولم يمهله حتى مجرد إبداء دهشته أو استغرابه من مكان اللقاء وتوقيته في السابعة صباحًا من يوم الجمعة..!

في الموعد المحدد تمامًا كان هناك توقفت السيارة الأجرة التي تقله بالقرب من استراحة الملك السابق فاروق أمام الهرم الأكبر والتي تحولت إلى كافيتريا حكومية تديرها شركة الفنادق المصرية مع وزارة الداخلية فحولاها بهذه المشاركة إلى عقوبة تكميلية لمن يرتادها وكأنهم مجرمون لا سواح وزائرون من جراء سوء الخدمة ورداءة المشروبات والأطعمة المقدمة..

مضت دقائق بطيئة وهو يتأمل نزلة السمان من أعلى نقطة بعد أن أدار ظهره لهرم خوفو محاولًا قتل الوقت وطرد الهواجس من رأسه عن سبب هذا اللقاء المفاجئ فانشغل بتحديد موقع مخزن الشافعي من مكانه.. تشتت ذهنه من كثرة الدروب والأزقة والحواري التي كان يتخيل نفسه يسير فيها ليصل إلى المخزن بعينيه.. لم يخرجه من محاولاته البائسة سوى بوق سيارة متقطع.. التفت إلى مصدره كان توفيق يقود سيارته القديمة للغاية ويرتدي طاقيته البيضاء الشهيرة ذات الفتحات الواسعة ويلوك خلته في برود..

ما أن استقر في المقعد المجاور له حتى انطلق توفيق بالسيارة التي صعدت لاهثة الممر الضيق بين الهرمين حتى وصلت لأعلى نقطة وهي تكاد تستغيث.. ثم استدار بها نصف دورة فجأة محدثًا صفيرًا مزعجًا حتى دخل بها إلى حيز الرمال فتجاوزه فصارت الأهرام عن يمينهما بينما ظل تمثال أبو الهول يقبع أسفلهما في شموخ..

ترجل توفيق من السيارة حتى وقف أمام مقدمتها فاستند عليها بمؤخرته عاقدًا ذراعيه أمامه شاردًا في الفضاء الفسيح الذي يلف المكان متأملًا لون الصحراء المقبض..

لم يقطع السكون إلا دفعة ماهر العنيفة لباب السيارة وهو يغادرها قائلًا في عصبية:

- ما هذا الهراء هل أتيت بي إلى هذا المكان لتتخلص مني حسبما أمرك طلال الشافعي؟

أطلق توفيق ضحكة عالية وهو يرد دون أن يلتفت إليه:

- لا تقلق.. ليس الآن.. وليس بهذه الطريقة التقليدية التي تشاهدها في أفلام السينما..

لم يبادله ماهر مجرد الابتسام وإنما وقف عند مؤخرة السيارة مرتابًا في أمره مطمئنًا نفسه بتلك المسافة البسيطة الفاصلة بينهما والتي اقتنع بأنها سوف تعينه على الفرار عدوًا إذا ما لاحت أي بادرة غدر من توفيق الذي أشعل بدوره سيجارة قائلًا في نبرة بدت جادة أكثر مما اعتاد منه ماهر:

- نحن الآن في مركب واحد وطلال سيسيطر على تجارة أبيه وبالتأكيد سيتعاون مع مراد الشامي لأن المصلحة تقتضي الاحتفاظ به لتصريف البضاعة في الخارج.. أما أنا فلم يعد بحاجة لي لأنه لم يكن مقتنعًا بموضوع تقليد القطع الأصلية من الحيازة الأثرية كما تعلم.. أما أنت فلا حاجة له بك على الإطلاق وحتى فكرة كف مريم لن تغفر لك عنده فهو على الأرجح لا يعرفها..

أطرق ماهر في يأس مقتنعًا بما يسمعه وقد بدأ يقترب أكثر من توفيق حتى تلاقيا عند منتصف السيارة وكأنه يستأنس بقربه الآن..فاسترسل توفيق قائلًا:

- الحل الوحيد أمامنا أن نتحد.. أنا وأنت.. قالها وهو يقبض كفه أمامه..

رفع ماهر رأسه وبوادر الأمل تتعلق بجفونه وتكاد تستقر في عينيه فأردف توفيق:

- لديّ قطعة نادرة صغيرة الحجم ولكنها غالية الثمن كنت قد ادخرتها ليوم أسود وها هو قد حل علينا..

اتسعت عينا ماهر من الدهشة عندما أخرج توفيق تمثالًا صغيرًا لا يتجاوز ارتفاعه عشرة سنتيمترات من جيبه على هيئة فرعون جالس يحمل طفلًا صغيرًا.. تحسس ماهر الأثر ثم اشتم رائحته مليًّا وبدأ يُجري لسانه على قاعدته لعقًا وكأنه يتذوقه ثم غرس فيه سنًا من أسنانه برفق مثلما دربه وعلمه الشافعي الكبير منذ سنوات للتفرقة بين القطعة الأصلية وتلك المقلدة وهي الطريقة التي بدت له غريبة أول مرة ثم تبين مدى نجاحها فيما بعد حتى أن بعض مفتشي الآثار كان يطلبون معاونته أحيانًا..!

أطلت ابتسامة استنكار من بين شفتي توفيق وهو يقول:

- علمناك الشحاذة يا أجرب.. ثم ضحك وهو يردف:

- هل اطمئن قلبك أيها الخبير؟

عبث ماهر بأصابعه في مؤخرة رأسه وهو يقول بصوت عالٍ معيدًا التمثال إليه:

- وكيف احتفظت به دون علم الشافعي؟ وماذا تريد مني بالتحديد؟ ففي إمكانك أن تبيعه بمفردك!!

اقترب توفيق منه أكثر وكأنه لا يريد أن يسمعه أحد رغم امتداد الصحراء الشاسعة حولهما:

- لقد سرقته منذ فترة من السرداب.. فبعد تقليده علمت من الشافعي الكبير أنه يساوي ثروة وطلب مني حفظه لحين عرضه على الخواجة السوىسري عندما يحضر إلى مصر بعيدًا عن أعين الشامي، ولما شاهده الخواجة منذ شهرين قرر أن ثمنه لا يقل عن خمسين ألف دولار أمريكي ولديه المشتري، ولكن الحاج الشافعي كان يطمع في أكثر فتأجلت الصفقة، ولما مات الشافعي فجأة أخفيته في بيتي حتى اليوم..

تنهد توفيق وهو يتفرس في وجه ماهر ثم أضاف:

- أما لماذا لجأت إليك، فلأنك الوحيد الذي يتصل بالخواجة رالف ويمكنك أن تفعل ذلك بعيدًا عن طلال ومراد وسوف يشتريه منك بخمسين ألف دولار كما قال.. خذ نصفها وأنا النصف الباقي فأنا قلدته وأنت هربته وهذه قسمة العدل، وإذا ما خُنت الاتفاق.. سأقتلك..

قالها توفيق وهو يبتسم في برود ويلوك خلته بين أسنانه كالمعتاد..

نزع ماهر الخلة من فم توفيق وألقاها بعيدًا وظل يجيء ويغدو أمام السيارة عدة مرات وهو يقدح زناد فكره، هل يقبل عرض توفيق أم يشي به لدى طلال؟! أيهما أربح له المال أم ثقة صاحب المال..؟

بعد تفكير رجحت كفة شراكته مع توفيق لخوفه من غدر طلال القادم لا محالة فتوقف فجأة قائلا:

- افترض أنني وافقت، فكيف سأخرج بالتمثال من مصر؟

أجابه توفيق بابتسامة ماكرة:

- لن تحتاج حتى لكف مريم.. انظر أين أضع التمثال.

قالها وهو يشير إلى جيبه الذي كان التمثال لا يظهر حتى أنه بداخله.. ثم أضاف:

ستخرج به بداخل جيب بذلتك ولن يفتشك أحد ولن يكشف أمرك مخلوق.. من سيصدق أن هذه الوسيلة البدائية سوف تستخدم في نهاية القرن العشرين؟!

قاطعه ماهر بعصبية:

- ولماذا لا نشحنه ضمن حاوية تحمل مقلدات خان الخليلي مثلما نفعل فلن يكتشفه أحد وسط عشرات أو مئات القطع المقلدة وسيمر بسهولة والأستاذ محمد حسن سوف.....

رد توفيق بحسم وثقة أطاحا بكل مقترحاته:

- باسم من سوف تخرج تلك الشحنة؟ طلال أم أبيه يا ناصح؟ الرجل وقد توفي وابنه أوقف العمل ونحن نفعلها من وراء ظهره وإذا ما علم أننا نستخدم اسم الشافعي الكبير فسوف يبلغ عنا الشرطة بالطبع.. أما محمد حسن فمن المؤكد أنه سيقول لطلال أو لمراد على هذا الاتفاق فهو يعلم أننا لسنا أصحاب المال.. الأمر الآن اختلف يا ماهر وكل منا يجب عليه أن يعزف منفردًا!!

أطرق ماهر مستسلمًا فطرق توفيق الحديد وهو ساخن قائلًا:

- سافر خلال هذا الأسبوع ورتب أمورك هناك مع الخواجة بعد أن ترسل له تلكس كالمعتاد بموعد سفرك واستعن بمترجم لتخبره أن الموضوع سري بينكما وسوف يستجيب لك.. وانتهز فرصة أن مراد بالقاهرة هذه الأيام ولن يسافر وبعد عودتك نقتسم المبلغ ويشق كل منا طريقه في الحياة بعد أن يكون لدينا خميرة طيبة نستند إليها في مواجهة الفقر وغدر الزمان.. ثم أن التمثال سيكون بحوزتك.. فما رأيك؟

لم يكن توفيق في حاجة إلى السؤال فقد كان ماهر يجيبه بهز رأسه بالإيجاب قبل أن يُنهي حديثه ثم تمتم وهو شارد:

- على بركة الله..!

***

29

التقريـر

للمرة الثانية أعاد العقيد هشام فتحي قراءة التقرير الملخص الذي أعدته إدارته عن الأحداث التي وقعت يومي 18 ، 19 يناير.. كان التقرير يحمل عبارة سري للغاية باللون الأحمر أعلى يسار الصفحة وبعد الديباجة المعتادة قرأ الآتي:

«بدأت الاحداث بمظاهرة صباح يوم 18 يناير في مصنع للنسيج بحلوان، تلاها أحداث شغب في أسوان وقطع المتظاهرون خط سكة حديد القاهرة/حلوان، فقامت الشرطة بإغلاق الطريق للسيطرة على الموقف. كما تجمعت مظاهرات للطلاب في جامعة عين شمس ومضت لتمر عبر شوارع القاهرة مستقطبة المساندة الشعبية في مسيرتها، ووصلت مجلس الشعب بعد الثالثة ظهرًا يوم 18 يناير، حيث حدث أول صدام (خفيف) مع بعض قوات الشرطة النظامية. بعدها تراجع المتظاهرون إلى ميدان التحرير حيث رددوا هتافات معادية حتى المساء للنظام ولرئيس الجمهورية ثم تركوا الميدان وتفرقوا في الشوارع المؤدية إليه خوفًا من قوات الشرطة ولكنهم عاودوا الحشد بميدان التحرير حتى نجحت القوات في تفريقهم بالقوة تلك المرة ويلاحظ أن الموضوع كان عشوائيًا وبغير ترتيب مسبق. وجميع التقارير الأولية تؤكد عدم وجود استخدام عنف من المتظاهرين. وقد أصدر رئيس الوزراء مساء نفس اليوم بيانًا ركز فيه على أن الأوضاع الاقتصادية تتطلب علاجًا جذريًا وفرعيًا، وهو ما أدى إلى إحساس المتظاهرين بقوتهم. وفي صباح يوم 19 يناير انفجرت المظاهرات مرة أخرى في القاهرة والإسكندرية. وبعض المحافظات الساحلية وجار التحري عن دور الحزب الشيوعي المصري في هذا الشأن..ويلاحظ أنه رغم صدور تعليمات للشرطة بإطلاق النار متى ما كان ذلك ضروريًا فلم يتم التعامل مع أحد، وعندما أعلن رئيس الوزراء أنه قد حصل على موافقة الرئيس على تعليق زيادات الأسعار هدأت الأوضاع في غالبية المحافظات. مع استمرار تواجد بعض كتائب من سلاح المشاة ومن قوات الصاعقة بشوارع القاهرة وكلها تابعة لقيادة الجيش الثاني وبالتنسيق مع السيد وزير الداخلية لحفظ النظام، وتم فرض حظر التجول من الساعة الرابعة مساء إلى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى وعاد السيد رئيس بعدها بالطائرة من أسوان. ومع بداية يوم 20 يناير لم تكن هناك أية مظاهرات على الإطلاق. وقد ضبطت وحدات المباحث بالأقسام الكثير من العناصر الإجرامية والمسجلين ممن قاموا بإشعال النيران وارتكاب حوادث سرقة وحررت بها محاضر منفصلة وجار استكمال التحريات واستجواب العناصر المضبوطة بمعرفة المباحث العامة بشأن التظاهر وفحص المنشورات المضبوطة».

طوى التقرير بهدوء فقد كان غير راضٍ عما حدث من تخريب لبعض المنشآت العامة كما كان التقرير من وجهة نظره غير وافٍ فضلا عما حواه من إخفاء متعمد للأسباب الحقيقية للأحداث بعد أن وصفها رئيس الجمهورية بأنها «انتفاضة حرامية» فطلبت منه رئاسته تهذيب التقرير وتقليمه ليتناسب مع التصريح الرئاسي فتلكأ.. نحاه جانبًا وهو يزفر في ضيق متسائلًا مع نفسه:

هل معقول أن يوصف اليسار المصري المثقف بأنهم ينتفضون كاللصوص؟! إذا ما كنا في هذا الجهاز الأمني سنخفي الحقيقة حتى عن أنفسنا فكيف سنؤمن هذا البلد فيما بعد لو تكررت مثل هذه الأحداث؟ إلى متى سنظل نتعمد تلوين الحقيقة دائمًا على ذوق القيادة السياسية؟!

دق جرس الهاتف الأحمر بمكتبه فانتبه إليه ورد بحسم:

- العقيد هشام فتحى.. أفندم.

جاءه صوت مساعد أول الوزير على الطرف الآخر يحمل سحب الغضب بكثافة:

- أين التقرير يا حضرة العقيد.. ألم تسمع تصريحات السيد الرئيس؟ قبل أن يشرع هشام في الرد كان صوت المساعد يعلو مسترسلًا:

أريد تقريرًا يوضح أن العمال والأولاد الشيوعيين المُضللين ركبوا الموجة واستغلوا الحدث وحرضوا وحرقوا وأتلفوا.. أمامك

24 ساعة من الآن حتى نعرض على السيد الوزير تقريرا بهذا المعنى قبل أن يتوجه لمجلس الشعب..

أجاب هشام في عبارات موجزة:

- تحريات الأمن العام تؤكد أن بعض الدهماء والسوقة هم الذين استغلوا الأحداث وليس العكس..

قبل أن يكمل حديثه قاطعه رئيسه بحدة:

- الأمر انتهى يا هشام نفذ التعليمات.. الأمن العام خارج الحسابات تماما في هذه القضية وهذه تعليمات عليا غير قابلة للنقاش..

صمت اللواء لبرهة وكأنه يلتقط أنفاسه اللاهثة ثم أردف في نبرة أهدأ:

بالمناسبة الشيخ صادق عبد الحق سيتواجد بالإدارة عندك بعد ساعة ومعه كشف بأسماء بعض العناصر الشيوعية المخربة بالجامعات والمصانع.. راجعه معه وتأكد من المعلومات ثم ضعها في تحرياتك.. نريد أن ننتهي يا هشام من هذا الصداع فأنا لم أغادر مكتبي منذ خمسة أيام!

لم ينطق العقيد هشام حرفًا واحدًا ووضع السماعة بعد أن كان اللواء قد بدا وكأنه أغلقها في وجهه دون أن يسمع منه تعليقًا.. ثم أشعل سيجارته وهو يبتسم في مرارة فحتى عملية التجميل للتقرير الحقيقي لن تعجبهم وعليه الآنِ أن يجري مشرطه فيه من جديد ليضيف ويحذف حتى تصير عبارة انتفاضة الحرامية رسمية وموثقة وفقًا لتقارير وزارة الداخلية ويتشكل رأي عام مؤيد ومهلل لها..!!

***

30

الزيـــارة

ثلاثة أيام كاملة لم يبرح فيها ماهر مسكنه سوى مرة واحدة للذهاب إلى مكتب الطيران لحجز تذكرتي سفر من القاهرة إلى جنيف والعودة، ثم عاد لبياته الشتوي مرة أخرى، وكأنه صار كالدودة التي تعيش في شرنقة وتخشى الخروج منها إلى بيئة جديدة فلا تتكيف معها فتموت سريعًا.. كان مدحورًا مهزومًا خائفًا قلقًا.. هواجس كثيرة تنتابه ويشعر بأنه بات يترنح بعد وفاة الشافعي الكبير، وكأن حلمه قد تبخر فجأة من بين يديه بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من إحكام قبضته عليه تمامًا.. شعر بأن وفاة الرجل بمثابة ضربة قاضية أسقطته من على حلبة الحياة بلا حراك، ولم ينقذه منها سوى عرض توفيق له بالثراء السريع ولكنه حتى الآن يقبض كفه على فراغ فلم يحقق ثروة وأنفق أغلب ما كسبه من تجارة الآثار على ملذاته وهي في النهاية فُتات.. أفلت الشافعي من قبضته عندما صعدت روحه إلى بارئها وأفلتت التجارة بالكامل وعادت إلى غريمه طلال.. عاد يطمئن نفسه بأنه سيحصل على مال يكفيه لبدء حياة جديدة وليذهب توفيق بعدها للجحيم فالتمثال سيكون معه، وهو الذي سيحصل على المال من الخواجة السوىسري ولن يستطيع توفيق أن يغدر به أبدًا.. اطمأن قليلًا وارتاح لهذا التفكير فهدأت قسمات وجهه نوعًا ما.. وبدأت الهواجس في الانسحاب تدريجيًّا حتى انحسرت تمامًا مع دقات جرس شقته فقام متكاسلًا وهو يتثاءب مسدلًا جفونه.. نظر من عين سحرية صغيرة مثبتة بالباب فقد كان يتجنب زيارات نرجس المفاجئة ولا يزال يتهرب منها وما أن وقع بصره على من بالخارج حتى أدار مقبض الباب في سرعة.. كان كمن دبت فيه الروح مرة أخرى وتوردت خدوده وعلا نبضه لرؤية وجهها الصبوح المبتسم..

كانت ناجية تقف على مبعدة من الباب وبصحبتها طفلتها الصغيرة أشجان التي كانت قد أدركت العاشرة من عمرها منذ أيام قليلة..

جلسوا جميعًا في الصالة الصغيرة وقد انشغلت الطفلة الصغيرة في مشاهدة التليفزيون بينما على مقربة منها يدور حديث شبه هامس بين ناجية وماهر وهو يجلس على حافة الأريكة من فرط انفعاله بقدومها لزيارته..

لقد انشغلنا عليك كثيرًا منذ وفاة والدي وأنت اختفيت فجأة، وعندما سألت توفيق عنك، قال إنه لا يعلم عنك شيئًا، ويعتقد أنك ربما تترك العمل وتعود إلى بلدتك بالصعيد.. هل هذا الخبر صحيح؟ ألقت سؤالها بنبرة قلقة مصحوبة بنظرات مضطربة تنتظر الإجابة بالنفي..!

دق قلبه بعنف إعجابًا بنفسه وانفعالًا بلهفتها عليه، فقد شعر أن شيئًا ما بداخلها قد تحرك أخيرًا بعد أن كاد ييأس، وبات الأمر الآن يحتاج مجرد إزالة بعض الأتربة العالقة بعواطفها بعد أن تحركت من أعماقها صعودًا لتظهر أكثر وأكثر فلم يتردد وهو يقول:

- الحقيقة أنا لا أترك من اعتبرتهم أهلي، ولا أستطيع أبدًا الابتعاد عمن أحببت، ولكن بعد رحيل والدك أو إن شئت الدقة والدي أيضا فأنا كنت أعتبره كذلك..

ثم توقف برهة مترحمًا على روحه مغمضًا عينيه وهو يتمتم بعبارات هامسة بسرعة، فلم تفهم ناجية

ماذا يقول وإن كان يبدو لها مخلصًا وورعًا في آن واحد!

ما أن فرغ من تمثيله حتى مسح وجهه بكفيه قائلًا وهو يبتسم في حنو مخترقًا وجدانها وعواطفها بنظراته الثاقبة:

- لديّ مهمة عمل خارج مصر تستدعي سفري خلال يومين لإنهاء أمور متعلقة ببضاعة قديمة وبعدها سأعود لأستقر في القاهرة وأبدأ في مزاولة التجارة..

صمت قليلًا ثم أردف بصوت رخيم والابتسامة لا تفارق شفتيه:

- وأتزوج أيضا..

وقعت الكلمة لطيفة على مسامعها، فاستقبلتها بترحاب داخلي ظهرت بوادره على قسمات وجهها ولم تحاول إخفاءه فقد استقر في وجدانها أنها تفتقده وتحتاجه وتريده رجلًا لها حتى ولو لم يكن لديه غير فحولته حسبما تتندر صديقاتها معها.. فهي فكرت واختارت وارتاحت لتفكيرها، وقررت كعادتها في زيجاتها السابقة أن تنفذ فورًا وتأخذ الخطوة الأولى دائمًا دون أن تعطي نفسها أي مهلة للتراجع، كانت دوما تتصرف كمن يحرق سفنه خلفه عند أي شاطئ ترسو عليه فإذا ما خطر ببالها العودة فإنها تكون شبه مستحيلة أو بخسائر فادحة على أقل تقدير..

التقط ماهر الخيط الرفيع الذي لاح من نظرات عيونها، فغادر مكانه مقتربًا من طفلتها أشجان فاحتضنها ثم قبلها في وجنتها اليسري بعد أن أجلسها على ركبتيه وضم رأسها إلى صدره في حنان فاستجابت له الطفلة في براءة وهي مندهشة بينما هو يردد دون أن ينظر إلى ناجية:

- كم أتمنى أن يكون لي طفلة جميلة مثلك..

***

31

المرشـــد

ظل العقيد هشام يتأمل الصورة الفوتوغرافية المثبتة بدوسيه صادق عبد الحق لبضع دقائق وهو شارد.. كان صادق وقتها لا يزال صغيرًا يافعًا.. حليق اللحية والشارب.. فدون ملاحظة لتحديث الصورة ثم جرى بعينيه على سطور المعلومات الخاصة بنشأته، ورغم أنه يكاد يحفظها عن ظهر قلب من كثرة ما تعامل معه في العامين الأخيرين إلا أنه لم يكن يعرف على وجه اليقين سبب تعاونه معهم حتى الآن. كانت لدى العقيد قناعة بأن أي مرشد للشرطة هو شخص غير سوي وله دائمًا مآرب أخرى، فلم يحترم أيًّا منهم طوال خدمته وإن كان يؤمن بأنهم لا غنى عنهم أبدًا في جمع المعلومات فهم كالشر الذي لابد منه..

مضى يحدث نفسه قائلًا:

«ولكنه مختلف عن باقي المصادر من المرشدين والعناصر المعَاونة فلم يطلب مالًا أو خدمات أو توصية لدى جهة رسمية أو غيرها يومًا ما وكأنه متبرع بمعلوماته وخدماته لوجه الله والوطن!!»

ثم هز رأسه في استنكار فلم يكن صادق شخصًا مريحًا أبدًا وكان يشعر دائمًا بأن وراءه سرًا خفيًّا ولكنه عجز عن سبر غموضه..

قرر هشام الخروج من شروده عائدًا إلى صفحات الدوسيه الأولى معيدًا قراءة بطاقة البيانات لعلها تعينه تلك المرة: **(الاسم/ صادق عبد الدايم عبد الحق.. مواليد/ الأول من أغسطس 1942 .. والده يعمل إمامًا لمسجد كاظم وشيخًا لتحفيظ القرآن بقرية أبار الملك بمركز أخميم محافظة سوهاج.. يتمتع والده بشعبية ومصداقية لدى أهل القرية فتمت الاستعانة به من المباحث العامة بجنوب الصعيد في يونيو 1967 لتهيئة الرأي العام لتقبل الهزيمة واستعادة شعبية النظام فأبدى تعاونًا كبيرًا وجيدًا.. الشيخ عبد الدايم لديه من الأولاد ستة.. خمسة ذكور وابنة واحدة.. أصغر أبنائه هو صادق الذي هجر القرية بلا عودة في أوائل الستينيات لإتمام دراسته الجامعية بكلية دار العلوم ولكنه لم يكملها لفشله عامين متتاليين واكتفى بعد ذلك بدراسة متوسطة بأحد المعاهد الفنية قسم ميكانيكا سيارات والتحق بالعمل بإحدى الورش بمنطقة إمبابة ثم انضم لفترة لجماعة الإخوان المسلمين واعتقل لفترة ثم أفرج عنه حتى قبض عليه مرة أخرى عام 1966 فأبدى تعاونًا ملحوظًا من البداية في الإرشاد عن زملائه وأماكن اجتماع بعض أفراد الشُعب والأسر 'خوانية بمحافظة الجيزة فتم تجنيده لصالح المباحث العامة بتاريخ 15 يوليو 1966 برقم 423/13 /ف.. شارك بعدها في تقديم معلومات على قدر كبير من الأهمية عن خلايا شيوعية بمنطقتي أبي زعبل وحلوان كما قدم معلومات مهمة عن عضو الجماعة الإسلامية يحيى همام أثناء اختباء الأخير بالمنطقة الجبلية بسوهاج عام 1973 مما أسفر عن تحديد موقعه والتعامل معه ومقتله في حينه أثناء مقاومته قوات الشرطة المكلفة بالقبض عليه. صادق عبد الحق المصدر الأمني هذا، انضم لجماعة التكفير والهجرة في بدايات السبعينيات وقام بتكفير والده عبد الدايم عبد الحق ورفض الصلاة عليه عند وفاته العام الماضي وأيضًا.....).**

دق جرس الهاتف الداخلي بمكتب العقيد هشام فتحي فأخبره المتحدث بأن الشيخ صادق عبد الحق موجود بالمبنى.. طلب العقيد من محدثه أن يسمح له بالصعود بعد خمس عشرة دقيقة.. طوى هشام الملف الخاص بصادق ثم عاد إلى التقرير الخاص بأحداث يناير يحاول أن يُصلح ما تبقى من فقرته الأخيرة ففشل.. ظلت يده تمسك بالقلم ولا تسطر حرفًا كان عقله يمنعه وضميره يوقفه وكفه لا تزال تقبض على القلم حتى كادت تقصفه وكأنها ترغب في الاستجابة لصوت العقل والضمير لا للتعليمات الرئاسية..

طرقتان على الباب ثم انفتح في رفق. كان اثنان من رجال الأمن بالإدارة يعاونان الشيخ صادق على السير وتوجيهه نحو المقعد المواجه لمكتب العقيد هشام وما أن أجلساه حتى نظر أحدهما إلى العقيد وكأنه

ينتظر إشارة معينة فأشار له بها بعينيه رافعًا جفنيه إلى أعلى قليلًا فرفع رجل الأمن العصابة السوداء من على وجه الشيخ صادق والتي كانت تعوق سيره بمفرده ثم تركاه وانصرفا.

فرك الشيخ عينيه وهو يبتسم قائلًا:

- سبحان الله، لا تأمنون لأحد أبدًا.. حسبي الله ونعم الوكيل فيكم.. أتم جملته وهو يضحك حتى لا يؤخذ دعاؤه بمأخذ الجد..

رحب به العقيد هشام بابتسامة مصطنعة موضحًا له أنها إجراءات روتينية لا يجب أن يتوقف عندها كثيرًا وقبل أن يعاود الشيخ الحديث عنها عاجله العقيد بسؤال مباغت وكأنه لا وقت لديه ليضيعه في المسامرة:

- أين كشف الأسماء يا شيخنا العزيز؟..

بسمل الشيخ وحوقل ثم أخرج من جيب سترته الزيتية التي يرتديها فوق جلبابه الأبيض القصير ورقًا مطويًّا ولكنه من القطع الكبير سلمه ليد العقيد هشام.. ثم مضى يتأمله وهو يقرأ فيه بينما ظل يعبث بشعر لحيته الكثيف فيقبض عليه بكفه ثم يمررها برفق حتى أسفله ويعيد الكرة مرة أخرى..!

أطال العقيد هشام النظر في الأسماء الواردة بالتقرير وزم جبهته قليلًا وعقد حاجبيه أكثر من مائة وعشرين اسمًا لقيادات من تيار اليسار ورموزه بكل أطيافه.. في الجامعة.. وفي مصانع حلوان وشبرا الخيمة والمحلة الكبرى وفي بعض المؤسسات الصحفية وبالمجلس الأعلى للثقافة.. نظر إلى الشيخ صادق فوجده يبتسم ابتسامة صفراء حتى خُيل للعقيد هشام لوهلة أن هذا الكشف مقتبس من كشوف المتابعة التي يُجريها جهاز المباحث العامة بصورة دورية..

- هل مطلوب مني شيء آخر يا سيادة العقيد..؟

شرد هشام قليلًا وهو يتعمد أن يؤخر الإجابة فقد أدرك الآن أن الشيخ صادق وجماعته يتعاونون معهم بما يخدم مصالحهم تمامًا فكل هذه الأسماء تقف حجر عثرة دائمًا أمام التيار الديني في انتخابات الجامعات ودوائر العمال بالبرلمان فضلا عن مقالاتهم بالصحف وإزاحتهم بهذه الوسيلة تمهد الطريق لصعودهم لعدة سنوات قادمة على الأقل بدون منافسة.. فجأة قفزت إلى رأسه فكرة.. أن يخرج عن قواعد اللعبة طالما أن اللعب صار على المكشوف هكذا فقرر أن يوجه سؤالًا مباشرًا لصادق عن سبب تعاونه معهم وهو على يقين من أنه سيكذب كعادته ولكنه أراد أن يغوص في أعماقه ويتأمله وهو يقول غير الحقيقة فيسيطر عليه أكثر.. لكن عندما تلقى صادق السؤال فوجئ العقيد بأنه لم يهتز ولم تتغير الابتسامة الصفراء المرسومة بدقة على شفتيه بل زادت اصفرارًا وأطل التحدي من عينيه يؤازرها وكأنه يشهر أسلحته كلها في وجه العقيد هشام دون خوف فقال:

- لقد طلب الإسلام من المسلمين أن يكونوا في معسكر العدالة دائمًا، وبجانب المظلوم في مواجهة الظالم، فليس في الإسلام حياد يا أخ هشام بين الحق والباطل، فلابد من الانحياز إلى جانب الحق في مواجهة الباطل دائمًا والله يقول «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعانوا على الإثم والعدوان».

صمت قليلًا.. فلما لم يجد بادرة اقتناع على قسمات وجه العقيد استرسل قائلًا:

- ولا يجوز الحياد بين المسلمين المتقاتلين، ولا الوقوف موقف السلبية واللا مبالاة بل لابد من العمل الإيجابي لإيقاف القتال ولن ينجو المتفرجون من عقاب الله فهم إلى هلاك.. ثم تلا عليه سورة العصر..!

أعاد هشام رأسه إلى الوراء ثم أراح ظهره على مقعده وهو يتأمل قسمات وجه الشيخ صادق الذي لم يكن قد تجاوز السادسة والثلاثين من عمره ويتمتع بوجه طفولي وعينين يشع منهما الذكاء بإفراط قائلًا:

- وما علاقة هذه الآيات وهذا الكلام بما نحن فيه..؟

اكتسى وجه الشيخ بالجدية وهو يقول بنبرة أعلى قليلًا:

- هذا هو لُب الموضوع فمعسكر العدالة هو الدولة، والمواطنون الأبرياء هم الطرف المظلوم الذي فقد روحه وماله وممتلكاته وأمنه في هذه الفوضى التي أشعلها هؤلاء الملاحدة والعياذ بالله.. يا سيدي الفاضل نحن نتعاون معكم لوجه الله تعالى..

ثم أردف بتعالٍ مستتر:

- وأنتم من طلب العون وهذا ما لدينا فإن لم يعجبكم فنحوه جانبًا وإن راق لكم فخذوه..!

قالها صادق ببطء وهو يتعمد إطالة الحرفين الأخيرين وهو يثبت نظرة التحدي على عيني هشام فقد كان يدرك من محادثته مع رئيسه أن العقيد هشام لا يملك من أمره شيئًا ووجوده هنا بأمر أعلى منه وهو نافذ في مواجهته لا محالة من رؤسائه ولكن طالما أراد العقيد إحراجه فليرد له الصاع صاعين..

صمت هشام ولم يرد، وبدا مجبرًا على قبول الكشف بالأسماء التي يحويها، فاكتفى بالجز على أسنانه وتراجع عن مناقشته فيها بعدما لاحظ أن الشيخ حدد دور كل منها في الأحداث بدقة وكأنه يمليها عليه كما هى.. فضغط زرًا صغيرًا أسفل حافة مكتبه، وما أن ظهر فرد الأمن مؤديًا التحية المعتادة حتى أشار العقيد هشام بوجهه ناحية الشيخ صادق باحتقار متعمد.. فتوجه رجل الأمن إليه مبسطًا العصابة السوداء وسرعان ما غطت ملامح وجه الشيخ مخفية نظرة غاضبة أطلت بوضوح للحظات ولكن لم ينسها العقيد هشام فتحي لشهور طويلة بعدها.

***

32

المؤامرة

ظل ماهر على ارتباكه الذي لازمه منذ الصباح الباكر كظله حتى استقر أمام ضابط الجوازات لإنهاء إجراءات سفره على طائرة الخطوط السوىسرية المتجهة إلى جنيف.. كانت القطعة الأثرية التي حصل عليها من توفيق ترقد مائلة بجيب بذلته الداخلي بجوار قلبه وبطريقة لا إرادية كان يضع يده على صدره كل برهة ليتحسسها في رفق وكأنه يطمئن إلى وجودها فحياته صارت متوقفة عليها الآن.. شعر بالضيق وهو يتذكر كيف أخرج مئات القطع الأثرية الضخمة من مصر بسهولة ويسر والآن يشعر بقلق شديد مع قطعة واحدة صغيرة.. قفزت إلى رأسه فجأة عبارة توفيق الأخيرة:

لن يفتشك أحد فلا مبرر لذلك أبدًا طالما لم تبد أي شكوك نحوك.. فابتسم بلا مبرر أيضًا في وجه ضابط الجوازات المتجهم والذي قلب الجواز في يديه عدة مرات، وكأنه يقلب جسد ماهر على جمرات مشتعلة وظل يرميه بنظرات حادة متبادلة بين وجهه وبين صفحات جوازه فيشعر ماهر مع كل منها أنها خناجر تشق ثباته النفسي وتكاد تدكه لينهار معترفًا..

تماسك رغم أنه شعر بأن عرقه بدأ يتصبب منه ببطء، وتحجرت عيناه فلم ترمشا وأحس بأن قدميه قد تصلبتا وظل بصره متعلقًا بكف الضابط حتى قبض أخيرًا على خاتم أسود ضخم، ثم هوى به بشدة رجت ماهر فانتفض من داخله باصمًا به إحدى صفحات الجواز بخاتم الخروج وهو يبادله ابتسامة باهتة ومع ذلك أثلجت صدره فلملم أشلاء نفسه وحمل حقيبة يده الصغيرة ومضى يجر ساقيه الثقيلتين جرًّا..

ظل يتسكع في أنحاء المطار الساعة المتبقية له ثم جلس لتناول بعض القهوة وتدخين سيجارة.. ومع النداء الأول على طائرته بدأ يستعد للنهوض ففوجئ بيد ثقيلة تعاونه وهي ممسكة بذراعه فالتفت إلى صاحبها.. كان النقيب شريف أبو النجا ومعه رجلان تبدو من هيئتهما أنهما من رجال الشرطة..

همس شريف في أذنه وهو يتأبط ذراعه والرجلان يحيطان به تمامًا في نصف دائرة:

- لا داع للشوشرة يا سوهاجي امض معنا إلى المكتب في هدوء.. وقبل أن ينطق ماهر بحرف واحد كانت يد شريف تُخرج القطعة الرفيعة الصغيرة من جيبه في خفة وسرعة بينما السوهاجي ينظر إليه في ذهول ودهشة وكأنه يشاهد ساحرًا يؤدي فقرته ببراعة فائقة..

بعد نحو ساعة ونصف الساعة قضاها في مكتب مباحث المطار لتحرير المحضر وتحريز القطعة الأثرية واستدعاء الخبير الأثري لإعداد تقرير مبدئي.. خرج ماهر في صحبة الرجال الثلاثة الذين أودعوه داخل سيارة صغيرة كانت تنتظرهم أمام مبنى الركاب وسرعان ما كانت في طريقها إلى سراي نيابة النزهة بمصر الجديدة حيث تنتظره اتهامات بسرقة أثر والشروع في تهريبه..

***

في مساء نفس اليوم وبأحد معارض السيارات بمنطقة باب اللوق بوسط القاهرة، دق جرس الهاتف عاليًا فالتقط طلال الشافعي السماعة في لهفة المنتظر، ثم استمع لمحدثه دون مقاطعة لمدة نصف دقيقة أو يزيد قليلًا لمعت عيناه خلالها ببريق شديد وبدا أن نار الانتقام قد خبت جذوتها في صدره وهو يعيد السماعة لمكانها قائلًا لمن يجلس أمامه:

- ماهر السوهاجي تم حبسه أربعة أيام احتياطيًّا على ذمة التحقيق..

ابتسم الشخص الجالس معه في مكتبه ابتسامة شريرة واسعة وفرك يديه وهو يتناول من يد طلال مظروفًا منتفخًا دسه في جيبه ثم خرج مودعًا نجل الشافعي الكبير بعد أن شفى غليله.. في حين أشعل طلال سيجارته في هدوء وهو يتأمل الشخص الذي كان بصحبته منذ قليل عبر الواجهة الزجاجية لمعرض السيارات والذي لم يكن سوى توفيق المحلاوي والذي ظل واقفًا لبرهة قصيرة على الرصيف المقابل للمعرض يعد الأوراق النقدية التي احتواها المظروف في جذل ثم دسها دفعة واحدة في جيبه ومضى وسط زحام البشر حتى غاب عن الأنظار..!

***

33

التخشيبة

العسكري مظلوم في الجيش ياكل عدس ويلبس خيش

وايه أخرتها مع الظبـاط ولاد الشعب غلابة بساط

شوفتوا يا خلق البيه عمره ما فكر فكرة الظابط وصابت

أعاد ماهر قراءة الشعارات المكتوبة على حائط حجز قسم شرطة الخليفة بخط واضح وكبير.. ثم مط شفتيه امتعاضًا فلم تشده أو تحرك فيه ساكنًا فقد كان مهمومًا بأحواله بعد قرار قاضي المعارضات باستمرار حبسه لحين انتهاء التحقيقات.. كانت التخشيبة تعج بالمحبوسين من كل الأطياف على ذمة الترحيل لأماكن مختلفة.. محكوم عليهم سيرُحلون للسجن وآخرون على ذمة العرض على النيابة.. معتقلون سياسيون ومجرمون من مختلف الطبقات بدءًا من سارق الرغيف جوعًا إلى قابض الروح بأجر معلوم مقدمًا مرورًا بذوي الياقات البيضاء.. لفت نظره أن بعض الشباب يتابعونه بنظرات ودودة فاقترب منهم فدعوه لمشاركتهم الطعام جلس في وسطهم تلبية لنداء معدة خاوية منذ يومين.. مضى يتأملهم وهو يحشو فمه بلقيمات خبز مغموسة في جبن أبيض قديم ويقبض بكفه على ثمرة طماطم غير مكتملة بعد أن قضم ثُلثها دفعة واحدة..

كان الذين يشاركونه الطعام شبابًا جامعيين أو أنهوا دراستهم من فترة وجيزة يدور بينهم حديث تعلو وتيرته حينًا وتهدأ أحيانًا عن تظاهرات يومي 18 ، 19 يناير الماضيين وتخرج كلماتهم مفعمة بالحماس ومغلفة بالاقتناع عما قاموا به.. بعد قليل انضم إليهم رجل قارب على الأربعين من عمره ومع ذلك غزا الشيب رأسه بكثافة كان يدخن بشراهة حتى وهو يشاركهم الطعام.. ألهب الرجل حماسهم بحديثه عما أسماه ثورتهم الشعبية وبدا لماهر أنه قائدهم أو زعيمهم لما له من هيبة وسطهم واحترام بينهم..

من ركن قريب علا صوت رجل آخر قارب على الستين من عمره يرتدي بذلة رمادية ويضع نظارة طبية سميكة وقد تخفف قليلًا من رابطة عنقه قائلا باستنكار:

- وهل تسمون ما قمتم به ثورة؟! هذه مؤامرة لحرق القاهرة وخطة مدبرة من حزب العمال الشيوعي المصري وأنتم ممولون من الخارج..

وكأن هذا الرجل قد سكب بنزينًا على النار فزادها اشتعالا فانبرى له قائد المجوعة الشبابية بعد أن علت أصوات بعضهم استنكارًا وهجومًا على المتحدث:

- هذا رد فعل تلقائي لكل الضيق الاجتماعي الذي يشعر به المصريون ودائمًا ما نكون نحن كبش الفداء.. كانت ثورة يا سيدي ولكن لم يكتب لها أن تكتمل..

أجابه الرجل ذو الستين عامًا ببرود:

- هل تريد أن تُقنعني بأن كل ما حدث كان تلقائيًّا؟! إذَا بم تفسر الحافلات الضخمة التي كانت محملة بالشباب من أمثال هؤلاء الذين يلتفون حولك الآن مثلما يحوم الذباب على قطعة خراء؟!

أشار القيادي اليساري بيده لأحد الشباب بأن يتوقف بعد أن كان قد هم بالاعتداء على الرجل وقال بنبرة غاضبة متوترة:

- نعم شارك الشباب في المظاهرات كعادتهم دائمًا ولا بأس من التنظيم لضمان الفاعلية ولكن ذلك كله يعكس عفوية الغضب الشعبي من زيادة الأسعار ومن سياسيات ستؤدي إلى التضخم وإفقار الشعب أكثر.. أما القطط السمان من أمثالك والتي اعتادت أن تقتات الفضلات من صناديق قمامة أسيادها قبل أن تكبر وتتوحش فلن تشعر أبدًا بنبض الجماهير..

ارتاحت قسمات وجوه الشباب لرد قائدهم القوي على الرجل الذي أنزل ساقًا من على الأخرى قائلًا وهو يشعل سيجارته المستوردة:

- كل ما حدث يؤكد المؤامرة ونظرة بسيطة للأحداث توحي بأن هناك تدريبات لمليشيات تم التخطيط لها جيدًا لاستهداف أقسام الشرطة والمطافئ والحافلات العامة وخطوط السكك الحديدية..

ثم أضاف وهو ينفث دخان سيجارته في وجه محدثه:

- أما استخدام الصغار كدروع بشرية ضد هجمات الشرطة فهذا عمل جبان ويدل على خسة لا بطولة وشهامة.. ثم إذا كانت هذه انتفاضة شعبية أو حتى ثورة كما تزعم وتجاوزت السبب المحدود الذي فجرها وهو زيادة الأسعار.. فلماذا خمدت تمامًا بمجرد رجوع السادات عن قرار إلغاء الدعم؟.. الإجابة ببساطة أنها انتفاضة حرامية لا أكثر ولا أقل..

رد عليه القيادي اليساري بثبات وثقة:

- يا سيدي المحترم ولو أنني أشك في ذلك.. وأعلم أنك هنا بتهمة الرشوة في قضية اللحوم الفاسدة.. ولكنني سأتجاوز عن كل ذلك مؤقتًا لأقول لك إن هذه الأهداف التي تتحدث عنها هي الرموز المألوفة للدولة، ومصادر السخط الشعبي والإحباط اليومي للمواطن المطحون، ولمعلوماتك أن هذا الشباب الطاهر الذي شارك معنا استهدف مباني أخرى خلاف ما تقوله، مثل مبنى الاتحاد الاشتراكي.. نحن في أرجوحة بين الخوف من أهوال سجون عبد الناصر والإحساس بنشوة نصر أكتوبر وعندما تهدأ وتسكن سيزول حاجز الخوف ويتعمق الشعور بغياب العدل ووقتها سيفعلونها مرة أخرى..

كان ماهر يتابع الحديث بعينيه فقط وينقل بصره بين الرجلين كمن يتابع مباراة حامية الوطيس في تنس الطاولة وبدت رأسه بحركتها يمينًا ويسارًا كبندول ساعة لايهدأ.. بينما عقله لا يستوعب الكثير مما يقال وكأنه من بلد آخر..

أنهى القيادي اليساري الحديث بصوت جهوري وكأنه يخطب في جماهير التخشيبة الذين كانوا يتابعون المبارزة في صمت:

- وحتى لو اعتبرتها انتفاضة فهي مقدمة لثورة سوف تُسقط النظام السياسي فالغضب المحدود يتحول لثورة عندما يلعب دور المفجر لاستياء شعبي أعمق وأوسع نطاقًا.. كما قال كريس هارمان الاشتراكي البريطاني عن حق..

دوى تصفيق الشباب للقيادي عقب هذه العبارة الأخيرة.

نظر ماهر إلى القيادي اليساري المتحمس والذي كان يتصبب عرقًا رغم برودة الطقس في تلك الغرفة الواسعة الغير آدمية التي تضمهم ثم قال له في عفوية تنم عن جهل:

- هل فعلتم كل ذلك بسبب زيادة قرش صاغ واحد في الأسعار؟

ابتسم له الرجل قائلًا:

- بالطبع لا.. ولكن ما حدث كان كاشفًا لعورتنا الاقتصادية!!

تحولت البلادة التي لدى ماهر إلى بلاهة في ثوانٍ فأطلت من عينيه وفضحت جهله أمام محدثه فظل صامتًا..

فسأله القيادي اليساري:

- ماذا تعمل حضرتك؟

رد ماهر بعد تفكير بسيط:

- تاجر عاديات..

- وما هي تهمتك؟

أجابه بعد فترة:

- أنا مظلوم فقد لفقوا لي تهمة تهريب آثار ولكن تلفيقهم كان مفضوحًا مثلما فعلوا معكم.. فقد كنت أضع القطعة بجيب البذلة الداخلي لاعتقادي بأنها غير حقيقية.. ولو كنت أعلم حقيقتها كما يدعون وأريد تهريبها لوضعتها في جيب سري بحقيبتي مثلا..

ثم تطلع بعينيه إلى وجه محدثه وكأنه يشحذ التصديق على فصول روايته المكذوبة.

رمقه القيادي اليساري بنظرة شك ولم يرد عليه، ثم انشغل عنه في حديث جانبي مع آخرين. وجد ماهر نفسه يميل للجلوس بدوره مع الرجل ذي الستين عامًا المناهض للانتفاضة عندما تبين له وجود معارف كثيرين مشتركين بينهما.. في حين تشكلت حلقات أخرى منفصلة من مرتادي الحجز دار بينهم حديث هامس، وكان هناك آخرون يتشاجرون بينما مد من تبقى منهم ساقيه ثم فرد جسمه بعد أن افترش الأرض القذرة لينال قسطًا من راحة غائبة..

***

34

مباحث أمن الدولة

عندما توجه النقيب شريف أبو النجا إلى مكتب مدير الإدارة في ذلك اليوم لم يكن يتوقع هذه الحفاوة من رئيسه.. صحيح أنه نجح في ضبط ماهر السوهاجي ووجه ضربة شديدة لأحد معاقل تجارة الآثار، ولكن بداخله لم يكن قد أدرك بعد لحظة الرضا التي ترضي غروره فقد كان يعرف أن هذا المعقل قد بدأ يتهاوى بالفعل بعد وفاة الشافعي الكبير، وأن دوره كان مجرد دق المسمار الأخير في نعشه بضبط أحد أهم أفراده وأنشطهم أثناء التهريب، وحتى تلك الضبطية لم يبذل فيها جهدًا كبيرًا فقد كان بلاغ وافٍ بالتفاصيل من طلال الشافعي كالمعتاد قد حدد لهم كل صغيرة وكبيرة فسقط ماهر في أيديهم بسهولة كسقوط الحشرة في شبكة العنكبوت..

مبروك يا حضرة الرائد..

أطلت الدهشة من وجه النقيب شريف على إثر كلمات اللواء أنور عبد اللطيف بتهنئته برتبة أكبر..

ثم أردف اللواء:

- نعم.. لقد اعتمد الوزير حركة الشرطة اليوم وتمت ترقيتك إلى رتبة رائد وأيضا هناك مفاجأة أخرى فقد تم ترشيحك للعمل بمباحث أمن الدولة.. بالتوفيق يا شريف..

كانت سعادته بالرتبة حقيقية إنما العمل في مباحث أمن الدولة فقد كان وقع الحديث على أذنيه ثقيلًا فقد ظلت أحاسيسه محل شك لديه فلم يدر هل يفرح أم أنها مسئولية جسيمة في ظروف صعبة خاصة أنه بلا خبرة حقيقية في هذا المجال وزادت هواجسه عندما تسلم عمله الجديد وعلم أنه سيكون في إدارة متابعة النشاط الديني المتطرف.. ذات الإدارة التي كان يعمل بها العقيد هشام فتحي والذي عندما بادر بالسؤال عن مكتبه لزيارته ولينهل من خبرته ويكون عونًا له في عمله الجديد فوجئ بوقع ثقيل على أذنيه من رد الصول سليمان الواقف ببابه:

- العقيد هشام فتحي تم نقله في الحركة الأخيرة إلى إدارة تصاريح العمل يا باشا!!

مع مرور الشهور الأولي كان لا يغادر مكتبه تقريًبا.. علم تفاصيل كثيرة عن النشاط الديني في مصر منذ إنشاء جماعة الإخوان المسلمين عام 1928 والتي كانت لاتزال محل متابعة ولكن بلا رد فعل صريح من وزارة الداخلية.. مرورًا بتنظيمات أخرى بدأت تتصدر المشهد بعد أن تكونت وباتت شبه مكتملة في منتصف السبعينيات بعضها كان ينتهج العنف والبعض الآخر يكتفي بالتكفير واعتزال المجتمع وآخرون في منتصف الطريق يدعون بالموعظة الحسنة إلى اتباع السنة النبوية والسلف الصالح.. في البداية كان مشتت الفكر ويشعر بالحيرة من جراء التفسيرات العديدة للقرآن والسنة.. بعد أن وجد أمامه مئات الأحاديث النبوية التي لم يسمع عنها قط وآلاف التفسيرات والفتاوى التي تبدأ من الملبس والمشرب حتى وجوب قتال الحاكم الكافر..!! فتولد لديه إحساس ملح بضرورة الجلوس إلى العقيد هشام فتحى.. ولكن مع انشغالهما المستمر وصعوبة الاتفاق على موعد يناسبهما كل مرة.. ومرور بضعة أشهر أخرى حتى قاربت على العام صار شريف يشعر أن أفكار هشام قد باتت بالية وعفى عليها الزمن فترك أمر لقائه للمصادفة مكتفيًا بالمصادر المتعاونة مع إدارته وما يتلقاه عنها من معلومات..!

- كم مرة التقيت به حتى الآن؟

باغته هشام بهذا السؤال المفاجئ في أول لقاء جمعهما بعدما استمع لحديث طويل منه عن رأيه في كيفية التعامل مع التيار الديني في المرحلة الجديدة..

أجابه الرائد شريف قائلًا:

- ثلاث أو أربع مرات فقط.. منها مرة واحدة على انفراد بمكتبي وباقي المرات مع اللواء مدير الإدارة ولكنني لست مؤيدًا للشيخ صادق عبد الحق في كل ما يقوله حسبما تظن وإنما أشعر بتعاطف معه ومع إخوانه من أفراد جماعته فقط.. وأعتقد أنهم الأقرب فهمًا للإسلام الصحيح..

عقد هشام حاجبيه بشدة:

- الإسلام الذي نعرفه وتربينا عليه يجب أن يقف عند حدود الدعوة ولا يتعداها أبدًا إلى الدخول في السياسة والتوغل في أحراشها.. ثم أن هذا العنف الذي ينبذونه الآن هم أول من مارسه في الأربعين عامًا الأخيرة وجاء من يقلدهم ويستن سنتهم وكلهم خرجوا من عباءة واحدة..

رد شريف بنبرة المكتفي بعلمه والمقتنع بصحته:

- لا تنس أنهم في عهد عبد الناصر ذاقوا صنوفًا عديدة من التعذيب بلا ذنب أو جريرة رغم أنه كان واحدًا منهم وتعاونوا معه كثيرًا قبل الثورة، ومع ذلك فقد لجأ إلى إجراءات أكثر صرامة وقسوة معهم أغلبها لم تراع فيه القوانين ولا مبادئ العدالة في المحاكمات، وربما كان هناك افتعال لوقائع ونسبتها إليهم.. ثم أنهم نبذوا العنف الآن والله يغفر فهل مباحث أمن الدولة لا تغفر؟! هل سنأخذهم بذنب قياداتهم.. اسمح لي يا فندم فأنا أختلف معك في الرأي هذه المرة..

نظر هشام بعيدًا إلى لا شيء وكأنه يستشرف مستقبل شريف أبو النجا ثم أجابه دون أن يُعيد النظر إليه:

- ما يجعلك تتعاطف معهم أنهم في مرحلة الاستضعاف ولم تحن بعد مرحلة التمكين.. هذا ما يجب أن تدركه كضابط في هذا الجهاز حتى تحكم عقلك عندما تتابع نشاطهم دون تعاطف كلي كما هو حالك الآن.. ولكن دعني أسدي لك نصيحة.. احترس دائما من الوقوع في حب المرشد أو التعاطف معه فوقتها لن تدرك الخيط الفاصل بينكما وستصبح أنت مصدره.. وستنزلق برفق حتى تستقر في القاع دون أن تشعر ولن تدرك ما وصلت إليه إلا عندما ترفع رأسك وتنظر إلى أعلى فتجد طاقة النور بعيدة عنك ووقتها ستدرك متأخرًا جدًا أنك تقبع وحيدًا في الظلام بعد أن يبدأ هو في البحث عن ضحية غيرك..!!

***

ثلاث طرقات متتالية بعدها علا صوت الحاجب:

- محكمة....

دلف القضاة الثلاثة من غرفة المداولة واتخذوا أماكنهم على المنصة بينما قبضت كفا ماهر على أسياخ القفص الحديدي بقوة وكأنه يريد تحطيمها في حين تعلقت عيناه بالقاضي الجالس في المنتصف والذي بيده الآن مصيره.. لحظات مرت بطيئة ما بين فتح القاضي للدوسيه الذي أمامه ثم ارتدائه نظارته الطبية وانتظاره لحين أن تهدأ القاعة تمامًا فلا يُسمع بها إلا صمت الترقب..

تبادل نظرة خاطفة مع ناجية التي جلست بالصف الأخير فلم يشعر بالقلق الذي كان يستبد بها من جراء النظارة السوداء الضخمة التي تكاد تخفي نصف وجهها خلفها..

أعاد بصره ليتعلق بشفتي القاضي وهو ينطق في حسم:

- حكمت المحكمة حضوريًّا على ماهر سيد حسن وشهرته ماهر السوهاجي بالأشغال الشاقة المؤقتة عشر سنوات وبتغريمه عشرة آلاف جنيه ومصادرة القطعة الأثرية المضبوطة..

ثم طوى أوراقه وهب واقفًا في حين ردد الحاجب بصوته الجهوري المميز العبارة الشهيرة :

- رفعت الجلسة..

شعر ماهر الذي ظل ممسكًا بالقضبان في وجوم بأن القاضي قد طوى صفحات عديدة من كتاب حياته بهذه العقوبة المغلظة.. اسودت الدنيا أمامه فجأة وبدأ يشعر بأن ساقيه لا تقويان على حمله فاستسلم تمامًا لأيدي الصول الغليظتين والذي بدا وكأنه يجره جرًّا وهو يقوده لعربة الترحيلات..

ألقى نظرة أخيرة على قاعة المحكمة التي سادها هرج ومرج وأحاسيس متباينة من زغاريد تدوي في جنبات القاعة لحصول آخرين على البراءة ونساء تنتحب وتعوي كإناث الذئاب وتلطم خدودها حزنًا على ذويها الذين أدينوا في قضايا أخرى.. بينما كانت هناك ثلاث أعين زائغة تتعلق به وهو يغادر القفص.. يغلفها مشاعر متباينة ما بين الحزن والمرارة والعتاب والأسى وربما قليل من التشفي بدرجات متفاوتة وكل منهم كان يجلس في مكان مختلف عن الآخر بداخل القاعة.. منصور الطيب ثم ناجية الشافعي.. وأخيرًا نرجس..!!

***

الرحلة الثانية

«الزمن لا يغير الناس وإنما يكشف حقيقتهم تباعًا»

35

الربيع البارد

ضغط الضابط على زر عريض بأسفل الجهاز المثبت بمكتبه قائلًا:

- دعوه يدخل الآن.

دلف الشيخ صادق عبد الحق إلى مكتب المقدم شريف أبو النجا وكيل إدارة المتابعة للنشاط المتطرف بمباحث أمن الدولة.. لم يكن معصوب العينين تلك المرة.. بدا نحيفًا بعض الشيء من جراء اعتقاله شهورًا طويلة في الخامس من سبتمبر 1981 وقد تسربت بعض الشعيرات البيضاء إلى فوديه ومقدمة رأسه أما لحيته فقد كانت الحناء كفيلة بمدارة الشعر الأبيض منها باقتدار..

رحب به المقدم شريف ترحيبًا حارًا.. فقام من خلف مكتبه واحتضنه ثم صافحه وتبادلا القبلات على أطراف الأكتاف ثم جلس أمامه إلى المكتب بحيث صارا متقابلين وكأنهما صديقان حميمان أتى أحدهما لزيارة الآخر في مقر عمله بعد غيبة طويلة..!

دار بينهما حديث طويل عن جماعة الجهاد واغتيال رئيس الجمهورية أثناء العرض العسكري وإعدام الإسلامبولي ورفاقه ومن قبلها اعتقال رموز وطنية كثيرة بعضها من قيادات الجماعات الإسلامية ثم لقاء الرئيس الجديد حسني مبارك بمن اعتقلوا في
5 سبتمبر بالقصر الجمهوري وعلق شريف أبو النجا واصفًا ما حدث بأنه قفزة للأمام ومرحلة جديدة مبشرة بالأمل في مزيد من الحريات وبناء مجتمع ديمقراطي سليم بمشاركة كافة أطياف المجتمع.. كانت صورة الرئيس مبارك معلقة خلف مكتب شريف مباشرة وهو يرتدي بذلة زرقاء فاتحة تبدو متواضعة نوعًا ما وتطل من عينيه نظرة باردة توحي بكسل صاحبها وبطء قراراته..!

لم تسلم عبارات شريف التي كانت أشبه بعناوين جريدة الجمهورية من ابتسامة سخرية بدت بوضوح على شفتي الشيخ صادق وكأنه يتعمد إظهارها لفترة ثم قال في نبرة تحمل قدرًا من العتاب:

- يا أخ شريف أنت بحكم وظيفتك قد تابعت عملنا على مدار خمس سنوات تقريبًا وعلمت وتأكدت أننا نبذنا العنف ومع ذلك تُصر حكومتك ورئاستك من قبلها على وضعنا جميعًا في بوتقة واحدة ثم تشعل النار إعلاميًّا أسفلها محاولة إيهام المواطنين بأننا قد انصهرنا معًا فصرنا كتلة واحدة.. فأصبحنا نعرف بالأصوليين والإسلاميين المتطرفين الإرهابيين!

قاطعه شريف محتجًا:

- لا يا مولانا هناك تفرقة بين تيار العنف وتيار الدعوة ولكن الحدث كان مروعًا ومفاجئًا.. وطبيعي أن تكون هناك تدابير احترازية قوية بعده لفترة لحين تبيان الأمر واستقرار الأوضاع وفي النهاية لا يصح إلا الصحيح بدليل أنك الآن هُنا معزز مكرم في مكتب وكيل إدارة متابعة النشاط المتطرف لنبدأ صفحة جديدة معًا و.....

قطع الشيخ صادق حديث المقدم أبو النجا بإشارة من يده تفيد احتجاجه ورفضه لكلامه قائلًا:

- اسمح لي يا أخ شريف.. لا يمكن أن نبدأ صفحة جديدة دون مشاركة حقيقية للتيار الإسلامي وإذا ما

كانت اعتقالات سبتمبر خريفًا للغضب كما يقال فإن ما نمر به الآن لا يعدو سوى أن يكون ربيعًا باردًا..!!

وسكت لحظة ثم أردف:

- أنت تحدثت عن مرحلة جديدة للبناء والتحول للديمقراطية ومزيد من الحريات إلى آخر هذا الكلام المنمق، إذن فلابد أن تكون لنا مشاركة فعلية فيه وإلا سيظل الكلام حبرًا على ورق..

رد شريف وهو يبتسم:

- ومن قال لك غير ذلك.. ستشاركون طبعًا وستعود لتعمل وتتعاون معنا كما كان الحال في السبعينيات بل بالعكس الوضع الآن صار أفضل و.....

هب الشيخ صادق واقفًا وكأنه ينهي اللقاء بإرادة منفردة:

- يبدو أنك لم تفهمني.. هذه ليست مشاركة بل استغلال. لقد تعاونت وأفراد جماعتي معكم كثيرًا وخلصتكم من شرور الشيوعيين ولست مسئولًا عن تيار ديني له تفسير متشدد في قتل الحاكم الكافر، هذا أمر كان يجب عليكم أن تواجهوه بمعرفتكم.. أما الآن فقد حان أوان الحصاد وإذا أردتم مشاركتنا فقدموا لنا ما يؤكد حسن النية فأنتم من بدأ بالغدر..

مضى الشيخ صادق في طريقه إلى باب الحجرة بعد أن ألقى بالسلام على محدثه وقبل أن يغادر كان المقدم شريف قد سبقه إلى الباب وهو يحتجزه بجسمه دافعًا إياه في رفق ليعود إلى مقعده فاستجاب له الشيخ في تؤدة ورجع بخطوات واثقة وكأنه يؤدي مشهدًا مسرحيًّا تدرب عليه كثيرًا ويعرف نهايته مقدمًا.

ما أن جلس حتى بادره شريف بالسؤال في نبرة توحي بانهزامية عميقة نابعة من شخصيته الضعيفة:

- رغم أنني أشعر بأنك تتعجل أوان الحصاد ولكن أخبرني ماذا تريدون تحديدًا حتى أستطيع نقل الصورة واضحة لرؤسائى؟

نظر الشيخ صادق إليه وهو يدفع حبات مسبحته الواحدة تلو الأخرى في روية ويبتسم في مكر بعد أن تجاهل عبارة شريف عن استعجال الحصاد ثم قال:

- المشاركة يا أخ شريف.. المشاركة..

ثم تغيرت نبرته قليلًا إلى لهجة شبه آمرة وكأنه يطرق الحديد وهو ساخن مسترسلًا:

- أبلغ قيادتك في تقرير المتابعة الذي سوف تكتبه بعد انصرافي أننا نريد العمل دون مضايقة أمنية.. اتركوا لنا الحبل قليلًا.. دعوا لنا المواطنين البسطاء لكي نعاونهم ونثقفهم وننشر الدعوة الصحيحة بينهم في المساجد والزوايا.. ارفعوا كفوفكم الثقيلة من على كاهلنا وسوف نمنع عنكم سخط الفقراء والجهلاء والمحتاجين.. وثق أننا سنساعدكم في بناء مجتمع سليم قوي يحب دينه بالفطرة ويتمسك به ويطيع حاكمه وسنرشدكم دائمًا عن الارهابيين لقطع دابرهم.

صمت قليلًا، ثم قال وهو يحدق في عيني شريف اللتين تطل منهما اللهفة لباقي الحديث:

- أما السياسة الخارجية أو الداخلية فافعلوا فيها ما تشاءون.. أليس هذا ما تريدونه؟!

أطلت نظرة ارتياح من عيني الضابط وهو يهز رأسه استحسانًا لكلام الشيخ الأخير..

أردف صادق وهو يهم بالمغادرة ويقبض بكفه على مقبض باب الحجرة:

- سأنتظر ردك.. بارك الله فيك يا أخ شريف..

قالها وودعه ولكن في ود مصطنع هذه المرة ثم أغلق الباب خلفه برفق وانصرف وهو يختال

كالطاووس ولكنه حرص على إخفاء غطرسته قدر ما يستطيع.. بينما ظلت عبارة المشاركة الإيجابية تتردد في رأس المقدم أبو النجا بإلحاح وكأنها صدى صوت لا يريد أن يتوقف أبدًا من جراء حجم الفراغ الذي يملأ رأسه..

***

36

خواطر في الزنزانة

فرد الطائر الضخم ذو الريش الأسود جناحيه وأطلق صيحة طويلة كئيبة ثم حلق فوق رأسها.. كانت قعيدة وهزيلة وصوتها واهنًا فلم تلفت أناتها انتباه أحد ممن حولها.. جثم الطائر فجأة على صدرها ونقرها بضراوة فتأوهت بشدة.. سالت دماؤها بغزارة بينما الطائر الأسود يمزق قلبها إربًا صغيرة وبقع الدماء تتناثر على الأرض فتلطخها.. نادته مستغيثة.. حاول الحراك فلم يقو عليه كان متكومًا في ركن منزوٍ مرتكن بظهره إلى الحائط وكلما حاول النهوض أخفق حتى تكاسل واكتفى بالمشاهدة.. مرت دقائق بطيئةً وهو يراها تتمزق وتنزف والطائر يطلق نواحًا كئيبًا كل برهة والدماء تسيل من منقاره المعقوف وتلطخ جسمه وتلتصق بريشه.. فجأة كما ظهر ابتعد عنها وحلق فوق رأسه هو حتى شعر بأنه يكاد يكتم أنفاسه من فرط اقترابه منه.. فنهض مفزوعًا وصدره يرتج بشدة.. تلفت يمينًا ويسارًا فلم يجد سوى أجساد ممددة بلا حراك وقد علا غطيطها فكاد يُصم أذنيه..!

أدرك ماهر أنه أفاق لتوه من كابوس كئيب.. تمطع ببطء وكأن حجرًا قد أطبق على صدره ولا يزال.. بدأت عيناه تتعودان ظلام العنبر رويدًا رويدًا ففركهما بشدة وهز رأسه مرتين لينفض عنها بقايا الحلم الذي ظهرت له أمه فيه وهي ضعيفة هزيلة حزينة تتمزق من الألم..

أشعل سيجارة التقطها من داخل حذائه حيث اعتاد أن يخفيها بعيدًا عن أعين ضابط مباحث السجن.. وسرح في حاضره.. فلم يعد يُريد تذكر ماضيه ولم يكن قد خطط بعد لمستقبله بما يرُضيه.. ست سنوات في السجن مرت عليه وكأنها ستون عامًا.. أيام متشابهة بطيئة رتيبة فقد فيها الكثير من وزنه وبعضًا من شعر رأسه ولكنه لم يفقد طموحه بعد.. زيارات ناجية له في السجن ضمدت جراحه النفسية وأعطته القدرة على الحلم والإصرار على تحقيقه.. نفث دخان سيجارته في قرف عندما طاف بخاطره حديثها معه عن أخيها طلال وكيف قام بتصفية جميع أعماله وتجارته في مصر وباع ممتلكاته ثم هاجر إلى كندا.. علم منها أنها حصلت على حانوت وسط البلد ومخزن الهرم ومليون جنيه أموالًا سائلة بالبنوك كنصيب لها من تركة والدها بينما استأثر طلال بباقي ميراث الأموال والعقارات.

منذ أن علم بميراثها وهو يخُطط لإمبراطورية جديدة في تجارة الآثار تصعد به لعنان السماء ولكنها لم تكتمل بعد في ذهنه.. لم يكن يريد الاكتفاء بالتحليق قريبًا من اليابسة مثلما فعل الشافعي الكبير وإنما كان تخطيطه بأن يسيطر على تلك التجارة في ربوع مصر ونجوعها منفردًا ووجد ضالته المنشودة في سعيد الخضري الذي لحقه في آخر عامين بالسجن قبل خروجه فوطد صلته به حتى بعد الإفراج عنه ومداومته على زيارته، كان بالنسبة له كنز لا يفنى فعلاقة سعيد الخضري بتجار الآثار بالصعيد والمنقبين عنها قوية ومتينة وصلته بهم لم تنقطع حتى أثناء فترة حبسه.. هز رأسه مترحمًا على الشافعي الكبير فقد أحسن اختيار رجله سعيد الخضري وتربيته..

امتعض وجهه قليلًا وهو يتذكر زيارات نرجس له في الأعوام الثلاثة الأولى وطلبه منها عدم فضح أمره أمام ناجية في موضوع زواجها من الشافعي الكبير بعد أن علمت من طاقم حراسة السجن أنها تزوره ومدى تعلقه بها فوافقته وهي تحدثه بعيون غليلة من خلف الأسلاك .. طلب من منصور الطيب الذي كان يحتفظ بأمواله لديه إعطاءها بعضًا منه فالمال يُسكت الألسنة ويعمي العيون.. لتبدأ حياة جديدة

بعيدًا عنه فلم يكن لديه من يستأمنه على ماله سوى الطيب الذي لم ينقطع عن زيارته يومًا واحدًا رغم أنه صار عاطلًا بعد هجرة طلال الشافعي إلى كندا..

ابتسم وهو يتذكر عرضه على منصور بأن يعمل سائقًا لدى ناجية وقبول الطيب للعرض رغمًا عنه بعد أن ضاقت به السبل ولم يجد ما يعينه على الحياة خاصة بعد أن كبر أطفاله وزادت أعباؤه ولم تعره الدولة التفاتا باعتباره من أبطال حرب أكتوبر حتى طواه النسيان مع غيره فاختزلت بطولاته في صورة أبيض وأسود مع زملائه وقائده على الجبهة بعد العبور استقرت داخل إطار خشبي قديم مائل على أحد الجدران..! اتسعت ابتسامته وهو يتخيل منصور الطيب الذي صار يقيم في مخزن الهرم مثلما فعل هو منذ سنوات بعيدة بعد أن عجز عن سداد إيجار شقته إثر فقده لوظيفته بمعرض السيارات.. هز رأسه متعجبًا من حال الدنيا ثم تحسس جانب بطنه الأيمن في رفق متذكرًا كليته التي تبرع بها منذ عامين في صفقة مع مسجون ثري يقضي عقوبة السجن المؤبد ويريد أن يعيش ما تبقى له في صحة جيدة فباع له ماهر إحدى كليتيه بثلاثة آلاف جنيه اشترط تسليمها لمنصور الطيب أولًا قبل الجراحة بعد أن أقنع منصور أنها مستحقات قديمة من تجارة عاديات مشروعة..!!

ضاقت عيناه وبدأت أمارات الحنق تغزو وجهه وهو يتذكر عتاب ولوم منصور له بشدة على تجارة الآثار الغير مشروعة وموقفه السلبي من والدته حتى مماتها وكأن منصور صار صوت الضمير الذي لا يموت أبدًا فضاق به ذرعًا وطالما أنهى ماهر الزيارة معه قبل موعدها بسبب تأنيبه المتواصل له..

جذب نفسًا أخيرًا طويلًا ثم ضغط على عقب سيجارته بعنف حتى سحقه بأصابع كفه تمامًا وهو يتذكر توفيق المحلاوي وغدره به بعد أن روت له ناجية فصول المؤامرة حسبما سمعتها من طلال ذات مرة قبل سفره تحت سطوة الإفراط في شرب الخمر.. لم يتمالك نفسه فبصق على الأرض ثم عاد إلى رقدته متقلبًا في فراشه وقبل أن تغفو عيناه تنبه على صوت مزلاج باب الزنزانة وهو ينفتح محدثًا صريرًا مزعجًا كالمعتاد أعقبه صوت الشاويش الغليظ وهو ينادي على من لهم زيارة صباح اليوم فانتبه وهو يسمع اسمه.. ماهر سيد حسن.. اعتدل جالسًا في فراشه وهو يستفسر بعينيه من الشاويش عن زائره تلك المرة..فأجابه بابتسامة خبيثة تكشف عن امتلاء جيبه بنقود الإكرامية السخية قائلًا :

ناجية هانم..

***

37

اجتماع تنظيمي

هدأت حركة السيارات في الطريق تمامًا وكانت معظم مصابيح أعمدة الإنارة خافتة أو معتمة فأضفت المزيد من السكون والهدوء على تلك البقعة النائية في نهاية شارع الهرم إلى اليمين قليلًا بالمنطقة الواقعة قبل الترعة التي تشق شارع الملك فيصل.. عمارة سكنية من عشرة طوابق بالغة القبح تقبع في وجوم مطلة على الأهرام من أدوارها العليا وكأنها ستُطبق عليها فجأة.. بناية تجسدت فيها كل عشوائية المعمار في السنوات الأخيرة.. قاربت عقارب الساعة على الثانية بعد منتصف الليل وبعدها بنحو خمس عشرة دقيقة ظهر شخص يرتدي جلبابًا قصيرًا أبيض اللون يعدو مسرعًا في الظلام فلا يمكن لأحد أن يتبين ملامحه حتى دلف إلى العقار بعد أن تلفت خلفه مرتين ثم تكرر هذا المشهد كل ربع ساعة بعد ذلك..

رجال تظهر فجأة وتدخل العقار في سرعة وخفة بعضهم يرتدي ملابس عادية وبعضهم يصطحب امرأة منتقبة أو أخرى ترتدي خمارًا حتى دقت الساعة الخامسة صباحًا فبدت الشقة التي تحتل يمين الطابق الثامن مكتظة برجال غالبيتهم لم يتجاوز الأربعين بعد وبعضهم لم يناهز الثلاثين من عمره عدا واحد بدا زعيمهم أو قائدهم فكان على مشارف الستين أو تخطاها بقليل.. جلسوا على شكل حلقة بعد أن فرغوا من تناول طعام إفطار بسيط أعده صاحب البيت لهم وبجوار كل منهم مصحف صغير ولكن يبدو من مظهره أنه لم يفتح قط..!! وأجندة متوسطة وبعض قصاصات جرائد لعناوين أخبار يشار إليها بأسهم متعرجة وكأنها سطرت بأيدٍ مرتعشة خائفة.. ويستمعون في إنصات وتركيز للشيخ صادق عبد الحق الذي كان يستعرض معهم نتيجة لقاءاته الأخيرة مع المقدم شريف أبو النجا لتحديد خططهم في المرحلة المقبلة.. بينما قبعت النساء في حجرة بالداخل أغلق بابها عليهن بإحكام!

أسهب الشيخ صادق في الحديث عن ضابط مباحث أمن الدولة المكلف بمتابعته وكيف تمكن هو من تحويل مسار تلك المتابعة ليسير بالتوازي مع صعودهم كشريطي القطار كي يظلا متوازيين متجاورين حتى نهاية المطاف.. فلا يجور أي منهما على الآخر أبدًا.. كان صادق يتحدث بثقة لا حدود لها وبنبرة توحي للمستمع بأنه يقبع في الكواليس يحرك خيوطًا باقتدار لعرائس خشبية فتبدو لمن يشاهدها أنها تتحرك بتلقائية وكأنها تستلهم أفكارها من عقلها لا من كف من يحركها من خلف الستار!

- أنت تُحسن الظن به أكثر من اللازم يا صادق..

قالها كبيرهم وهو يعبث بين أسنانه بسواك غليظ داكن.. ثم أردف:

- ما أدراك أنه لا يستمرئ الظهور أمامك بهذه الصورة لكي يستدرجك.. الضباط ليسوا بهذه السذاجة في هذا الجهاز اللعين.. وفي النهاية أنت مجرد مرشد لهم.

أجابه الشيخ صادق بنفس نبرته المتحمسة التي ألقى بها تقريره:

- وأنا لم أقل أبدًا أنه ساذج بل بالعكس هو مغرور ولكنه أجوف أو إن شئت الدقة كان فارغًا وأنا ملأته.. فهو لم يكن يحب عمله في تلك الإدارة أبدًا ويعيش دائمًا على ذكريات خدمته بشرطة السياحة وأنا جعلته يتابعنا بالطريقة التي نريدها وبالتالي هو لا يرى إلا ما يصل إليه فقط أو ما نضعه في طريقه.. ولا تنس أن ذلك الجهد احتاج منا لسنوات كما أنه أفضل كثيرًا من سلفه العقيد هشام فتحي والذي ضايقنا كثيرًا ولم يتعاطف معنا أبدًا.. فالمقدم أبو النجا على النقيض تمامًا منه فهو لا يقرأ كثيرًا ويهتم فقط بإعداد التقارير وانتظامها ويجري المتابعة بالطرق التقليدية التي تعلمها ولم يطورها فضلًا عن ضعف شخصيته وخوفه من رؤسائه دائمًا.. ووفقا لإرشاداتك كنا نعطيه معلومات حقيقية أحيانًا

ليظل في منصبه والإدارة يعجبها أسلوبه ومن الواضح أنها ستبقي عليه لفترة فمن لم ينله التغيير بعد حادث المنصة لن يتغير لسنوات أخرى قادمة وهو يُبدي تعاطفًا غير مسبوق معنا وحتى الآن نجحنا إلى حد ما في تجنب ضربات أمنية موجعة ووجهناها إلى غيرنا.. من جماعات أخرى عليها أن تضحي مثلما ضحينا من قبلهم وأخيرًا فهناك ضابط جديد تعرفت عليه من خلاله هو الضابط فاروق عبد السلام أعتقد أن بداخله بذرة قد تصلح للاستقطاب وإن كانت غير طيبة فهو على الأرجح ضابط فاسد جشع وسمعته ليست على ما يرام وهو ما جعلني حتى الآن حذر معه رغم سهولة تجنيده بالمال حسبما علمت ولكنني مازلت أختبره تحت المجهر وعندما أتأكد من استعداده والفائدة التي ستعود من ورائه علينا سأكون في انتظار أوامرك..

نقل كبيرهم بصره بين الجالسين عدة مرات قبل أن يوجه سؤاله لصادق:

- هل تعتقد أنهم سيأخذون بتوصياته في تقريره الأخير بتخفيف قبضتهم علينا في الفترة القادمة؟! أشك كثيرًا في ذلك.

رد صادق بسرعة:

- إن شاء الله سيحدث.. فالتيارات كثيرة على الساحة.. أعتقد أن لدينا فرصة لتحقيق ما نهدف إليه ولكن نحتاج وقتًا.. وعلى كل حال لن نخسر شيئًا يا مولانا..

عاد كبيرهم يعتدل في جلسته ويعبث بلحيته وهو يتفحص وجه رجل آخر من الجالسين يدعى صالح عبد الحي قائلًا:

- نحن بحاجة إلى إصدار جريدة وإلى بعض الأقلام لتؤيدنا وتتبنى وجهة نظرنا أو تكون قريبة منها فتخلق تعاطفًا معنا وتدافع عنا في مواجهة الإعلام الحكومي.. فلتبدأ من الغد يا صالح فالوقت قد حان والأموال التي تلزمك موجودة الآن.. أومأ صالح بالإيجاب وهو يقدم المشيئة.. فأردف كبيرهم موجهًا حديثه إلى آخر: جاءت شكاوى كثيرة من محافظتك لمغالاة الإخوة في تكفير جيرانهم فاءعطهم أمرًا بأن يكفوا تمامًا ويظهروا محبة مؤقتة.. نريد أن نكسب شعبية حاليًا لا كراهية.

هز الرجل رأسه بالإيجاب ووجهه مكفهر متمتمًا: سمعًا وطاعة.

ثم نظر كبيرهم إلى الشيخ صادق مرة أخرى وكأنه يطرد آخر هاجس لديه:

- هل أنت واثق من هذا الضابط أبو النجا؟ فأنا لا أريد مغامرة غير محسوبة والانتخابات على الأبواب..!!

أزالت نبرة صادق الحاسمة الهواجس من رأس كبيرهم وهو يردد:

- نعم فهو خاوي الوفاض تمامًا وقد امتلأ عقله بالتدريج على مدار خمس سنوات حتى نضج.

ثم تلفت ببصره بين الجالسين وهو يقول بصوت ضاحك:

- والله لو أطلق لحيته وجلس بيننا وتحدث لما كشفت أمره.. أنا بعون الله حولته إلى مرشد لنا.

تعالت ضحكات الجالسين بالحلقة على استحياء وسرعان ما خفتت وراحت الابتسامة وعادت الوجوه إلى تجهمها المعتاد بعد أن نهض كبيرهم وهو يودعهم.. صافحهم جميعًا ليخرج هو أولًا والشيخ صادق في ذيله.. وهم يتمتمون في وقت واحد تقريبًا:

- في أمان الله..

***

تلاقت أناملها مع أصابع كفه الغليظة عبر الأسلاك التي تفصلها عنه أثناء الزيارة فيتحسس مواضع منها بالكاد.. أضاع وقتًا طويلًا وهو يتأمل وجهها الصبوح وكأنها تزوره لأول مرة.. حتى توردت وجنتاها بحمرة الخجل من جراء نظراته.. كان ماهر يفتقدها بشدة ويود لو نزع الأسلاك التي تحول بينهما ليضمها إلى حضنه ويعتصرها عصرًا، فقد استبد به الشوق إليها أكثر وهو وراء الأسوار عما كانت أمامه وهو حر طليق..

قالت ناجية ووجهها يشرق بابتسامة عريضة:

- لا تضع الوقت مثل كل مرة فاليوم لديّ لك خبران أحدهما سيسعدك، والثاني سيحبطك قليلًا..

بادلها الابتسام قائلًا:

- لم يعد هناك ما يُحبط بعد ست سنوات من الأشغال الشاقة في الليمان.. ابدأي بالخبر السعيد أولًا..

أخبرته في جذل طفلة لم تتعد العاشرة من عمرها:

- أكدلي المحامي أنك ستخرج بعد بضعة شهور لحسن السير والسلوك، لقد قبلت لجنة التظلمات التماس العفو عنك مع من سيخرجون في الاحتفالات السنوية بنصر أكتوبر بعفو رئاسي..

تهلل وجه ماهر فرحًا حتى كاد طرفا شفتيه يلتصقان بأذنيه من شدة ابتسامته.. ثم هلل وكبر وظل يقفز خلف الأسلاك كأنه قرد بينما ناجية تضم كفيها نحو صدرها وتبتسم له حتى انسابت دموع فرح من عينيها خلسة فلم تتمكن من السيطرة عليها فتركتها تبلل وجنتيها السمراوين لتزيدهما لمعانًا..

اقترب ماهر من السلك الفاصل بينهما حتى ألصق أنفه وشفتيه به وكأنه يحثها لتقبيله فخجلت وعادت خطوة للخلف وهي تهمس مبتسمة :

- أنت مجنون..

- وما الخبر المحُبط؟

قالها وهو يبتسم فلم يعد في قلبه مكان للإحباط الآن.

قالت في وجوم وهي تتفحصه بعينيها في حنو:

- لقد أصدر مجلس الشعب منذ أيام قانونًا جديدًا يمنع تمامًا التجارة في الآثار، وعلينا أن نسلم الترخيص الخاص بأبي خلال ستة شهور لإدارة الحيازة وإلا صادروا ما لدينا وتعرضنا للسجن.. وبالتالي لن تستطيع أن تبيع آثارا أو تشتريها مرة أخرى.. فلم يسمحوا بالتجارة سوى في المقلدات فقط.

لمعت عيناه بشدة ثم بدأت ابتسامته تغزو وجهه من جديد بكثافة حتى اكتملت بينما كانت الكلمات تخرج من بين شفتيه بطيئة وكأنه يستشرف مستقبله بدقة:

- لا تقلقي يا ناجية.. لا تقلقي أبدًا.

أطلت الدهشة من عينيها من نبرة صوته المتفائلة مع ابتسامته الناقصة فظنته يائسًا يتظاهر أمامها بالتماسك بينما تغوص نفسه في دوامة من إحباطات كثيرة فحاولت الترويح عنه بالحديث عن أصناف الأطعمة التي يحبها وجلبتها معها في الزيارة، بينما كان هو كمن يُحدث نفسه سابحًا في عالم آخر خاص به وطالما طاف بخياله كحلم تمنى حدوثه منذ سنوات.. فالممنوع مرغوب دائمًا.. وما كان يباع ببضعة ألوف سيصل ثمنه الآن إلى ملايين بعد منع الحكومة للتجارة في الآثار.. ظلت ناجية صامتة وكأنها لا تريد أن تقطع حبل أفكاره..

استغرق ماهر في شروده.. فكان ينظر إليها ولا يراها..عينه وعقله يشاركانه تخيل حلمه الذي بات قريبًا من تحقيقه جدًا تلك المرة.. يكاد يلمسه بيديه بل ويتحسسه إن أراد!

ومع صوت الصول الأجش معلنا انتهاء الزيارة اكتفى كل منهما بتوديع الآخر بكفه فقط من خلف الأسلاك العالية دون حديث..

***

ظلت كلمات ضابط مباحث السجن ترن في أذنيه وتطغى على تذكيره فتزيد من شروده عندما سلمه كارتًا شخصيًّا ليذهب به إلى مباحث شرطة السياحة والآثار ليبدأ رحلة إرشاد ثانية قبل على مضض أن يسير فيها بعد أن هددوه بتأجيل الإفراج عنه وتلفيق قضية جديدة إن تراجع.

وقف ساكنًا يتأمل ما حوله في وجوم حتى لفحت الشمس وجهه بشدة فزادته سمارًا وبدأت حبات عرق غزير تتفصد من جبهته فسار بمحاذاة الترعة الصغيرة ذات المياة العفنة الراكدة فأشاح بوجهه عنها في تأفف لم يكن يصدق ما يراه بعينيه رغم أنها ذاتها التي كان يعبرها برشاقة منذ سنوات بعيدة.. أرض كاظم بك ذات المساحات الخضراء الشاسعة تحولت إلى غابة عشوائية قبيحة من الأسمنت.. مدرسة ابتدائية تجثم على بضعة فدادين كانت تزخر في الماضي بثمار المانجو والآن تخرج منها جلبة الأطفال أثناء لهوهم فتُصم السامعين.. يبعد عنها بأمتار قليلة معهد ديني للفتيات بينما يظهر من بعيد مستوصف حكومي بحوائط باهتة تعلوها الشروخ.. مخبز آلي تحمل لافتته اسم قريته وكأنه أمر صار محل فخر لقرية كانت تخبز كل بيوتها لتطعم أهلها من قبل..! أما سراي كاظم فلم يدرك ماهر أبدًا وهو يسير في الطرق التي دُكت بالأسفلت في بعض مواضعها أن مقر بنك ناصر الاجتماعي الذي مر بجواره بالسيارة هو الذي حل محلها..!

التفت إلى منصور الطيب الذي كان يرافقه قائلًا:

- ما هذا الضريح؟

كان يشير بيده إلى بناء يرتفع قليلًا عن مستوى الأرض ويقبع متخذًا من موقع المسجد القديم الذي شارك ماهر في هدمه مع أحمد بك كاظم بالحيلة مستقرًّا له.. وقد ظهر نفر كثيرون حوله..

أجابه في ضيق:

- هذا ضريح الشيخ عبد الدايم هل تتذكره؟

أومأ ماهر بالإيجاب والدهشة تطل من عينيه لتلحق بنبرة الاستنكار وهو يسأله في لهفة:

- الشيخ عبد الدايم صار له ضريح ؟ ومريدون أيضًا؟

- نعم وبالمئات وهناك من يأتي من قرى أخرى بعيدة في الأعياد والمواسم الدينية.. الشيخ عبد الدايم صار له من اسمه نصيب..

قالها وهو يضحك مسترسلًا:

- فهو الذي أفتى لك بجواز هدم الجامع، وهو نفسه الذي أفتى بأن الله غضب على كاظم بك لعدم بناء مسجد فسخطه قردًا، والأهالي صدقته في المرتين وصارت تتبارك به وتطوف حول مقامه وتتمسح به أملًا في إنجاب طفل ذكر أو شفاء مريض.. وقد ارتفعت أسهمه وذاع صيته أكثر عندما صار نجله الأصغر صادق شيخًا مشهورًا في القاهرة يستضيفه التليفزيون كل أربعاء قبل نشرة الأخبار بقليل ليلقي موعظة قصيرة.. ها هو أمامك الآن..

ثم فرد ذراعه ناحية الضريح مردفًا:

- الذي يرتدي عباءة سوداء ويقف أمام الضريح تمامًا.

أدار ماهر وجهه ناحية الضريح وهو يهز رأسه في أسى:

- لا أعرف صادق ولم أره من قبل..

ثم أعطاه ظهره وترجل متجهًا نحو بيته القديم فناداه منصور:

- أمرك عجيب ولا أفهمك أبدًا فبعد ست سنوات قضيتها في السجن يكون أول مطلب لك بعد خروجك أن نأتي إلى هنا؟ ثم إلى أين تتوجه الآن؟! لقد هُدم بيتك منذ سنوات ولم يعد له وجود..

أشار له ماهر بيده إلى الشجرتين اللتين كانتا أمام بيته ولاتزالان في مكانهما ملتصقتين من جذرهما.. ولم يرد على سؤاله.. فقد أخفى عن منصور أنه سيتوجه بعد ذلك إلى الأقصر للقاء سعيد الخضري وبعض تجار الآثار لبدء نشاطه من جديد. وبسبب تعديل بسيط في موعد اللقاء رأى أن يزور بلدته بعد أن هجرها خمسة عشر عامًا..

ابتسم منصور الطيب وهو يهرول خلفه حتى جلسا تحتها يستظلان بظلها ويستندان بظهريهما إلى جذعها الضخم وكل منهما ينظر إلى ناحية.. شرد منصور الطيب في ذكريات طفولته وسرواله الأبيض الواسع الذي كان يستحم به ثم يخبئه أسفل الشجرة ليجف حتى لا يؤنبه والده على نزول الترعة.. تحسس بيده موضع بعض أعواد النعناع الصغيرة التي كان يزرعها بالقرب منها.. طاف بخياله اختباؤه خلف الشجرة لرؤية نبوية شقيقة الخولي جلال وهي تجمع المحصول من أرض كاظم بك ومناجاته لها من بعيد وضحكتها الخجلة لرؤيته بينما يظن نفسه متواريًا عنها بينما هي تراه بوضوح حتى صارت زوجة المستقبل.. هز رأسه في أسى على حاله ثم نفذ بعينيه بنظرة ثاقبة اخترقت وجه ماهر الذي كرمته الدولة بالإفراج عنه يوم 6 أكتوبر 1983 بعد أن أمضى ست سنوات بالسجن لسرقة تاريخها بينما نسيته الدولة وهو من كتب تاريخ بطولاتها على مدار ست سنوات مماثلة أمضاها بالجبهة!! كان ماهر يعبث ببوصة صغيرة ليرسم بها دوائر متداخلة كعادته.. شاردًا في والده الذي طالما اصطحبه وهو صغير إلى المنطقة الجبلية حيث كان يعمل وكيف انبهر بالتماثيل التي تخرج من قبورها لتبدأ رحلة خلود غير متوقعة على أيدي الأحفاد.. سرح مليًّا في إخفائه لقطع الآثار الصغيرة الفخارية التي كان يعثر عليها في أرضه ويلفها بورق الجرائد القديمة ويدفعها بيده داخل التجويف العميق حتى لا تمتد إليها يد غريب أو عابث.. وكيف أخفى عن أبيه خفير الآثار بمنطقة أخميم هذا السر حتى مات فجأة أثناء فلاحته لقراريطه المحدودة.

تبادلا النظرات بينهما ثم حولاها إلى جذع الشجرة فوجدا حجرًا ضخمًا قد سد التجويف فابتسما وحاولا تحريكه فأخفقا.. ضحكا عاليًا على تعليق منصور الطيب بأنهما قد تجاوزا مرحلة الشباب وحلت بهما شيخوخة مبكرة جعلت تحريك الحجر مستعصيًا عليهما.. ساعات طويلة مضت وهما يجلسان تحتها ويتجاذبان أحاديث وذكريات.. لفت نظرهما أن الجمع الملتف حول الشيخ صادق لا يزال على حاله إن لم يزد وكأنه لا يريد أن ينفض فاستوقفا أحد الفلاحين الذي تصادف مروره بالقرب منهما وسألاه في دهشة فزادهما استغرابًا عندما رد بعفوية:

- الشيخ صادق حضر للتبارك بمقام أبيه المرحوم الشيخ عبد الدايم واختار الضريح تحديدًا لأجل عقد مؤتمره الانتخابي فهو مرشحنا عن أخميم وإن شاء الله سيفوز. لقد بنى ثلاثة مساجد بالقرية ومركزًا لتحفيظ القرآن وافتتح مخبزًا آليًّا جديدًا!!

كانت الشمس قاربت على المغيب فنفضا ملابسهما بعد أن تأهبا للمغادرة وسارا مبتعدين عن الشجرة التي بدت وكأنها تراقبهما بعدما كبرا حتى غابا تمامًا وراءكتلة المباني الأسمنتية التي احتلت مساحات كثيرة من الأرض فأضاعت ملامحها..

فجأة ظهر رجلان بجلابيب بيضاء قصيرة وحليقي اللحية أحدهما ضخم الجثة قوي البنيان اقتربا بحذر من جذع الشجرة.. وقف الرجل الضخم في المواجهة بحيث يصنع بجسده ساترًا لزميله الذي اتكأ على ركبتيه ونزع الحجر بصعوبة بالغة حتى أبعده قليلًا ثم مال بجسده وفرد ذراعه داخل التجويف ليخرج

لفافة بالية من القماش الرمادي الباهت على شكل صرة تحوي أجسامًا معدنية بيضاوية الشكل أخذها بهدوء وأعاد الحجر لمكانه ثم انصرفا من الناحية الأخرى وبحوزتهما خمس قنابل يدوية صغيرة أخفياها بين طيات ملابسهما حتى بلعتهما حقول القصب الكثيفة المجاورة.. بعدها بقليل تحرك موكب الشيخ صادق وسط دعوات مريديه القليلين بالستر في حين كان قرص الشمس يتوارى خلف المباني البعيدة معلنًا بدء حلول ظلام دامس..!!

***

38

الـزواج

كتب سعيد الخضري اسمه ثلاثيًا ثم أدار الدفتر وناول منصور الطيب القلم ليوقع بدوره ثم تبادلا التهنئة والعناق الحار مع ماهر وقدما التحية والمباركة في احترام لزوجته ناجية الشافعي وانصرفا صحبة المأذون وثلاث من صديقات ناجية المقربات اللاتي حضرن عقد القران بعد أن امتنع أقاربها عن الحضور ومباركة الزواج..!

جلست ناجية خجلة وهي ترتدي فستانًا أزرق فاتحًا بلون السماء الصافية أضاف لبشرتها السمراء جاذبية بينما كان ماهر منشغلًا في لف سيجارة من الحشيش الجيد نفحه إياها سعيد الخضري ليستهل بها ليلته الأولى معها.. بدأ ماهر ينزع عنها ملابسها قطعة تلو الأخرى.. كعادتها كانت ناجية تحمل بين جوانبها شخصيتين متناقضتين.. المستهترة اللاهية كما تظهر من الخارج وصاحبة المبادئ الواثقة في نفسها ولا تريد أن تفعل شيئًا في الظلام ولديها خطوط حمراء كثيرة عن الأخلاق والضمير لا تتخطاها أبدا.. لم تلن أبدا أمام آراء الآخرين فيها بأنها مستهترة وإنما آمنت بقدرتها على تحكمها في زمام أمورها وسيطرتها على مصيرها دائما وكأن استهتارها منمق ومرتب بعناية ولكن لا أحد يراه سواها..!!

كان كثيرون من أصدقائها ومعارفها قد عارضوا زواجها منه حتى شقيقها طلال أغلق في وجهها سماعة الهاتف عندما اتصلت به في كندا لتخبره بنبأ استعدادها للزفاف.. ولكنها كانت عنيدة متمردة كعادتها لم تستمع لنصائح صديقاتها وكلما نفروها منه التصقت به أكثر وعندما لاموها على زيارته في محبسه ازدادت شغفًا وتعلقًا به.. وجدت فيه رجلًا يجذبها ولم يعد لديها ما تخسره بعدما اقتربت من الأربعين.. سئمت حياة السهر والطامعين فيها.. لم يملأ أحد عينيها بما يجعلها تسلمه قلبها ولم ترغب في التنازل عن جسدها في علاقات عابرة ولم يثرها أحد مثلما عبث ماهر بعواطفها حتى ثارت أنوثتها معلنة عن بركان خمد لسنوات وآن له أن يقذف حممه كلها اليوم..

إحساس غريب فجأة انتابها مشوب بقليل من الخجل وكثير من الرغبة حتى احمرت وجنتاها رغم سمار محياها.. توارت الجرأة حتى انزوت وارتبكت ناجية حتى رجفت شفتاها ورفرفت جفونها كطائر يجدف في الفضاء بقوة ليحلق بعيدًا في تجربة الطيران الأولى رغم أنها زيجتها الرابعة.. تسمرت في مكانها أمامه مجسدة لوحة البراءة بينما زحف ماهر ببطء حتى اتكأ على حافة الفراش باسطًا ذراعيه وكفيه الكبيرتين أمامها مناديًا إياها بلهفة ممزوجة بالشهوة فأطرقت كفتاة لا تزال تحمل حقيبة طفولتها على ظهرها وأغمضت عينيها ثم استسلمت في رقة ووداعة للسوهاجي الذي تلوى بجسده حتى احتواها ثم راح يعتصرها بشدة حتى ذابت تمامًا بين ذراعيه!!

***

مرت الأيام وكان شعورها تجاهه مزيجًا غريبًا وخاصًّا في ذات الوقت بين الرغبة والعاطفة.. في أحيان كثيرة كانت تشعر أنه طفلها الكبير المدلل وفي أوقات أخرى كان يغمرها بحنان أب افتقدته فجأة بدون مقدمات وكان قبلها هو السند والعون.. عاشت مع ماهر الذي كانت له فيها وجوه عديدة أدهشتها وأخافتها في أحيان كثيرة.. كانت تدرك أن لديها أنوثة طاغية تجذبه إليها وتغلبه بها دائما فيلين ويضعف كمن

تخور مقاومته عند أول اختبار.. أما هيئتها الأرستقراطية التي لا تجد لها مرجعًا أو سندًا من أصول عريقة لعائلتها فقد استغلت تفاخره بها ليظل أسيرًا لها.. أغدق عليها بالمال وإن كان قد أخفى عنها مصدره بعد أن أدار حانوت والدها مرة أخرى في تجارة لعب الأطفال حتى قضى على غريمه جاكوب في منافسة شرسة.. كانت لأمواله التي تكاثرت كالنمل في سنوات قليلة فضل كبير في تكوين غطاء قوي عاونه على إنهاء تجارة جاكوب وغيره تمامًا حتى بات على حافة الإفلاس راجيًا ماهر أن يعطيه فرصة بهذا السوق ظل يتلذذ الأخير بمذلته ويأمر صبيانه بسكب جرادل مياه قذرة عليه كلما اقترب من حانوته.

ساعده سعيد الخضري بعلاقاته مع تجار الآثار في الصعيد على تكوين إمبراطورية صغيرة تنقب في الخفاء وتسرق في الظلام وتهرب القطعة تلو الأخرى في طي الكتمان داخل تجاويف طرود وحاويات لعب الأطفال التي كان يستوردها من دول شرق آسيا ويعيد تصديرها لبلدان أخرى.. كان يُغرق السوق في مصر بلعب أطفال حقيقية لكي يقضي على جاكوب وغيره من التجار تباعًا ولا يهمه مكسبه بقدر خسارة الآخرين.. جنى الملايين من تهريب الآثار حتى تضخم وقبل أن تنتهي حقبة التسعينيات كان رصيده في البنوك السوىسرية تجاوز العشرين مليون دولار بقليل..

عاد ليستخدم وسيلته الأثيرة كف مريم في كل صفقاته بعد أن جعلها تتناسب مع معطيات العصر الجديد وفي كل مرة كان يبتدع طريقة تهريب مختلفة عن سابقتها حتى حارت معه أجهزة الشرطة وفشلت في تعقبه فأجبرته مرة ثالثة على التعاون معها مرشدًا ومبلغا عن غيره من كبار التجار فصادف قرارها قبولًا لديه تلك المرة كي يتخلص منهم تباعًا وصار بعدها مهربًا دوليًّا معروفًا لا يخلف وراءه دليلًا واحدًا على إدانته وفي ذات الوقت أمام المجتمع رجل أعمال شهير لا يملك تبريرًا لثروته الطائلة ومع ذلك لا يسأله أحد من أين لك هذا ولا يضبط أبدًا وظل يقدم عشرات القرابين لرجال الشرطة بإرشاده عن تجار الآثار المنافسين وكأنها أضحية مقدسة لابد من ذبحها في موعد محدد من كل عام.. حتى تحولت أسطورة السوهاجي إلى باب ثابت من أبواب التندر على المضحكات المبكيات في أرجاء المحروسة ليلحق بمتناقضات مماثلة سبقته بمصطلح صحفي تكرر كثيرا في الصحف المعارضة بعنوان «الرجل الزئبقي والجماعة المحظورة»!!

خمسة عشر عامًا مرّت تكاد أيامها أن تكون متشابهة رغم أن الناس تبدلت أخلاقها تمامًا والحياة غيرت من سلوكياتهم إلى الأسوأ فظهرت على السطح طبقات لم تكن موجودة وكأنها أجسام غريبة طافية تؤذي العين وتعكر صفحة الماء الرائقة.. مناخ ملبد بسحب الجشع ساعد على نمو ماهر وصعود نجمه إلى عنان السماء فتشعبت علاقاته وتداخلت حتى تشابكت مع مسئولين كبار ولكن غالبيتهم كانوا من الصف الثاني فلم يكن في مقدوره الوصول إلى الصف الأول بعد.. ولكنه لم ييأس وظل يحاول بشتى الطرق غير المشروعة لبلوغ غايته حتى أدركها في الألفية الجديدة زادته العلاقات المشبوهة رسوخًا بعد أن انهالت المنافع على الفاسدين كالسيل فمن إيداعات بالبنوك بأسماء الزوجة والأولاد إلى أرباح غير حقيقية لأسهم مشتراة بمعرفته بالبورصة إلى مشاركات مستندية في مشروعات كلها بالمصادفة البحتة تدر أرباحًا خيالية ولا تخسر أبدًا..!!

على الجانب الآخر كانت القطع الأثرية تتسرب في هدوء عبر المنافذ الرسمية والعيون التي تلحظها تتكسر دومًا تحت وطأة بريق المال فلا أحد يرفع رأسه أبدًا.. صار لديه شبكة واسعة تضم العشرات من أمثال محمد حسن موظف الجمارك المرتشي الذي لو كان الله أطال في عمره وعاش حتى شاهد صبيانه وهم يرتشون بمئات الألوف لمات مرة أخرى حسرة على الخمسمائة جنيه التي كان يحصل عليها من الشافعي الكبير مغامرًا بسمعته وحريته..!!

صار الفساد مهنة وباتت الرشوة هدفًا لكثيرين ممن اعتلوا مناصب في غفلة من الزمن فالتصقوا بها لسنوات طويلة لم يتزحزحوا منها قيد أنملة فكونوا من ورائها ثروات طائلة.. وبينما هم ينحنون كل مرة

ليغترفوا من أموال السوهاجي كان هو يصعد برشاقة وخفة على ظهورهم ثم يعتليها باقتدار حتى يبلغ غايته..!

أما ناجية فقد بدأت تشعر بغربة معظم الوقت فسرت برودة جفاء العلاقة بينهما بعد سنوات من الاشتياق واللهفة التي كانت لا تبرد أبدًا.. مع الوقت تسربت الرتابة إليهما في هدوء حيث اكتشفت فيه شخصًا آخر فظًا غليظ القلب مع من يتعامل معهم.. جشعًا ذا نهم لا يشبع أبدًا.. همجي الطباع.. قاسيًا لدرجة العنف أحيانًا.. انزوت الرقة والرومانسية التي تظاهر بهما كثيرًا وحلت الشهوة الحيوانية بدلًا منهما.. فتعجبت من قدرته على ارتداء قناع الرحمة لسنوات طويلة مضت ثم اندهشت أكثر لتركه القناع يسقط ببطء فلم يعد يكترث لسقوطه أبدًا.. أدركت متأخرة أن الزمن لا يغير الناس وإنما يكشف عن حقيقتهم تباعًا.. فقد كان يراها جزءًا أساسيًّا لاكتمال واجهة حياته الجديدة فهي زوجة عصرية متعلمة اجتماعية تحظى باحترام وحب الجميع فحرص على بقاء الصورة في إطارها بحيث لا تهتز أبدًا حتى عبر بها إلى مجتمعه الجديد.. وهي بدورها استسلمت لحياتها الجديدة.. استمتعت بالثروة ولكنها لم تقف على مصدرها الحقيقي أبدًا.. ولم يدر بخلدها أبدًا أن في باطن لعب الأطفال المختلفة الأشكال والأحجام ترقد الحقيقة.. لم تستسلم لوحدتها كثيرًا فانشغلت بالعمل الاجتماعي ثم وجدت في حفيدتها مريم ابنة أشجان سلوتها الوحيدة التي نجحت في سد الهوة السحيقة في حياتها مع ماهر فشغلتها تمامًا..

***

39

لمحات من زمن رديء

دلف ماهر إلى الغرفة الزجاجية التي تقبع في نهاية المدخل الشرقي لحديقة قصره بالمنصورية وتحوي بعضًا من أجهزة التريض واللياقة البدنية حيث تخفف من ملابسه عدا سرواله وتمدد على طاولة بيضاء مخملية مستسلمًا تمامًا لأصابع شادي الذي يتولى تدليكه مرة كل أسبوع منذ أن تعرف عليه بالنادي الصحي بأحد الفنادق الشهيرة الذي كان يتردد عليه صحبة جوقته الجديدة..

قطع ماهر الصمت بعد أن شعر ببعض الملل فأراد أن يثرثر قليلًا على غير عادته ليسلي وقته:

- قل لي ياشادى.. ما أحوال البلد هذه الأيام؟

- فاجأه شادي وكأن ماهر قد داس على زر أحلامه الموءودة قائلًا: من سيئ إلى أسوأ..

رد ماهر في برود وهو يقلب جريدة الأهرام المفرودة على طاولة منخفضة أمام رأسه ويتناول بعضًا من حبات الفستق:

- لماذا؟! في حدود معلوماتي أن الدولة تعمل ما في وسعها لإيجاد فرص عمل للخريجين وهناك تحسن في الدخول على ما أسمع..

رد المدلك خريج كلية الطب منذ سبع سنوات والذي لم يستطع أن يفتتح عيادة خاصة به فعمل مدرسًا للتربية الرياضية بإحدى المدارس الخاصة في الصباح.. ومساءً كان يعمل مدلكًا بأحد النوادي الصحية:

- الجميع يائس يا باشا وهو يأس أسود خلاف الذي كنا نعرفه في الماضي فهذا اليأس الوافد إلينا هو الذي يؤدي إلى التطرف في كل شيء.. في السلوك وفي الأفكار وفي المشاعر أيضًا.. وطبيعي أن يكون العنف نتيجة منطقية لذلك.. بعد أن فقد الكثيرون القدرة على الحوار وعلى المواجهة والمناقشة الموضوعية.. أنا شخصيًّا أشعر دومًا بأن روح القلق والتوتر تسيطر على تفكيري أغلب الوقت ولديّ إحساس عارم بالاغتراب الاجتماعى.. ويسيطر عليّ شعور قوي بأنني لن أستطيع السيطرة على مصيري ولا أملك زمام أمورى..!

قاطعه ماهر في ضيق:

- ولكن الوزراء يبذلون جهدًا كبيرًا.. ماذا تريدون منهم أكثر من ذلك؟

قالها وهو يشير لخادمة فليبينية بأن تقرب كأس عصير اللوز المخفوق باللبن لتكون في متناول يده..!

رد شادي في سخرية رغم الدموع التي لمعت في عينيه:

- الوزراء لدينا خلاف أي دولة فهم لا يخطئون أبدًا منزهون دائمًا عن الأخطاء وبالتالي لا يعرفون متى أخطأوا أو لماذا أخطأوا وليس لديهم الشجاعة لأن يقولوا ذلك.. ويفتقدون أيضًا ثقافة الاعتذار وتنعدم لديهم تمامًا جرأة ترك المنصب للإحساس بالمسئولية.. والحكومة لا تفعل أي شيء للشباب وإلا لما تركوهم يموتون غرقًا في البحر..

ثم أردف في أسى:

- على أي حال أنا أحسن حالًا من غيري فلديّ وظيفتان أحصل منهما على ألف جنيه شهريًّا وأعلم أن غيري لا يجد ما يقتات به حتى راهن على حياته بعرض البحر ومنهم شقيقي الأصغر على سبيل المثال عليه رحمة الله.. وهناك آلاف مثله بالتأكيد.

قالها وترقرقت دموعه ولكنها أبت أن تنساب.

رد ماهر بعد أن اعتدل وتقلب على الطاولة وهو يتأفف:

- ولكن هناك حماس كبير من الحكومة والحزب لمشروعات كبيرة قادمة.. اقرأ جريدة الأهرام وستجد تصريحات وقرارات اقتصادية هامة للرئيس اليوم.. هناك حماس جارف من الحكومة والحزب هذه الأيام للإصلاح الاقتصادى.. تفاءل يا شادي..

عندما ردد كلماته الأخيرة على مسامعه أعمل شادي كفيه في حركة لا إرادية بشدة على كتفي ماهر وأسفل رقبته حتى اندمج بغير وعي فشعر ماهر بضيق في تنفسه.. ولم يخرجه من تلك الحالة العارضة إلا التفاتة غاضبة له فأجابه شادي بحنق على سؤاله:

- حماسة ظاهرية يا باشا دون عمق.. حماسة لا تقوم على علم أو معرفة.. حماسة أشبه بشعارات جوفاء هدفها وسائل الإعلام لخلق صورة جميلة لقائلها والسلام..

لم يعقب ماهر فقد كان الملل قد تسرب إليه واحتل وجدانه من انتقادات شادي وصار معبأ بسحب من الضجر فدفع إليه بالجريدة ليسكته.. فتعلل شادي بأنه لم يعد يهتم بقراءة الجرائد فكلها تحوي أخبارًا متشابهة وغير حقيقية.. انشغل عنه ماهر بوضع بعض المال في مظروف صغير بعد أن أجزل له العطاء تلك المرة لعله يغير من آرائه. ولما ناوله المظروف النقدي وجده يهز رأسه قائلًا:

- لا بأس بهذه القرارات فهي خطوات إصلاح حقيقية..

ثم فجأة لمعت عيناه وأطلت ابتسامة واسعة من بين شفتيه فابتسم ماهر بدوره وهو يسأله السبب فضحك شادي وهو يُشير له على تاريخ صدور الجريدة التي قرأ ماهر فيها عن القرارات الاقتصادية الهامة لإصلاح المسار والقضاء على الفقر فوجدها صادرة منذ ما يزيد على بضع سنين!!

***

«ولكن من المؤكد أن ذلك الوضع لن يدوم طويلًا.. سيكون فقط إلى حين»..

قالها كمن يحدث نفسه بصوت عال.. التفت إليه سعيد الخضري مستفسرًا بعينيه عن هذا الوضع الذي لن يدوم.. فأجابه ماهر بنبرة المرشد المتمرس منذ أن تعاون مع المخبر سيد من سنوات بعيدة:

- لا تظن أن الشرطة ستتركنا ننعم بما نحن فيه كثيرًا لابد وأن يحرقونا يومًا ما وكلما يمر الوقت أشعر بدنو اليوم واقترابه.. أن تكون مرشدا للشرطة يا خضري فإن ذلك لا يعني سوى أمر واحد فقط أنك الخانة الخالية في دفتر الجرائم المجهولة الفاعل وستكون دائمًا مرتكب الجريمة الأخيرة التي يجب أن تسدد ثم يفتحون دفترًا جديدًا لغيرك وهكذا يصنعون مرشدًا آخر.. دورة حياة يمر بها كل المرشدون ونهايتها لا تخرج عن أمرين القبض علينا أو تصفيتنا تمامًا إنه أمر أشبه بالموت كلنا ننتظره بعض الوقت ولا أحد منا يعيش خالدًا أبدا.. الطريقة فقط هي التي تختلف.

قاطعه سعيد الخضري متحمسًا غير قانع بما سمعه:

- ولكنك أرشدتهم عن أشخاص لم يتخيلوا أبدا أنهم سيقبضون عليهم يومًا بهذه الدقة وكلها قضايا سددت وحصلت على أحكام.. يكفي أنك خلصتهم تمامًا من أذناب عائلة الناجي وأجبرت الجيل الثاني والثالث منها إلى هجرة تجارة الآثار وتأجير إسطبلات خيل بمنطقة الهرم..!! كما أرشدت عن تجار آخرين في

الصعيد والوجه البحري.. أنت إدارة مكافحة يا حاج ماهر.

ابتسم السوهاجي في مكر مختلط بالفخر بمقادير متساوية وهو يقول:

- حتى ذلك الجميل لن يغير من نظرتهم إلينا شيئًا، فالمرشد يقبض الثمن في ذات اللحظة التي يقدم فيها القربان للشرطة.. أنت تسلم الضابط متهمًا بمضبوطاته وأدلة إدانته فتسد رمقه مؤقتًا فينشغل به ويتغافل عنك بينما أنت تحفر وتأخذ ما تريد وتسافر بالقطع الأثرية بصورة مؤقتة أيضًا حتى يجوع الضابط مرة أخرى ويأتي موعد الوجبة التالية وإن لم يجدها سيلتهمك فورًا!! نحن ثمرة ناضجة في قبضة الشرطة لا تتركنا أبدا حتى نجف ونذبل!!

قام ماهر من رقدته على الأريكة الخشبية التي كان يتمدد عليها وسط حديقة قصره الشاسعة بالمنصورية واقترب من السيدة اليابانية التي جلبتها ناجية لتعمل لديهم منسقة للزهور والنباتات حيث جذب منها الرشاش ومضى يسقيها بلا دراية حتى أغرقها وغرقت معها السيدة اليابانية في دهشة كانت تطل من بين عينيها في أسى.. ولكن أدبها الجم منعها من الاعتراض فاكتفت بالإطراء في صمت وهي تضم كفيها إلى صدرها وتنحني أمام سيدها.. في حين مضى ماهر يقول وهو مستمر في غمر الورود بالماء بلا حساب:

- النفوذ والمال وجهان لنفس العملة يا خضري.. وإذا ما انشغلت بواحدة منهما على حساب الأخرى ستفقد الثانية التي لديك في غمضة عين هذا هو المنطق السائد في مصر اليوم.. وأنا لا أريد أن أفقد شيئًا أو أعود للسجن مرة أخرى..

أجابه سعيد الخضري وهو يأخذ منه الرشاش بهدوء ليعيده للسيدة اليابانية التي كادت تفقد صوابها جراء ما فعله ماهر بحوض الزهور النادرة:

- ما الذي ينقصك؟ كبراء ووزراء ولواءات شرطة يتمنون صداقتك.. أنت بالنسبة لهم الآن كالنور للفراشة فهم يسعون إليك ليدوروا في فلكك ومن لا يعجبك منهم فليس عليك سوى أن تظلم وجهك أمامه فيرحل مبتعدًا ليبحث عن غيرك.. وهؤلاء جميعًا هم سندك وقت اللزوم..

هز ماهر رأسه رافضًا الفكرة وأمسك بشيشته وجذب أنفاسًا متلاحقة طويلة ثم مضى ينفث الدخان بهدوء وهو يقول:

- هؤلاء الذين تتحدث عنهم يقفون بجواري من أجل أموالي وظنًا منهم أن لديّ نفوذًا حقيقيًّا دائمًا لدى غيرهم أو من على شاكلتهم من رؤسائهم بينما هو في حقيقته مؤقت وأحيانًا كثيرة مزعوم.. فإذا ما سقطت سينفضون أيديهم مني وينفضون عني ليحافظوا على استمرار بقائهم بدعمهم لغيري.. أنا أريد نفوذًا حقيقيًّا خاصًّا بي وحدي أصنعه بنفسي كالمال الذي كونته.. فيجذب الأقوياء حولي فلا أسقط أبدًا وأنا وسطهم..

- إذًا عليك بالانضمام للحزب فهو أقصر طريق لما تريد..

رجع ماهر بظهره في كرسيه الواسع وهو يجيبه:

- أنا عضو بالحزب منذ عام 1990 ولكن هذا لا يكفي.. إذا أردت الحماية الحقيقية فلابد أن أكون بالأمانة العامة أو على أقل تقدير نائبًا بالبرلمان حتى أصير قريبًا من دائرة صنع القرار..

- ولكنك لا تُحب السياسة وتقول دائمًا إنك لا تفهم فيها فكيف ستصنع القرار؟

رد ماهر مبتسمًا وهو يطبق بأسنانه على مبسم الشيشة قائلًا:

- لن أصنعه.. سأكون الراعي الرئيسي له فقط.. وهذا سيكفيني شرورًا كثيرة من متخذيه..!

***

لم يكد العميد شريف أبو النجا يدخل مكتبه حتى كان الهاتف الأحمر يدق بشدة وما أن رفع السماعة حتى جاءه صوت مساعد أول وزير الداخلية يوبخه ويعنفه بشدة وكأنه هو الذي نفذ حادث مقتل السائحين الأجانب بالدير بالبحري بمدينة الأقصر..!

- نحن لم نقصر وما توافر من معلومة للجهاز تعاملنا معها وفقًا للمنطق فليست كل المعلومات حقيقية وكثير منها كاذب وملفق كما لا يمكن اعتبار جميع الجماعات متطرفة وليس كل من أطلق لحيته إرهابيًّا وإنما هناك ظروف سياسية وعناصر خارجية قد.....

لم يكمل العميد شريف حديثه فقد انفجر فيه اللواء مساعد الوزير قائلًا:

- نحن أمام كارثة حقيقية ورئيس الجمهورية يمنع وزير الداخلية من العودة معه على نفس الطائرة ويصف عملنا بالتهريج الأمني وأنت تحدثني عن ظروف سياسية وعناصر خارجية.. اعتبر نفسك من اليوم في أجازة مفتوحة لحين إشعار آخر..

وسمع العميد شريف الهاتف يغلق بعنف في وجهه لدرجة أن اهتز معه رغم وقوفه من بداية المحادثة..!

أعاد العميد شريف السماعة إلى موضعها بهدوء ثم تهاوى على مكتبه كبناء ضخم تم تفجيره من الداخل فانهار في لحظات قليلة.. وضع رأسه بين راحتيه وأغمض عينيه.. تذكر كلمات العقيد هشام فتحي عن الأوركسترا التي يعزف أحد أفرادها عزفًا منفردًا أحيانًا بتوجيه من المايسترو..

فتح عينيه في تكاسل وهو يتساءل مع نفسه:

- يا ترى هل أخطأ عندما أقنع وزير الداخلية السابق بوجهة نظره مما جعله يؤيده فيما عرضه عليه بأن هؤلاء يعملون في النور وفي مجال الدعوة فلماذا لا نعطيهم الفرصة؟..

تجهمت ملامحه وهو يتذكر الحادث الإرهابي الذي وقع فجر اليوم في الأقصر ومقتل عشرات السائحين.. قال لنفسه:

من أي رحم تخرج تلك الجماعات إذًا إذا كانت التي على الساحة كلها تنبذ العنف وتدينه؟ لابد وأنها أصابع خارجية فلا يمكن أن يكون صادق وجماعته وراء كل ذلك وهو من أكبر المتعاونين معنا. وأهم مرشدينا لكن متى وكيف يتكاثرون هكذا حتى يستفحل أمرهم ونفاجأ بهم كل مرة بعد وقوع المصيبة..؟ ولماذا لم تُعد المتابعة ترصدهم بدقة؟! لماذا أصبحنا متأخرين بخطوة دائمًا في السنوات الأخيرة؟! كبرت علامات الاستفهام في رأسه فحملها على كتفيه ثقيلة عائدًا إلى منزله ليقضي أجازة مفتوحة بأمر من رئيسه.. ولا يشغله في الأمر إلا كيفية عودته لعمله مرة أخرى..

***

40

توفيق المحلاوي

اقتربت السيارة المرسيدس السوداء الفارهة ذات الستائر الداكنة السميكة من مقر السفارة الإفريقية بحي الدقي حتى توقفت أمام بوابتها الصغيرة.. وقف حارس السفارة بالقرب من باب السيارة منتبهًا في حين هرع سائقها ليفتحه لماهر السوهاجي الذي رد تحية الحارس الإفريقي في برود ثم مرق كالسهم في اتجاه مكتب السفير في اجتماع مغلق اعتادا على عقده كل أربعة شهور.

بعد نصف ساعة خرج ماهر مستقلًا سيارته وهو يعيد دفتر شيكاته لموضعه بجيبه وابتسامة عريضة تعلو وجهه ثم شرع في طلب رقم بهاتفه المحمول وما أن جاءه صوت سعيد الخضري على الطرف الآخر حتى قال ماهر في حزم:

- تمام يا سعيد استعد في الميعاد..

ثم ذكر اسم الدولة الإفريقية التي التقى سفيرها بالقاهرة منذ قليل.. وأنهى المحادثة طالبًا من سائقه التوجه إلى محل طلعت حرب.

انحرفت سيارة المراقبة التابعة لهيئة الرقابة الإدارية يسارًا من ميدان طلعت حرب بعد أن تأكد الضابط من كون ماهر في طريقه إلى حانوت الشافعي الكبير الذي أعاد تشغيله منذ أكثر من عشر سنوات في تجارة لعب الأطفال وبات يقضي فيه معظم نهاره كالمعتاد.. فعاد ضابط الرقابة إلى مقر عمله بينما ذهنه يعمل بكل طاقته لإيجاد الصلة التي تجمع ماهر بسفير تلك الدولة الإفريقية التي تعاني وضعًا اقتصاديًّا سيئًا لا يحتمل رفاهية استيراد لعب أطفال بعملة صعبة خاصة أن أهلها يتضورون جوعًا منذ سنوات جراء حروب أهلية عصفت بالأخضر واليابس.. لم يجد إجابة على تساؤلاته.. أما عبارة كف مريم التي سمعها من خلال التنصت على هاتف ماهر فقد اختار أن ينحيها جانبًا مؤقتًا بعد أن حار تمامًا في تفسير معناها...!!

***

- حمدًا لله على سلامتك يا معلم سوهاجي..

خرجت الكلمات بطيئة متحشرجة من بين شفتي عجوز يستند على عصا ويضع طاقية بيضاء متسخة ذات ثقوب واسعة على رأسه.. تأمله ماهر في قرف واشمئزاز من هيئته الرثة وملابسه البالية.. كان طويلًا نحيلًا أسمر البشرة نبتت لحيته بلا تهذيب في عشوائية واضحة، عيناه مجهدتان وحمراوان بشدة يبلل شفتيه بلسانه في حركة تبدو لاإرادية وقد تساقطت معظم أسنانه الأمامية.. أما ما تبقى منها فقد اختلط اصفرار لونه بسواد أشد من الزفت فزاد منظره كآبة..

ظنه ماهر شحاذًا فأشار إلى أحد صبيان الحانوت بأن يعطيه جنيهًا.. فاقترب الرجل وهو يتكئ على عصاه في عجلة كي يلحق به قبل أن يدلف إلى الحانوت وهو يحاول جاهدًا رفع صوته الواهن ليلفت انتباهه قائلًا بصوت مبحوح:

- أنا توفيق المحلاوي يا معلم سوهاجي..!

عقدت الدهشة لسان ماهر للحظات مرت بطيئة وهو يتفحصه في استغراب.. ثم زم جبهته قليلًا فقد كان يبحث عنه منذ سنوات لينتقم منه ولكنه لم يعثر عليه أبدًا.. كان توفيق قد اختفى تمامًا منذ القبض على السوهاجي وها هو الآن يظهر آتيًا من ماضٍ سحيق كشبح بعد مرور خمسة عشر عامًا أو يزيد على خروج ماهر من السجن..

رحب به ماهر بعبارات مقتضبة ووضع يده على كتفه معاونًا إياه على السير ودلفا معًا إلى الحانوت حيث حجرة المكتب.. وتوفيق يبتسم أحيانًا في بلاهة ويردد عبارات بعضها غير مفهوم وبعضها يحمل كلمات الشكر وطلب العفو مختلطة مع بعضها البعض بغير ترتيب..

ظل ماهر يتفرس في وجه توفيق بعينين متحجرتين وكأنه بلا روح بعد أن تحرك بركان الانتقام بداخله وبدأت حممه تغلي ببطء في قاع صدره في انتظار أن يثور فجأة.. إلا أنه كتم غضبه مؤقتا ليعطي نفسه فرصة للتمهل في اختيار الوسيلة التي ينتقم بها منه فقد كان السوهاجي يريد أن يذيقه أشد ألوان العذاب ولكن ببطء حتى يتلذذ بتعذيبه فتبرد ناره.. فبدا توفيق وكأنه حفر قبره بيديه بظهوره المفاجئ..

مضى توفيق يحكي بصوت واهن عن إدمانه الهيروين، بعد أن سُدت كل فرص العمل في وجهه، فأنفق مدخراته وكل ما تحصل عليه من طلال في صفقة الإيقاع بالسوهاجي على المخدرات، حتى بات فقيرًا معدمًا، فعمل موزعًا لها مع أحد التجار بالقليوبية، إلى أن قُبض عليه متلبسًا وقضى بالسجن خمس سنوات ولما أفرج عنه احترف التسول فلم تجد أيادي الكرام عليه بما يسد رمقه.

أقسم أمام ماهر مرتين، الأولى أنه لم يكن يقصد الإيقاع به وأن طلال هو الذي أبلغ الشرطة عنه، والثانية أنه أقلع تمامًا عن الإدمان وهو بالسجن، إلا أن عيونه الزائغة ورعشة يده الظاهرة والتي تسببت في بلل قميصه بالماء أثناء شربه، وحكه لأنفه كل برهة وما روته له ناجية من قبل كل ذلك أكد لماهر أن توفيق يتنفس كذبًا ولا يزال مدمنًا مثلما كان خائنًا من قبل..

استعطفه توفيق بأن يعفو عنه ويؤويه في مخزن الهرم فهو لا يريد أكثر من ذلك وأمام جمود ماهر حاول توفيق النهوض لكي يقبل قدميه.. فتعثر وهو ينهض من فرط وهنه وضعف جسده فتركه ماهر يسقط ويتكوم ثم فرد ساقه أمامه فقبل توفيق حذاءه وهو يتمتم بعبارات مختلطة بنحيب ولا يُفهم منها شيء سوى طلب الرحمة..

أشار ماهر في صلف لأحد صبيانه بأن يصطحب توفيق إلى القبو ويُعد له طعامًا وشرابًا ثم قال دون أن ينظر إليه:

- السرداب آمن لك من مخزن الهرم.. فمنصور الطيب يقيم به مع أسرته وأنت لديك سوابق الآن في تجارة المخدرات فلا داعي لظهورك.. انزل القبو واسترح وسأراك في الغد..

مضى توفيق يستند إلى صبي الحانوت أثناء نزول الدرج الخشبي المؤدي لأسفل وهو يدعو لماهر في كل درجة حتى اختفى عن نظره بعد قليل داخل القبو بعد أن أغلق عليه الصبي الباب من الخارج لحين إحضار الطعام.

في صباح اليوم التالي كان توفيق المحلاوي يستلقي بأحد الأركان مستندًا بظهره إلى الحائط عندما سمع صوت المقبض وهو يدخل في فتحة باب القبو فنهض في تكاسل وهو يستند بكفيه الكبيرين والتي برزت عظامه منهما على الأرض لتعاوناه على القيام.. كان القادم ماهر بمفرده.. ألقى عليه بالتحية ثم أشار له بالجلوس على الأرض أمامه فاستجاب توفيق في خنوع لطلبه.. سحب ماهر المقعد الخشبي القديم من خلف الطاولة التي كان توفيق يقلد القطع الأثرية عليها في الماضى.. وجلس بالقرب منه وهو يتكئ بساعديه على المسند بعد أن قلب وضع المقعد قائلًا:

- اسمعني يا توفيق جيدًا.. أنت أصبحت مدمنًا وستحتاج إلى جرعات من المخدر قريبًا بعد أن تفرغ

جعبتك..

حاول توفيق التلويح بكفيه بما يفيد أن هذا الكلام غير صحيح.. فأسكته ماهر بإشارة من يده المبسوطة في مواجهته وهو يقول:

- لقد فتشنا ملابسك أمس وأنت نائم وعثرنا على كيس صغير به مسحوق أبيض ناعم ومع ذلك تركناه لك.. لا داعي لأن تبرر لي أي شيء.. أنا متفهم ظروفك وسأساعدك وآويك هنا وفي ذات الوقت تستغل وقت فراغك في ممارسة هوايتك القديمة أم أنك نسيتها؟! قالها وهو يرمقه بنظرة خبيثة.

ابتسم توفيق وقد سال بعض لعابه من فمه رغمًا عنه فمسحه بيده المرتعشة وهو يهز رأسه موافقًا عدة مرات.. فاسترسل ماهر ضاحكًا وهو يهم بالنهوض والمغادرة:

- إذن موعدنا في الغد وسأحضر لك بعض القطع الأثرية معي لتقلدها..

قبل أن ينصرف ماهر قال توفيق بصوت ضعيف:

- ولكن القبو لا يوجد به شيء سوى هذه الطاولة وهذا المقعد؟! أين الأدوات التي سأعمل بها وأين صناديق الحيازة؟

رد ماهر وهو يجذب الباب خلفه بلامبالاة:

- لا تتعجل أمورك.. كل شيء وله أوان.. انتظر للغد وسنعد لك كل ما تريده وأكثر..

قالها ثم رنت بعدها في أذني توفيق صفقة باب القبو بشدة فعاد لمرقده وأخرج الكيس الشفاف الصغير من بين جنبات قميصه وبحث عن علبة ثقاب بجيبه حتى أخرجها ونزع غطاءها عنها وهو يرتعش فتساقطت عيدانها بين فخذيه.. تناول حفنة من المسحوق ثم شكل بها سطرًا متعرجًا وسرعان ما جذبه بشدة إلى إحدى فتحتي أنفه بعد أن كتم الأخرى بإصبعه.. استند قليلا إلى الجدار ورفع رأسه إلى أعلى وهو يفتح عينيه بشدة وشهق عاليًا وكأن روحه ستخرج ثم حك أنفه مرتين وأعاد الكيس لموضعه ثم راح في سبات عميق.

***

طوى ماهر الصحيفة وقسمات الارتياح تتربع على وجهه منفردة.. أراح ظهره على الأريكة الخشبية حيث اعتاد أن يجلس في حديقته قرب حمام السباحة.. كانت أشجان ابنة ناجية تسبح مع طفلتها الصغيرة وتلهو في الماء بينما ماهر يتابع الطفلة الصغيرة من خلف نظارته الشمسية السوداء الكبيرة التي أصر على أن يطلق عليها اسم مريم وكل برهة يشير لها بكفه ملوحًا وهي تبادله التحية ثم تغطس وتدفع جسمها بشدة إلى أعلى مرة أخرى ثم تخرج ماءً كثيرًا من فمها بعد أن اختزنته لبرهة فيضحك ويصفق لها..

اقتربت منه ناجية قائلة وهي تهم بالجلوس بجواره:

- ما الذي قرأته في الجريدة وجعلك تبتسم؟

ضحك ماهر وهو يقول:

- إذًا أنا خاضع للمراقبة؟ كيف لاحظتِ ابتسامتي من بعيد هكذا؟! لم ترد متجاهلة دعابته بوجه متجهم ففهم أنها لا تزال غاضبة منه منذ أن طلب منها إيداع جزء من ثروته بالخارج باسمها ولما علمت منه أن المبلغ المطلوب إيداعه بحسابها عشرين مليون دولار تمثل ثلاثة أرباع ثروته ببنوك سوىسرا انتابتها حالة من الفزع ممزوجة بالدهشة سرعان ما تحولت إلى شك دفين وغضب عارم عندما لم يفُصح لها عن مصدرها.. اختلق لها قصصًا وهمية كثيرة.. في البداية وتحت إلحاحها الشديد أخبرها أنه يتجر في الأسلحة لصالح دولة إفريقية فلم تصدقه بعد أن فشل في حبك روايته.. فاضطر لأن يقول لها

إنه يُدير أموال وزراء ومسئولين يثقون به ولا يمكنهم الاحتفاظ بثرواتهم في مصر فكذبته أيضًا بعد أن عجز عن إثبات صحة ما يقوله.. عاد يكذب فضاقت بأكاذيبه وقصصه المختلقة فجفت العلاقة بينهما حتى صارت جامدة ورفضت نقل الأموال إلى حساب باسمها ففاجأها أنه أثناء تواجده في زيوريخ الأسبوع الماضي قام بتحويل العشرين مليون دولار إلى حسابها الشخصي مستخدمًا التوكيل البنكي الصادر له منها مقررًا لها أنه فعل كل ذلك من أجلها وأجل ابنتها أشجان وحفيدتها الصغيرة مريم فهو يخشى غدر الكبار به فجأة.. افترستها الظنون والشكوك وبدأت تصدق شائعات تجارته وتهريبه للآثار التي تواترت في الفترة الأخيرة على استحياء ببعض الصحف المعارضة ولما واجهته بها قابلها بفتور شديد وكأنها أمر لا يمكن تصور وقوعه منه أبدًا..

حاولت كثيرًا استدراج بعض صبيانه فلم تفلح محاولاتها، فقد كان ماهر لا يأتمن سوى سعيد الخضري على أسراره وهو كالبئر العميقة فخرجت منه خالية الوفاض.. أما الباقون فكان كل منهم يعرف جزءًا يسيرًا من الحقيقة لا كلها مثلما علمه الشافعي الكبير حتى إذا ما سقط في قبضة الشرطة لا يكشف الأسرار كلها.. فكانت دائمًا معلوماتها منقوصة.. مجتزأة.

عادت تُلح عليه في سؤالها وهي تُقلب في الجريدة محاولة استنتاج الخبر الذي رسم البسمة على شفتيه لهذه الدرجة.. جذب منها الصحيفة برفق وهو يقول:

- الخواجة جاكوب أعلن إفلاسه رسميًّا وكنت أقرأ خبرًا عن التفليسة والدائنين.. سأشترى المحل منه ما رأيك؟

أشاحت بيدها بغير اكتراث وهمت بالانصراف ثم توقفت فجأة كمن تذكر أمرًا ملحًا:

- هل صحيح أن توفيق المحلاوي يبيت في حانوت طلعت حرب؟!

جز ماهر على أسنانه بشدة وهو يلعن صبيان المحل الذين أفشى أحدهم بالتأكيد أمر توفيق لها فرد عليها ببرود وكأنه موضوع عابر:

- نعم.. لقد حضر منذ أسبوع، وكان مريضًا جدًا فبات ليلة أو ليلتين على ما أذكر وأعطيته بعض المال وانصرف..

- انصرف إلى أين؟ ولماذا حضر إليك أنت بالتحديد؟ وأين كان طوال هذه المدة؟ ولماذا لم تخبرني؟

كانت مريم الصغيرة قد خرجت من حمام السباحة وجرت نحوه فاتحة ذراعيها فاحتضنها وهو يلاطفها متجاهلًا أسئلة ناجية المتلاحقة فلم يعد في مقدوره أو أي شخص آخر الإجابة على أي منها الآن.. فقد سبق السيف العزل!!

***

41

المزرعة

أزاح العميد شريف الستارة السوداء التي تغطي نافذة السيارة قليلًا ليتخلص من سيجارته فلمح تلالًا من القمامة بدت كسلسلة جبلية عشوائية تحجب رؤية شريان النيل وتزكم أنفه برائحة نفاذة.. أبطأ السائق من سرعته ليعطيه براحًا من الوقت.. فشاهد عجوزًا ترتدي زيًّا داكنًا متربًا باليًا يتعلق بذيلها أطفال صغار حفاة وهي تعبث بصندوق قمامة ضخم عسى أن تجد فيه ما يسد رمقهم ويُسكت صراخهم فامتعض وأعاد الستارة السوداء لموضعها بعد أن أحكم غلق النافذة وغاص في مقعده وأمر سائقه بزيادة درجة تبريد مكيف السيارة ثم أغمض عينيه..

في مزرعته الصغيرة التي لا تتجاوز ثلاثة أفدنة بالقرب من مركز الصف بالجيزة حيث اختار اللواء هشام فتحي التقاعد بعد خروجه إلى المعاش كان اللقاء الذي جمعه مع العميد شريف أبو النجا بعد إلحاح من الأخير فقد كان هشام شبه معتزل للمجتمع في سنواته الأخيرة بالخدمة ثم انعزل تمامًا بالمزرعة التي صار يقيم فيها ببيت ريفي صغير بصفة دائمة مع زوجته بعد زواج أولاده فلم يعد في المدينة وصخبها ما يغريه بالعودة إليها مرة أخرى..

أشعل اللواء هشام فتحي سيجارته بعدما استمع لهواجس شريف ونظر إلى وجهه الذي كان يعتريه الإجهاد والقلق حتى تبدلت ملامحه وبدا وكأنه شاخ فجأة عشر سنوات.

- هل تعرف ما هي المشكلة لديكم؟

لم يرد شريف وإنما انتظر أن يكمل هشام حديثه..

إنكم دائما تبحثون عن النتيجة فقط وتنشغلون بمعالجتها وتظنون أنكم قد نجحتم وبالتالي تدورون في نفس الدائرة المفرغة.. يأتي ضباط ويعملون ويخرجون من الخدمة ثم يحضر غيرهم وقد أخذوا عنهم وتعلموا منهم وهكذا.. عشرون عامًا أو يزيد وأنتم تسيرون عكس الاتجاه ولا تعالجون مشكلة من جذورها أبدًا.. تكتفون بالمتابعة وكأنكم تجلسون في مقاعد المتفرجين.. أما سياسة الأمن فقد تحولت الآن إلى تأمين.. تظاهرتم بأنكم تؤمنون الشعب بينما أنتم تعزلون الحاكم وحاشيته في بقعة صغيرة.. وكلاكما استسهل دوره ووضعه الجديد واستسلم له مع مرور الوقت..

ارتشف اللواء هشام رشفة طويلة من كوب الشاي الذي أمامه ثم استرسل كالسيل بلا توقف:

- أنا أراهن أن إدارتك هي التي وصفت الأحداث بأنها أصابع خارجية.. وكأنكم نسيتم الأصابع الداخلية التي قتلت من رفع رؤوسنا بعد سنوات من الانكسار، ومن سخرية القدر أنه نفس الرجل الذي حررهم من قيودهم فدقوا عنقه..!!

أطرق شريف أبو النجا قليلًا وهو يجز على أسنانه وقبل أن يهم بالإجابة مدافعًا عن وجهة نظره كان اللواء هشام يردف بعصبية:

- وحتى ولو افترضنا جدلًا أنها أصابع خارجية.. أليست بحاجة أولًا إلى نظام فاسد وظالم بالداخل ثم إلى أيادٍ داخلية يائسة أو مأجورة لتنفذ المخطط؟! ألم تسأل نفسك كم من الوقت يستغرق إعداد شخص نفسيًّا وبدنيًّا لكي يقوم بعمل جهادي أو انتحاري؟

حاول شريف المقاطعة ولكن هشام كان كالقطار الذي غادر الرصيف منذ فترة فاكتسب سرعته ولم يعد من السهل إيقافه فاسترسل:

- تعاطفك مع بعض التيارات الدينية وتخاذل إدارتك أمام تردي مؤسسات الدولة أديا إلى توحش تيارات متطرفة أخرى.. أصبحتم تتعاملون مع المواطنين بمنطق أنهم ذباب وطالما هو قابع على الأرض وساكن فلا ترونه أبدًا بل تدهسونه معظم الأحيان، وما أن يطير ويضايق كبراءكم تهبون للقضاء عليه بوحشية..!

ثم أشاح بيده في عصبية وكأنه ضاق حتى بما يقوله وهو يضيف:

- لديك في الإدارة تسجيلات بالصوت والصورة لوزراء ومسئولين ورجال أعمال في وقائع فساد يشيب لها الوليد في بطن أمه وتكتفون بعرضها على الوزير لكي يُساوم بها هؤلاء الفاسدين من خلال أباطرة الحزب أو يتسلون بمشاهدتها.. مع أنكم تتدخلون في كل شيء..تختارون أشباه الرجال وأنصاف المثقفين وأهل النفاق.. كلهم مفسدون وكلهم فاسدون وكلنا مخطئون في حق بلدنا..

قال عبارته الأخيرة بصوت مختنق كاد الدمع معه أن يفر من عينيه فصمت وهو ينظر إلى أطراف مزرعته القريبة شاردًا في أسى..

ظل شريف ساكتًا لفترة فقد شعر بانفعال اللواء هشام بشدة ولأول مرة في حياته يراه على هذه الصورة من الحدة والعصبية.. قال في نفسه ربما لخروجه على المعاش منذ سنوات فلا يزال يعاني من الفراغ والتجاهل المصاحبين لمن كان في منصب مرموق يشغله وينشغل الناس به ثم ينفضوا من حوله فجأة وكأنهم كانوا لا يعرفونه من قبل..

مضيا يحتسيان الشاي في هدوء حتى كسر شريف هدنة الصمت قائلًا:

- لقد طلبت لقاءك لترشدني بما يتعين عليَّ أن أفعله في المرحلة الجديدة لا لتزيد حيرتي فأنا عُدت إلى عملي بعد إيقاف لشهور طويلة وتحقيقات إدارية وحاليًّا نُقلت إلى متابعة النشاط الشيوعي فوجدته يختلف تمامًا عن إدارة النشاط المتطرف ولو كان بيدي الأمر لوصفت النشاط الشيوعي بأنه هو التطرف ذاته لا العكس، فهم مجموعة ممن يطلقون على أنفسهم النخبة والمثقفين وانضم إليهم بعض الأدباء والفنانين، وسياسيون عفى عليهم الزمن من حزبي التجمع والناصري يريدون إرجاعنا لزمن الستينيات في وقت تحكم فيه الرأسمالية العالم كله.. أنا أحتاج خبرتك ونصائحك.

رد هشام ونظرة الاستنكار تطل من عينيه في أسى:

- أنت تغيرت كثيرًا ولم تعد تحتاج لمن ينصحك فلديك الآن من يرشدك.. وعودتك لعملك ليست عن كفاءة وإنما تصفية حسابات بين رؤسائك بعد أن علم الوزير الجديد أن مساعد الوزير السابق لم يكن يُطيق رؤيتك فاعتبرك من أهل الثقة وأبقى عليك.. أما دعمك للشيخ صادق وأمثاله فهو ما غير فكرك فأصبحت تؤمن بأن التطرف يأتي من اليسار دائمًا وأبدًا. فصرت بوقًا يردد ما يقال دون وعي أو إدراك وهو ما جعلك مطمعًا لهم وثغرة نفذوا منها إلى إدارتك وربما يكونون قد استقطبوا غيرك، ومن المؤكد أنهم فعلوا نفس الأمر في وزارات أخرى فصار لديهم العديد من الخلايا النائمة التي تنتظر إشارة التحرك.. ولابد أن يأتي يوم لن يكون خلفكم إلا الحائط فلا تجدون مفرًّا وستواجهون وقتها مصيرًا مؤلمًا قاسيًا..

قال اللواء هشام عبارته الأخيرة وأشاح بوجهه وهو يمسح دمعة ترقرقت رغمًا عنه تلك المرة. ساعد على إخفائها دقات متتالية من هاتف شريف الذي استغرق في الرد على محادثة طويلة مع أحد عمداء الكليات العملية بشأن اختيار رؤساء الأقسام من الأساتذة ثم أنهاها شريف بضرورة إرسال الأسماء كاملة إليه حتى يحدد من يَصلح منها لتولي المناصب. ومن الذي سيتم استبعاده ثم التفت إلى اللواء هشام قائلا

في برود:

ماذا كنا نقول؟

لا شيء..لاشيء على الإطلاق يا سيادة العميد..!

***

42

القبـو

اقترب خادم نوبي يرتدي قفطانًا أحمر قانيًا مزركشًا بخيوط ذهبية ويرتدي عمامة بيضاء متوسطة يحكم بها تغطية رأسه ثم انحنى في أدب وهو يحمل صينية من الفضة يتوسطها هاتف المنزل النقال.. تناوله ماهر منه وهو يُشير له بالانصراف دون أن ينظر إليه..

كان أحد صبيانه على الطرف الآخر يخبره بأن العمال الذين يتولون ترميم السرداب أسفل الحانوت يسمعون أصواتًا غريبة مكتومة آتية من خلف الحائط ويرفضون الاستمرار في العمل لأنهم خائفون..

كانت مريم الصغيرة لا تزال تجلس على ركبتيه فأنزلها برفق وهو يتحدث في الهاتف مع المقاول مبتعدًا عنها قائلًا:

- لا تخف من تلك الأصوات وطمئن عمالك فهذا المكان كان خلفه قبو قديم يتم تخزين المومياوات فيه عندما كان صاحب الحانوت القديم يتجر في الآثار وهو مسدود الآن كما ترى ولابد أنهم عرفوا ذلك من أهل المنطقة ويتوهمون وجود أرواح وأشباح..

قالها وهو يضحك ثم أضاف بلهجة جادة:

- لذا عليك أن تُنهي العمل كله اليوم وتُبطن كل الحوائط بالأسمنت المسلح بطبقتين سميكتين كما اتفقنا وأبلغهم أنني سأضاعف لهم الأجر وسنحضر لكم الآن جهاز تسجيل وشرائط حتى لا يسمعوا تلك الأصوات مرة أخرى..

أنصت قليلًا لمحدثه ثم رد وهو يبتسم في ارتياح:

- أشكرك..

وأنهى المحادثة.

عادت الطفلة الصغيرة تجري ناحيته فجلس على ركبتيه وهو يتهيأ لاحتضانها بينما عقله شارد تمامًا في تخيل توفيق المحلاوي يصارع الموت خلف الحائط وينبش الجدران بأظافره لينبههم إلى وجوده بالقبو ولكن بعد فوات الأوان حيث سيموت حبيسًا بعد أن دَفنه فيه حيًّا.. جز ماهر على أسنانه بشدة ثم أغمض عينيه على مشهد توفيق وهو يتهاوى ببطء على ركبتيه بينما ظل يحتضن الطفلة بشدة تاركًا الابتسامة على شفتيه تعلن عن تشفيه وإخماد نار الانتقام التي ظلت مستعرة في صدره عشرين عامًا حتى خبت جزوتها اليوم فقط..

***

ما أن توقفت سيارة ماهر السوهاجي أمام قسم شرطة إمبابة حتى هرع المأمور ومن خلفه ضابط مباحث القسم وثلاثة من الأمناء إلى بابها ليستقبلوه قبل أن يدلف معهم وهم يرحبون به في حفاوة بالغة حتى حسبه المارة مدير الأمن في زيارة للقسم ولكنها غير مفاجئة من فرط الترحاب والتحيات التي تلقاها منهم ..!

ثلاثون عامًا أو يزيد تفصل بين دخوله ذات المكان مشبعًا بالركلات والصفعات متهمًا بإدارة وتهيئة مكان للدعارة مع زبيدة قوادة إمبابة الشهيرة التي ذاع صيتها أكثر وأكثر في الثمانينيات حتى لقيت مصرعها في حريق ضخم نشب بشقتها بحي المهندسين وقُيد وقتها ضد مجهول.. واليوم يُستقبل استقبال

الفاتحين معززًا مكرمًا كضيف من كبار الزوار.. لم يتغير المكان كثيرًا وإنما تغيرت الوجوه التي ظلت منذ دخوله القسم تصافح وجهه بابتسامة وترفع كفها في تلقائية مؤدية التحية وكأنها اعتادت على ذلك.. حتى الجنود تبسمت وجوههم كلما وقع بصره على أحدهم بعد أن رأوا كبراءهم وقادتهم يسيرون في ركابه ويحتفون به!

ما أن أغلق المأمور باب مكتبه عليهما وكأنهما في جلسة مباحثات ثنائية مغلقة حتى بادره السوهاجي قائلًا:

- في الحقيقة يا جناب المأمور أنا لن أعطلك كثيرًا.. أنا أريد تغيير بيانات بطاقة الرقم القومي و.....

قاطعه المأمور:

- معقول؟! .. ولماذا كلفت نفسك عناء الحضور؟! كان من الممكن أن نرسل لك ضابطًا ووحدة تصوير إلى البيت..

ضحك ماهر وهو يقول:

- الحقيقة أنا أردت أن أراك وأحدثك في أمر آخر مهم..

اعتدل المأمور في جلسته وكأنه في انتظار تعليمات من رئيسه..

قال ماهر بصوت تعمد أن يجعله خفيضًا حتى يشعر المأمور بخصوصية الحديث وسريته:

- أريدك أن تعرفني على فؤاد المتيني.. أنا علمت من مصادري الخاصة أنك من أقرب المقربين إليه وأنا أفكر في خوض الانتخابات القادمة عن دائرتي كما أريد الدخول في الأمانة العامة للحزب..

ثم أضاف بنبرته العادية مرة أخرى:

- أنت تعلم أن الانتخابات البرلمانية ستجرى قريبًا ولابد أن نستعد من الآن حتى يكون برلمان 2005 أقوى من برلمان 2000 .

قالها ثم ابتسم ابتسامة باهتة فلم يكن لديه ما يقوله عن السياسة أكثر من ذلك.. لمعت عينا المأمور وهو يقول:

- أعطني أسبوعًا واحدًا فقط وسأدبر لك لقاءً خاصًّا معه وإذا ما وُفقت سأتصل بك و...

قاطعه ماهر بسرعة:

- ستوفق إن شاء الله.. ولكن لا تتصل بي فهذا الأمر يجب أن يظل سرًا بيننا وهذه الموضوعات لا يصح أن نتحدث فيها عبر الهاتف.. سأنتظرك يوم السبت القادم في بيتي وبالمرة أعطيك هدية بسيطة أحضرتها زوجتي لزوجتك ولكنني نسيت أن أحضرها معي للأسف.. ثم أردف وهو يصوب بصره بحدة إلى عيني المأمور:

- ساعة رولكس ذهبية فأنا أعلم أنها تفضل هذا النوع..

اتسعت ابتسامة المأمور على ذكر نوع الساعة بينما ذهنه كان يعمل جاهدًا في حساب قيمتها إذا ما أعاد بيعها.. ثم أنهى إجراءات تجديد بيانات بطاقة الرقم القومي التي أضاف ماهر إليها لقب السوهاجي الذي كان يحمله كاسم شهرة فقط.. وما أن انصرف بذات التشريفة التي ودعته حتى باب القسم حتى عاد المأمور إلى مكتبه وفتح درجه الأيمن حيث نزع ساعته القديمة عن معصمه ووضعها بالدرج ثم أغلقه بدفعة واحدة وكأنه لا يريد أن يراها ثانية..!!

***

43

المتحف المصري

عندما أغلق المتحف المصري بالتحرير أبوابه في تمام الخامسة مساءً.. كان هناك زائر وحيد من زواره يختبئ بدورة المياه الصغيرة بالطابق الثاني.. انتظر حتى مرت نصف ساعة كانت نوبة الحراسة والتفتيش قد انتهت فيها من مرورها الدوري بعد أن أدت عملًا روتينيًّا بغير عناية فلم يكلف أي منهم نفسه بالصعود إلى الطابق الذي يقبع الرجل بداخل دورة المياه الكائنة به..

خرج اللص من مكمنه وتوجه إلى القاعة الخاصة بمقتنيات الملك توت عنخ أمون فتأملها بعناية ثم انحرف يسارًا حيث اختار إحدى الواجهات الزجاجية متوسطة الحجم ثم أخرج من حقيبة يده السوداء الصغيرة أدوات مختلفة أعملها في مزلاج الواجهة وما هي إلا دقائق قليلة حتى كان الباب الزجاجي المطعم بالخشب يطيعه وينجذب ناحيته.. تمهل برهة لعل جرس الإنذار يدق فلم يسمع سوى صوت السكون يلف المكان فتلفت يمينًا ويسارًا ناحية الكاميرات المثبتة في السقف وهو يرتدي قناعًا من قماش داكن يخفي ملامحه.. شعر للوهلة الأولى برعشة تسري في جسده وأن الكاميرات تراقبه وترصد حركاته وتكاد تعد أنفاسه.. سرعان ما هدأت نفسه عندما لاحظ أن العدسات معتمة لا تصدر نورًا أحمر متقطعًا فاطمأن لكونها معطلة.. انتقى ثلاث قطع محددة سلفًا ثم أعاد ترتيب مواقع القطع المتبقية بعد وضع أخرى مقلدة مكان الأصلية بدقة بحيث يحتاج الأمر في المستقبل إلى جرد دقيق حتى تُكتشف حقيقتها.. ثم أرقد القطع الثلاثة بعناية داخل حقيبة يده بعد أن قام بلفها بحرص شديد برقائق الكربون الأسود المعتم.. تلفت حوله حيث انتقى تابوتًا كبيرًا بذات الطابق ففتحه ببطء ثم رقد بداخله ممددًا جسده وأعاد إغلاقه وراح في سبات عميق بعد أن ضبط هاتفه المحمول على وضعية الرنين الهزاز ليوقظه في تمام السادسة صباحًا..

في الموعد المحدد كان يغادر التابوت وبصحبته الحقيبة حيث توجه لدورة المياه مرة أخرى واستقر بداخلها حتى دقت الساعة الثامنة حيث بدأ يشعر بحركة قريبة من مكمنه فخرج في هدوء.. كان أحد الزائرين يقضي حاجته فوقف بالقرب منه حيث غسل يديه ووجهه ثم أعطى جنيهًا إكرامية لعامل النظافة الواقف على باب دورة المياه فدعا له بالستر جهرًا.. بعدها قام بجولة داخل المتحف لمدة ساعة كاملة وفقا للتعليمات التي حفظها عن ظهر قلب وغادر المتحف نحو التاسعة والربع صباحًا مندسًا بين أفواج سياحية أجنبية في طريقها للخروج مارًا عبر بوابة إلكترونية لم تُصدر صفيرًا بسبب رقائق الكربون الأسود التي تُغلف القطع المسروقة.. وما هي إلا لحظات قليلة حتى كان يقبع داخل سيارة أجرة بميدان التحرير في طريقه إلى حانوت ماهر السوهاجي بشارع طلعت حرب للقاء سعيد الخضري الذي اصطحبه فورًا إلى السرداب حيث عاين التماثيل الثلاثة وسلمه عشرة آلاف جنيه ثم قام بوضعها في حقيبة أخرى متوجهًا إلى مخزن الهرم حيث تم تغليفها وتعبئتها بعناية شديدة بعد محو أرقام التسجيل من أسفل قاعدتها..

في المساء حضرت سيارة سوداء متوسطة تحمل لوحات ديبلوماسية نزل منها شخصان التقيا سعيد الخضري وتسلما منه الطرد وانصرفا دون أن يتبادلا كلمة واحدة..

دخل سعيد الخضري قصر ماهر وترجل من السيارة وسار في الحديقة حتى نهايتها حيث كان ماهر يجلس في كشك خشبي يقبع في نهايتها على ربوة صغيرة.. أخبره بنجاح صبيه اللص المدرب في سرقة المتحف المصري صباح اليوم وأن القطع الثلاث في طريقها خلال ساعات إلى سوىسرا عبر الحقيبة الديبلوماسية لسفارة الدولة الإفريقية التي اعتاد ماهر رشوة سفيرها بمائة ألف دولار نظير شحن بعض القطع الأثرية داخل حاوية خشبية ضخمة تتمتع بالحصانة الديبلوماسية فلا تخضع إلا لتفتيش صوري لا

يكشف عن جرائم أبدًا.. فكرة شيطانية نبتت في ذهنه منذ سنوات حتى اختمرت فنفذها بدقة فأدرت عليه ملايين الجنيهات بعد أن يرتب أموره مع الخواجة رالف تاجر الآثار السوىسري الذي استطاع بعلاقاته وأموال ماهر استعادة القطع مرة أخرى من سفارة ذات الدولة داخل الأراضي السوىسرية بعد وصولها بأمان..

وسيلة كان يراها سعيد الخضري أنها تكلفهم أموالًا طائلة ولكن ماهر كان يستغلها في نقل أكبر كمية ممكنة في كل مرة فيحقق مكاسب تفوق أضعاف ما كان يقدمه كرشاوٍ لخروجها بطريقة التهريب داخل الحاويات.

ربت ماهر على كتف سعيد مهنئًا طالبًا منه إيواء سارق المتحف لفترة في مخزن الأقصر.. وبينما هما يتحدثان ظهر من بعيد المأمور يترجل من كابينة سيارة الشرطة الزرقاء فأشار ماهر لسعيد الخضري بأن ينصرف من باب آخر وتوجه هو ناحية المأمور مرحبًا به فقد كانت ابتسامته الواسعة وأساريره المتهللة وهو مقبل على ماهر ملوحًا بكفه توحيان بأنه قد نجح في تدبير لقاء خاص جدًا مع فؤاد المتيني..

***

44

اللقاء الأخير

مرت فترة طويلة انقطعت فيها الاتصالات تمامًا بين اللواء المتقاعد هشام فتحي وضابط مباحث أمن الدولة الحالي شريف أبو النجا..تخللتها أحداث جسام.. كلها تحمل عنوانًا واحدًا لا يتغير، جرائم إرهاب ضد المدنيين والآمنين وكلها أيضا تُبرر تبريرات دينية.. كان اللواء هشام يشعر بأن واجبه يحتم عليه أن يلتقي بشريف مرة أخيرة لعل وعسى يأخذ بنصيحته وباعتبار أن ما لا يدرك كله لا يترك كله هكذا حدث نفسه وهو يطلب رقم شريف على الهاتف.. جاءه الرد مرحبًا على غير ما توقع بعد لقائهما العاصف الأخير في مزرعة هشام.. فانتهت المحادثة بما يرغب من لقاء ولكن تلك المرة بمكتب شريف بالإدارة بعد أن صمم الأخير على رأيه ورفض أي أرض محايدة على حد تعبيره.

في الطريق إلى مقر مباحث أمن الدولة بلاظوغلي كان هشام يقبع بالمقعد الخلفي لإحدى سيارات الأجرة بعد أن باتت صحته لا تتحمل عناء القيادة بوسط المدينة ساعة الذروة التي باتت ممتدة أغلب فترات اليوم.. توقفت السيارة به عدة مرات إجباريًّا.. إحداها كان بعد أن تكدس أمامها العشرات ممن يتظاهرون أمام مجلس الشعب بسبب غلاء الأسعار.. ثنى اللواء هشام جريدته التي كان يتصفحها بالطريق قليلًا وهو يتأمل عبر نافذة السيارة جموع المتظاهرين من شباب وفتيات ورجال وسيدات أغلبهم من الطبقة المتوسطة أو ربما ما تبقى منها بعد أن تآكلت تمامًا في السنوات الأخيرة فهز رأسه في أسى عندما مر به هذا الخاطر..

قبل أن يعود إلى قراءة الصحيفة لفتت نظره مناوشات على وشك التطور بين قوات الأمن والمتظاهرين فجذبت انتباهه فتابعها حتى تصاعدت إلى تدافع بالأيدي وقرع بعصي غليظة على رؤوس الشباب وأجساد الفتيات.. تنبه أكثر وهو يطوي الجريدة على صوت سيدة مسنة ترتدي جلبابا أسود ضيقًا وهي تصرخ في وجه أحد الجنود.. لم يستطع تبين عباراتها وإن كان الغضب الذي يطل من عينيها كالشرر يوحي بالكثير من المعاناة التي باتت لصيقة بها كملابسها.. دفعها المجند بدرعه فتهاوت ببطء وهي تترنح حتى سقطت أرضًا وكفاها يلوحان عاليًا وكأنها تغرق..!

كانت سيارته قد تحركت فأدار رأسه وهو يحاول التقاطها بعينيه مرة أخيرة عبر الزجاج الخلفي ولكن هيهات فقد دهستها الأقدام وطواها الهرج الذي حدث من جراء تدافع الشباب والجنود وكأنها معركة بدائية فلم يلحظ إلا أحد كفيها من بعيد وهو لا يزال يلوح معربًا عن استغاثة يائسة لنجدتها ولكن لا حياة لمن تنادي..

منذ وطئت قدماه مكتب شريف أبو النجا صافحت عينيه صورة الرئيس مبارك التي تم تعميمها على جميع الوزارات والدواوين الحكومية كان وجهه فيها يحتل ثلاثة أرباع مساحتها إن لم تزد بينما نظرة ميتة تطل ببطء من عينيه وكأنها تعلن عن لامبالاة مكبوتة بداخل صاحبها.. شعر اللواء هشام لوهلة أنه يرى صورة لشخص تم تحنيطه بسبب غياب الروح منها.. خرج من شروده على صوت أبو النجا وهو يتقدم منه فاتحًا ذراعيه في ود بدا مصطنعًا إلى حد كبير وبعد أن فرغا من عبارات الترحيب الروتينية ولقاء بعض الضباط القدامى الذين كانوا من تلاميذه.. جلس شريف أمامه مفسحًا الطريق له تمامًا كي يُفرغ كل ما في جعبته من آراء ونصائح.. وما أن انتهى حتى وضع شريف ساقًا على ساق وهو يقول في

هدوء:

- في الحقيقة يا سيادة اللواء أنا متفهم دوافع كل ما قلته، وأقدر لك نصائحك، ولكن نظريتك القديمة فيما يبدو لم تتغير، وأعتقد أنها باتت تحتاج إلى تطوير، ففكرة الأوركسترا هذه ثبت أنها غير صحيحة على الإطلاق، وواضح أنها لا تزال تُسيطر على تفكيرك وتحكمه.. ولكن اسمح لي أن أذكرك بأنك كنت تنحاز لتيار اليسار طوال فترة عملك، وهو سبب نقلك من الجهاز عقب رفضك إعداد تقرير أمني عن حقيقة دور الشيوعيين المخربين في انتفاضة يناير 1977 .. أي أنك فعلت ما تتهمني به دائمًا.. والحقيقة..

قاطعه اللواء هشام بحدة قائلًا:

- الحقيقة هي أنكم وهذه التيارات الدينية تؤدون دورًا في مسرحية هزلية.. وأنتم تصنعون منهم كرة ثلج وتتركونها تتدحرج بينما هي تكبر يومًا بعد يوم، وعندما تتضخم ستسد عليكم كل المنافذ فلن تجدوا حينئذ مفرًا من المواجهة، ووقتها لن تصمدوا طويلًا.. أما المواطنون فيكتشفون أن الكرة خاوية رخوة لن تنفعهم بل ستغرقهم في بحورها. ثم ابتلع ريقه وأردف بذات الحدة التي لم يستطع التخلي عنها تلك المرة أيضًا:

- فكرة الأوركسترا التي حدثتك عنها من سنوات بعيدة ربما لم تعد موجودة الآن بعد أن قرر كل عازف من أفراد الفرقة أن يعزف لحنًا منفردًا منذ أن قتلوا السادات حتى صار كل منهم مايسترو لفرقة خاصة به تعزف ألحانه هو فقط حتى ولو لم تكن تعجب الآخرين.. ولكنها ستصم آذاننا جميعا في النهاية.

اعتدل شريف أبو النجا في جلسته مستحضرًا بروده المعتاد قائلًا في ثقة لا تستند إلى ثقافة حقيقية أو تتبع من فكر عميق:

- التيار اليساري الذي تدافع عنه دوما مُمول من الخارج ومدفوع لتحويلنا إلى دولة شيوعية لا تقيم للدين وزنًا، ونحن دولة إسلامية رائدة ومحورية.. أما من تصفهم بكرة ثلج فهم من يحمون المقدسات ويحافظون على ديننا الحنيف، وبالنسبة لي فأهلا بكرات الثلج كلها من أجل حماية المقدسات.. وبالمناسبة كثيرون منهم قوم صالحون ويكفي ما لاقوه من صنوف التعذيب بالجهاز لكي نحترمهم ونقدرهم أم أن ذاكرتك شاخت؟!

قالها وهو يرتشف من كوب الليمون البارد رشفتين ويبتسم له ابتسامة ذات مغزى..

أطلت ابتسامة استنكار واضحة قبل أن يرد على شريف أبو النجا بحدة:

- ما يدهشني هو تلك النبرة الملائكية التي طغت فجأة على حديثك.. فلماذا تتمسك أنت الآن بالبقاء في مكان لا يزال التعذيب يجري فيه على قدم وساق وكأنه أحد طقوسه اليومية المقدسة؟!

لم يرد شريف مكتفيًا بالتأفف كمن يتذكر عيوبه وعوراته ويريد أن يطردها من ذاكرته مع زفرات ضيقه..

اعتدل هشام فتحي في جلسته كمن يستعد لتوجيه ضربات متتالية جديدة وهو يقول:

- على العموم هذا شأنك ولكن لا تقل لي أن هؤلاء يحمون المقدسات فهي كلمات حق يراد بها باطل دائمًا.. اقرأ تاريخك جيدًا هل تعرف لماذا قُتل الطبري وصُلب الحلاج وحُبس المعري وسُفك دم جابر بن حيان وحُرقت كتب الغزالي وابن رشد والأصفهانى؟ كل ذلك كان باسم الدين وباسم حماية المقدسات.. استغل فراغك في قراءة تاريخك قبل أن تخطو نحو مستقبلك خطوة واحدة حتى تستشرفه

جيدًا .

رد شريف في لا مبالاة متعمدة:

- هذه وقائع قديمة لها ظروفها ومناسباتها التاريخية.. وفي تقديري أنه قياس مع الفارق ولا يصح الاستنتاج بناء عليه..

أجابه اللواء هشام وهو يلم ساقيه قليلًا استعدادًا للمغادرة بعد أن يئس من الحديث معه فأراد إنهاءه:

- لا تنسَ أنهم حديثًا قتلوا فرج فودة، وحاولوا قتل نجيب محفوظ لحماية المقدسات ومصلحة المجتمع كما يدعون دائمًا. هذا التيار المتأسلم لا يستحق تلك الشعبية الزائفة التي تقدمونها له على طبق من فضة فالدين أسلوب حياة لا ألاعيب سياسية وهؤلاء إذا قبضوا بكفهم على مقاليد الأمور أكثر من ذلك فلن تستطيعوا أن تحرروا مصر منهم وحتى إن تحررت ستكون قد ذبلت وشاخت..!! هم يراهنون على أننا شعب عاطفي ويحب دينه بالفطرة.. وأنتم تقامرون باعتبار أننا شعب عاطفي أيضًا ولكنه ينسى بسرعة، ويصبر كثيرًا وكل طرف منكم يعزف على الوتر الذي يناسبه.. وفي النهاية سنصبح كلنا خاسرين..

ظل هشام يرددها في أسى وفي كل مرة يخفض من نبرته وكأنه صار يحدث نفسه.

قبل أن يعلق شريف على حديثه باغته هشام بسرعة:

- أريد أن أسألك سؤالًا أخيرًا قبل أن أنصرف وأرجو أن تجيبني عنه بمنتهى الصدق كمواطن وإنسان قبل أن تكون ضابط شرطة..

صمت شريف في انتظار السؤال وقد ارتبك قليلًا من داخله..

- ألا تتفق معهم على صدق وبلاغة كلمة «كفاية»؟!

شعر شريف بسخونة بسيطة تلفح وجهه فجأة من جراء تصاعد الدماء إلى رأسه فرد في ضيق وكأنه مُجبر على الإجابة كشاهد تحت وطأة القسم:

- ربما..

قالها شاردًا ثم أردف في حدة منتبهًا:

- على حسب السياق الذي ستستخدم فيه..

ثم ضغط زرًا صغيرًا على مكتبه مستدعيًا بعض ضباط إدارته ففهم اللواء أنه يريد أن ينهي اللقاء بعد أن فرغت جعبته فودعه في برود وانصرف مترجلًا على قدميه وسط جماهير قليلة تهتف في تجمعات متفرقة بالقرب من البرلمان كان يتأمل الوجوه بعين سارحة وعين مندهشة، وذهنه شارد في أن ثياب الواعظ التي ظل يرتديها دائما في جلسات مغلقة ثنائية مع شريف أبو النجا وهو على يقين من أن كثيرين يفعلون مثله لا طائل من ورائها.. غالبيتنا يرتدي زي الوعاظ والناصحين في الأماكن المغلقة ثم لا نذهب إلى أبعد من ذلك قولًا أو فعلًا.. كل منا يعيش في فقاعة منطقية خاصة به يعتمد فيها على مفاهيمه ومداركه المحدودة المستمدة من واقعه فقط.. تأكد الآن أنه وشريف أبو النجا كطرفي المقص كلاهما مشدود إلى الآخر ولكن كلًا منهما يسير في اتجاه مغاير تمامًا.. وربما كلاهما أيضًا بعيد عن نبض الشارع..

***

45

Narcissus

تلعثم ماهر قليلًا ثم أعاد محاولته لنطق الكلمة مرة أخرى قائلًا ببطء وبلكنة رديئة للغاية:

- Narcissus

رد المأمور:

- نعم هذا هو مكان اللقاء غدًا في تمام الساعة السابعة مساءً بناء على اقتراح معالي الوزير..

سرح ماهر قليلًا ثم قال بابتسامة صفراء ليداري خجله:

- اكتب الاسم هنا في ورقة مع العنوان، ولكن قل لي أولًا ما طبيعة هذا المكان؟

ثم حاول نطقه مرة ثانية فلم يفلح..

أجابه المأمور في دهشة وهو يعيد الاسم على مسامعه ببطء:

- معقول يا ماهر باشا ألا تعرف هذا النادي الصحي الشهير..

ثم ابتسم ابتسامة ذات مغزى وهو يضغط على مخارج ألفاظه:

- إنه أفضل مكان يقدم جميع الخدمات اللازمة لصحة بدنك في وقت واحد ولا يدخله إلا أصحاب العضوية الخاصة حتى لا يعكر صفوهم متطفل أو غريب.. حتى شرطة السياحة تتولى حراسته فقط من الخارج..

قالها وهو يضحك فاهتز كرشه المنتفخ مع لغده المتدلي فضحك ماهر على هيئته وذهنه يحاول تخيل المكان فلم يفلح فمال قليلًا بجسده عابثًا بحقيبة ورقية ضخمة ترقد بجواره ثم سلمه علبة أنيقة متوسطة الحجم تحوي ساعة ذهبية فاخرة كما وعده.. فأطبق عليها المأمور بكفيه وتأملها بعينين جاحظتين وقلَّبها في يديه عدة مرات ثم انصرف مودعًا ماهر في حرارة وما أن استقر بسيارة الشرطة حتى طلب من سائقه التوجه لأحد البوتيكات بمصر الجديدة بعد أن كان قد اتفق مسبقًا على بيع الساعة المفترض أنها مهداة لزوجته بخمسة وخمسين ألف جنيه علاوة على ساعة جديدة له من ماركة متوسطة لا يتجاوز ثمنها بضع مئات من الجنيهات..

***

لم ينزل ماهر من السيارة مباشرة كعادته بل ظل لفترة يتأمل الواجهة الفخمة التي تحمل اسم نارسيس بحروف لاتينية كبيرة.. المبنى من الخارج لا يوحي أبدًا أن بداخله ناديًا صحيًّا حسبما أبلغه المأمور.. كان يقع في ضاحية المعادي في منطقة تعج ببيوت الديبلوماسيين والسفراء المعتمدين لدول العالم الأول.. ومع ذلك فالهدوء يلف المكان بعناية وكأنه يعزف سيمفونية الصمت بإتقان.. أما البناية فكانت أشبه بفيلات الطراز الإنجليزي القديم.. سقفها مشيد بالطوب الأحمر القاني وواجهتها خشبية في أغلبها وواجهتها توحي بأنها كبيرة من الداخل.. كانت اللافتات كلها بلغة أجنبية لم يستطع فهم مدلولها.. حتى أفراد الأمن الذين كانوا أول من يستقبله لا يدل مظهرهم على أنهم من نفس النوعية التي اعتادت شركات

الحراسة توريدها للبنوك والبيوت في الآونة الأخيرة..

لفت نظره ضخامة البوابة الخارجية وارتفاع الأسوار لأكثر من ستة أمتار بحيث لا يدرك من بالخارج كنه ما بالداخل أبدًا.. الممر المؤدي للمبنى الرئيسي يعج بأشجار النخيل المتناثرة ولكن بعناية شديدة. أما توزيع الإضاءة فقد كان يضفي طابعًا رومانسيًّا هادئًا بمجرد اجتياز البوابة الخارجية مع موسيقى كلاسيكية تنبعث من سماعات منزوية في أركان الحديقة وكأنها تتعمد إزالة همومك حتى تتركها جانبًا وتُجبرك على أن تتحلل منها تمامًا بمجرد دخولك المكان فتصبح مهيئًا أكثر للاستمتاع بما أتيت من أجله.

إلا ماهر السوهاجي فقد أتى من أجل لقاء المتيني رجل الحزب القوي بل الأقوى على الإطلاق، ومع أنه كان على مشارف الخمسين من عمره إلا أنه كان الآمر الناهي في كل كبيرة وصغيرة وأحد الذين يحكمون هذا البلد ويديرونه من خلف الستار، وأحيانًا من أمامه بلا خجل بل وفي بجاحة متعمدة!!

بعيون قلقة باحثة عن وجه مألوف لديه ولدى أهل مصر أجمعين مضى ماهر يجول ببصره بين الأجساد البرونزية الممددة على الآرائك وتلك الجالسة في أريحية إلى طاولات بيضاء حول حوض سباحة بيضاوي ضخم بنيت بأركانه حانات صغيرة تحوطها مقاعد غاطسة من الجرانيت.. أمامه بخطوتين كانت مضيفته الشقراء ذات عينين زرقاوين كلون ماء خليج رائق تقوده فسار خلفها ولكنه انشغل عن متابعة نتوءات جسدها التي تعمدت إبراز مفاتنه بملابسها الضيقة القصيرة بتفحص المكان الذي أبهره حتى كاد جفناه لا يرمشان وكأن سيفوتهما شيء إذا تلامسا..

في ركن بدا منزويًا نوعًا ما وخاصًّا إلى حد كبير.. كان فؤاد المتيني يجلس على رأس طاولة كبيرة رصت عليها أطباق صغيرة لمأكولات دقيقة الأحجام وتتربع عليها زجاجات مختلفة الأشكال والألوان ويدخن سيجاره الشهير وهو يرتدي ملابس الاستحمام بألوان فاقعة للغاية ويتبادل حديثًا ضاحكًا مع وجوه معروفة لفنانين وفنانات ولاعبي كرة قدم بعضهم لايزال يلعب وبعضهم عفى عليه الزمن إلا من تجارة تدر ربحًا على سند من بقايا شهرة تفتح بعض الأبواب الصغيرة المغلقة ووزراء غالبيتهم سابقون ولكن خروجهم كان قريبًا فلم تمح الذاكرة صورتهم بعد.. إضافة إلى بعض رجال الأعمال من أصحاب الأوزان الثقيلة حجمًا ورصيدًا أيضًا..

وقعت عيناه على المتيني وقوامه الرياضي وشعره الأسود الفاحم يُعلنان عنه بوضوح.. كان فارع الطول له كتفان عريضان بصورة ملفتة وعلى شفتيه تقبع دائما ضحكة صامتة أشبه بابتسامة تشفٍ من مجتمع بأسره رغم أنه الذي يتحكم فيه.. كلها علامات مسجلة وحصرية للشاب الصاعد بسرعة الضوء ورغم أنه لا يحمل أي حقيبة وزارية إلا أن الجميع وقعوا اتفاقا ضمنيًّا فيما بينهم على منحه ذلك اللقب بعد أن تيقنوا أنه الذي يسلم كل الحقائب من البداية ويملك سحبها في أي وقت.

لوح له ماهر بيده وهو يبطئ من خطواته فقد ارتبك قليلًا لرؤيته وشعر بأن للرجل هيبة حقيقية مصدرها نفوذه بالطبع، ولكن بنيانه الرياضي الضخم وملامحه الحادة قد لعبا دورًا كبيرًا لأجل ترسيخها في النفوس..

لم يعبأ المتيني بتوتر ماهر وإنما قال بصوته الجهوري:

- أهلًا ماهر بك.. أم تفضل أن نقول لك يا سوهاجي بعد أن غيرت اسمك..

زاده المتيني ارتباكًا فسكن تمامًا وتخشب في مكانه ولم يرتق درجتين صغيرتين رخاميتين تفصلانه عن موقع الطاولة الذي بدأ بالاقتراب منه، إنه بالفعل متميز للغاية ويتمتع بخصوصية شديدة.. ظلت العيون الجالسة إلى طاولة المتيني ترقبه وتتفحصه من أخمص قدميه حتى شعر رأسه ثم أشاح بعضها عنه بسرعة وانشغل الآخرون في الحديث والشراب وقرع الكئوس وإن كانوا يترقبون انضمامه إليهم إلا أن المتيني حسم الأمر فهب واقفًا وتقدم ناحيته قائلًا:

- لا تقل لي إنك تشعر بخجل..

قالها وضحك ضحكة عالية ردد خلفه مثلها بعض الجالسين على الطاولة وكأنها صدى صوت.. ثم جذبه من ذراعه وقدمه إليهم باعتباره أحد كبار رجال الأعمال من أعضاء الحزب، فمضى ماهر يصافحهم بعينيه فقط دون أن يجرؤ على مد يده إليهم فقد شعر فجأة بفجوة كبيرة تفصله عنهم، فأحس بضآلته بدون مبرر مع أنه لو فتش فى ماضيهم لاكتشف أن بداياتهم كانت مماثلة لخطواته الأولى وربما أدنى وأسوأ..

اكتفى بإيماءة من رأسه لرد تحيتهم متمتمًا بعبارات شكر مضغمة غير واضحة المخارج ثم ربت بكفه على صدره شاكرًا ممتنًا لهم..

لم يدعه المتيني للجلوس وإنما همس في أذنه قائلًا:

- تعال معي سنجلس في الطابق الثاني فهو أفضل للحديث وتتعرف على المكان أكثر لتألفه..

سار ماهر خلفه منصاعًا تمامًا بلا تفكير بينما كان المتيني يتلقى تحيات من بعض الجالسين إلى طاولات وآرائك أخرى كان بعضهم يهب ليصافحه في أدب جم وانحناء مبالغ فيه ناطقين اسمه مسبوقًا بلقب معالي الوزير والمتيني يرد تحيتهم في برود مكتفيًا بكلمة واحدة «أهلا» دون أن ينظر إليهم وكأنهم نكرات لا لزوم لها..

صعدا سلمًا خشبيًّا أنيقًا دائريًا كان ماهر مشرئبًا بعنقه وهو يرتقيه بعد أن اجتازا صالونًا يغلب عليه اللون الأخضر الداكن والطابع الإنجليزي العريق..

لفت انتباهه أن الطابق العلوي فسيح للغاية تتناثر به آرائك مخملية ذات لون قرمزي وإضاءة خافتة للغاية حتى تظن أن الجالسين عليها أشباح من فرط ضآلة الضوء فلا يمكن تبين ملامحهم أبدًا.. فهم أن هذا الطابق يحوي أيضًا غرف التدليك والبخار من هيئة العاملين به وما لا يرتديه رواد المكان وهم يتنقلون بخفة ضاحكين!!

فجأة وجدها أمامه ترحب بفؤاد المتيني في ود بالغ يستند فيما يبدو إلى معرفة قديمة وثيقة تشي بصداقة حميمة بينهما.. لم يصدق عينيه لأول وهلة.. نفس نبرة الصوت الناعم.. وذات البشرة السمراء البرونزية.. لم تتغير نتوءات الجسد وإن كانت قد امتلأت قليلًا حتى ملامح الوجه لم تنل منها التجاعيد كثيرًا بل أكسبها الزمن صقلا زادها رونقًا وجمالًا رغم أنها قاربت الستين إن لم تتعداها!!

وقفت تنظر إليه وهي تبتسم نصف ابتسامة بدت له باهتة وكأنها لم تفاجأ بقدومه بينما المتيني يحثه على التقدم لمصافحتها قائلًا:

- نرجس هانم صاحبة المكان.. ثم أشار صوبه بيده دون أن يحول عينيه عنها قائلًا:

- ماهر السوهاجي رجل الأعمال المعروف وأكبر مستورد ومصدر للعب الأطفال في الشرق الأوسط..

صافحها ماهر والدهشة لا تريد أن تفارق وجهه فصافحته بأطراف أصابعها فلم تقو على ترك راحتها تلامس كفه كثيرًا.. فقد كان بعض الشجن من جراء الحنين للماضي يعتصرها كثعبان ضخم لا تستطيع الفكاك منه..

همس المتيني في أذنها ببضع كلمات لم يسمعها ماهر في حينها ولكنه فهم معناها لاحقا عندما استقر به الحال مع المتيني وجهًا لوجه على طاولة صغيرة بحجرة جانبية بذات الطابق.. في حين ودعتهما نرجس وعيناها تشي بالكثير من الأحاسيس المتباينة التي تدور بين ضلوعها..

- هات ما عندك..

فوجئ ماهر برد فعل المتيني وبدا له أنه رجل عملي للغاية لا يحب إضاعة الوقت في الحديث فقال وهو يضغط على مخارج ألفاظه متحدثًا ببطء حتى يغطي على ارتباكه المتصاعد كالماء المغلي:

- أنا أريد أن أنال شرف الانضمام للأمانة العامة للحزب وعلى استعداد لأي شيء تطلبه مني يا باشا فأنا أريد أن أخدم البلد خاصة وأن الانتخابات على الأبواب وإذا ما تم ترشيحي للبرلمان في دائرتي فأنا أيضًا.....

أشار له المتيني بكفه لكي يصمت فسكت ماهر فورًا وكأن المتيني قد ضغط على زر أسكته:

- اسمعني جيدًا يا أخ ماهر أنا أعرفك جيدًا وأتابعك منذ فترة ومعجب بك أيضًا..

قالها وهو يبتسم ابتسامة صفراء ويتجرع بعضًا من شراب رصت قنيناته على طاولة قريبة منه ثم أردف وهو يعقد حاجبيه الرفيعين للغاية:

- أنت تريد الحماية لأموالك وتجارتك في الآثار لا أكثر ولا أقل فلتكن صريحًا من البداية. أما موضوع حصانة المجلس فستكون دائمًا مؤقتة ولن تفيد في حالتك فكما تعلم يمكن رفعها في دقائق إذا ما انقلبوا عليك أو فاحت رائحتك فأزكمت أنوف كثيرة.. أنت الآن كالمريض في حالة متأخرة ويحتاج إلى عناية مركزة..

قالها وهو يضحك بسخرية مسترسلًا:

- وفي هذه الحالة ستحتاج رعاية دائمة لا حصانة مؤقتة..

قاطعه ماهر قلقًا متلهفًا:

- أنا تحت أمرك..

رد فؤاد وهو يشعل سيجاره دون أن ينظر إليه:

- من ناحيتي لا مانع لديّ من حماية تجارتك تقديرًا لدورك الوطني في خدمة الحزب والتبرعات التي تقدمها منذ أن أصبحت عضوًا به وثق أن شراكتنا ستضاعف أرباحك على عكس ما قد يجول بتفكيرك من هواجس فأنا سأقدم لك تسهيلات كثيرة لن تتخيلها ولن تجعلك تحتاج إلى وسائلك الحالية.. فلا تقلق لأنك ستحمي ثلثي أموالك بثلثها فقط!!

كانت عينا ماهر تزداد اتساعًا مع كل كلمة تخرج من شفتي المتيني الغليظتين، والذي أكمل حديثه وهو ينفث دخان سيجاره الضخم:

- بالمناسبة أنا يعجبني جدًا تطويرك لأدائك في إخراج الآثار ففكرة الحقيبة الديبلوماسية **وشرائها بالكامل لحسابك من تلك الدولة الإفريقية فكرة جهنمية لم تخطر على بال أحد من قبل.. وصعب كشفها أو حتى إعلانها حرصًا على العلاقات الديبلوماسية الدولية..!**

بدأ ماهر يتفصد عرقًا فقد شعر بأن المتيني بحديثه هذا وكأنه يجرده من ملابسه قطعة تلو الأخرى حتى لم يعد يتبقى ما يستره..

دفع المتيني بأصابعه علبة المنا ديل الورقية في اتجاه ماهر وهو يقول:

- والآن اسمعني جيدا فيما سأقوله لك لأنني لا أحب إعادة حديثي مرتين.. سأمنحك فرصة ذهبية من خلال استثمار ثلث أموالك بصورة أفضل.. سوف نخصص لك أرضًا بمساحة كبيرة تصلح لأن يقام عليها أكبر مصنع للعب الأطفال في الشرق الأوسط وسنعلن أن هذا المشروع سيوفر مئات الآلاف من فرص العمل للشباب وستقوم بتعيين آلاف منهم بالفعل قبل أن تضع طوبة واحدة في مصنعك الجديد.. سيكلفك هذا المشروع نحو ثلاثين مليون جنيه وفقًا للدراسات المبدئية بما فيها المرتبات والدعاية وسيكون التعيين مقصورًا في البداية على شباب محافظات القاهرة الكبرى فقط فأنا غير مطمئن تمامًا

لفاعلية رجالنا بتلك المحافظات الثلاث..

سكت فؤاد قليلا وهو يصوب عينيه بحدة نحو ماهر الذي اصفر وجهه حتى بات أقرب إلى صحراء جرداء ثم أردف في برود وتأفف وكأنه قد قضى وقتًا أكثر مما ينبغي مع ماهر:

- سأنتظرك هنا غدًا لنتحدث في بعض التفاصيل لأننا لن نلتقي كثيرًا بعد ذلك إلا هنا وبالمصادفة وبعدها بأسبوعين يمكن أن تزورني في مكتبي مرة أو مرتين على الأكثر للتعرف على طبيعة العمل في الأمانة العامة، وسوف تجد كل الأوراق الخاصة بالمشروع جاهزة على التوقيع بما فيها اسم الجمعية التي ستشتري الأرض باسمها فهي لن تكون ملكك..

وأضاف وهو يتجشأ ببطء:

- وبالمناسبة هي جمعية الغد الجديد من المؤكد أنك سمعت عنها وعن نشاطها ومؤسسها..

قبل أن ينبس ماهر ببنت شفة كان المتيني يضطجع في مقعده بصورة استفزازية قائلًا بلهجة آمرة:

- يجب عليك أن تدرك جيدًا أنه في حالة موافقتك وهذا أمر أثق فيه بالتأكيد سيتعين عليك أن تغير من أسلوب حياتك فلن تطفو على السطح مرة أخرى.. ابتعد تمامًا عن وسائل الإعلام وعن الظهور الاجتماعى بلا مبرر.. اختر حاشيتك وبطانتك بعناية.. حتى عملك السياسي يجب أن يكون مغلفًا ببعض الغموض ومن وراء الكواليس.. فهذا البلد يضم بين ربوعه آلافًا من أصحاب مئات الملايين وربما عشرات المليارات ولا أحد يعلم عنهم شيئًا.. الأغبياء فقط هم الذين يصابون بداء حب الظهور والتفاخر فإذا ما أردت الاستمرار في السباحة مع التيار فلا تطف أبدًا..

صمت فؤاد المتيني قليلًا كمن يتذكر أمرًا ثم باغت ماهر بسؤال غير متوقع:

- ما هو مؤهلك الدراسي؟

تلعثم ماهر وهو يرد بنبرة يكسوها الخجل:

- أنا أحمل درجة الدكتوراه فى إدارة الأعمال..

عقد المتيني حاجبيه وزم شفتيه مندهشًا وهو يرتشف من كأسه غير مصدق، فلم يصمد ماهر طويلًا أمام إيماءاته ونظرات الشك البارزة من عينيه فأردف:

- حصلت عليها من رومانيا منذ عامين تقريبًا..

تسربت على الفور ابتسامة استنكار خافتة من بين شفتي فؤاد ثم نهض مغادرًا دون أن يصافحه فأعاد ماهر يده إلى جوار خصره بسرعة بعد أن كان قد مدها قليلًا..

قبل أن يغادر المتيني الغرفة التفت إليه وهو يبتسم ذات الابتسامة الصفراء قائلًا:

- بالمناسبة لا تنس أن تحكي لي غدًا قصة كف مريم فيبدو أنك تتبارك بها قبل كل عملية..

ثم أطلق ضحكة مجلجلة وأغلق الباب خلفه في هدوء متوجهًا إلى حيث الجوقة التي كانت تنتظره وما أن جلس على رأس طاولته حتى مال عليه الضابط فاروق عبدالسلام هامسًا في نبرة استفهام مصحوبة بابتسامة ذات مغزى:

- هل سارت الأمور على ما يرام؟

رد المتيني وهو يتجرع كأسًا من الويسكي دفعة واحدة:

- المعلومات التي جمعتها عنه يا فاروق أفحمته تمامًا وجعلته يدور حول نفسه.. لقد تركته ينضج الآن وقبل أن يحترق ستكون نرجس قد قامت بالباقي.. تبادلا الأنخاب وهما يضحكان في مجون..

تهاوى ماهر على مقعده واضعًا رأسه بين كفيه والدم يفور منه ويغلي في نافوخه.. فقد شعر أنه قد اقترب من النار أكثر من اللازم ولم يعد في مقدوره أن يطفئها فإما أن تحرقه كله أو تأكل جزءًا من أمواله قربانًا للباقي.. لا مفر الآن من التراجع فالطريق أصبح اتجاهًا واحدًا إجباريًّا لا وقوف فيه ولا رجعة منه!

تخفف قليلًا من رابطة عنقه وأعاد رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه وكأنه لا يريد أن يتذكر ذات المشهد مرة أخرى، ولكن هيهات فقد ظل متوترًا وكأن فؤاد المتيني لا يزال يجلس أمامه وصوته يدوي في أركان الغرفة..

فجأة شعر بكفين ناعمين يستقران برفق على كتفيه ففتح عينيه وهو ينتفض قليلًا.. كانت نرجس تقف أمامه وتقترب بوجهها منه حتى كاد يشعر بأنفاسها تخترق أنفه.. ابتسمت له في هدوء وثقة حسبما بدا له وكأنها تقول بعينيها:

«لا مفر من القبول فمن يدخل قفص الأسود عليه أن يطعمها وإلا افترسته».

قالت له نرجس كلامًا كثيرًا ولكن ما لم تقله له أن نارسيس مكان تغسل فيه الطبقة الجديدة أموالها وأصلها وترسم خطوط مستقبلها السياسي والتجاري بعناية.. تغير وجوهها فتتبدل وتتحور.. تظهر على حقيقتها أحيانًا مجردة من أي اصطناع أو تكلف وفي أحيان كثيرة ترتدي أقنعة متعددة فلا تقف على حقيقتها أبدًا مهما تمعنت فيها.. لم يكن مكانًا يعتني بالصحة ويعيد للمرء شبابًا مفتقدًا وإنما أقرب ما يكون إلى تابوت للحياة الأبدية الخالدة في رحاب السلطة والنفوذ.. الجميع يخطبون ود نرجس ويتمنون الانضمام لعالمها الخاص وهي تنتقي منهم من تريد ولم تكن لتصل إلى ما بلغته إلا بقربها من أصحاب السلطان وعلى رأسهم المتيني ورجله الذي لا يفارقه كظله وهمزة الوصل بينه وبين الآخرين الضابط فاروق عبد السلام.

ظلت كلماتها الأخيرة ترن في أذنيه:

«الفرصة أمامك الآن يا ماهر ولن تتاح لك مرة أخرى فإن رفضتها فستكون كأبيك آدم وستطرد من الجنة للأبد».

***

46

حادث إرهابي

نظر الشيخ صادق عبد الحق في ساعته، كانت تشير إلى الواحدة ظهرًا إلا عشر دقائق، ظل رافعًا يده في مواجهة وجهه وملامحه متجمدة لا توحي بأي شيء.. ثم أغمض عينيه ببطء وراح في إغفاءة قصيرة..

في نفس التوقيت كان شابان في بداية العشرينيات من عمريهما يعبران البوابة الخارجية للمتحف المصري ويحملان حقيبة جلدية خضراء داكنة ويرتديان ملابس وأحذية رياضية خفيفة.. مرقا في رشاقة بين الحافلات السياحية الضخمة حتى توقف أولهما مشيرًا بيده لزميله ناحية إحداها وقد امتلأت عن آخرها بالركاب الذين تبدو هيئتهم أجنبية.. اقتربا أكثر من الحافلة التي كانت على وشك التحرك والسعادة تملأ وجوه ركابها.. أشارا لسائقها ففتح الباب فصعدا على الفور وفجأة استلا من بين طيات ملابسهما أسلحة نارية حصدا بها أرواح ثلاثة وأربعين راكبًا في أقل من ثلاث دقائق.. ثم هبطا من الحافلة مسرعين وأحدهما يعبث بكفه داخل الحقيبة حتى قبض على جسم معدني صغير قربه من فمه ونزع منه فتيلته وألقاه بعشوائية وسط الساحة الخارجية للمتحف.. فتصاعدت أبخرة الدخان بكثافة مختلطة بدوي انفجار فسادت حالة من الهرج والمرج تدافع على إثرها المتواجدون بالمكان مهرولين في اتجاهات متباينة فلم يكن أي منهم يدرك مكمن الخطر بعد.. فكانوا يفرون كيوم الحشر..

أطلق رجال الشرطة أعيرة نارية في الهواء وهرول بعضهم مطاردًا الشابين اللذين أصيبا بالارتباك فوجدا أنفسهما يهربان إلى داخل المتحف لا إلى خارجه.. فتدافع المواطنون ورجال الشرطة ناحيتهم حتى أطبقوا عليهما.. كانت الساحة قد تحولت في دقائق معدودات إلى ما يشبه ساحة حرب ما لبثت أن وضعت أوزارها منذ برهة.. سحب دخان تتصاعد في بطء ومصابون يتقلبون ويئنون من الألم ودماؤهم تنزف من أنحاء متفرقة بأجسادهم وعشرات الجثث تتجمع داخل حافلة تحطمت نوافذها الزجاجية فتناثرت حولها قطعًا صغيرة لامعة.. شباب صغير يمد يده ليخطف خلسة في خفة متناهية حقائب جلدية وكاميرات سوداء ملقاة بجوار بعض المصابين وآخرون يتابعون ما يحدث كله في ذهول متسمرين في أماكنهم وكأن على رؤوسهم الطير.

***

هبت رياح عاتية دفعت ضلفتي النافذة بقوة أطاحت بإحداها فتأرجحت قليلًا حتى خارت مقاومة مفصلها فسقطت محدثة دويًّا مفزعًا من جراء تحطم زجاجها.. حاولت العجوز القعيدة النهوض فلم تستطع نادت عليه بصوت واهن فاقترب منها وهو يبدو مشغولًا بأمر آخر فغطى ساقيها الواهنتين اللتين انكشفتا بعدما انحسر عنها جلبابها ثم اعتنى بإعادة غطاء رأسها إلى موضعه بعد كان قد تزحزح قليلًا إلى الوراء فبدت من مقدمة رأسها شعيراتها البيضاء الناصعة وهي تلمع في ظلام دامس يخيم على الحجرة.. هَم بالابتعاد عنها فنبهته إلى أنها جُرحت وتنزف فهدّأ من روعها بحديث منمق طيب سكنت إليه في البداية ثم عادت تتألم أكثر مع تدافع الريح القوية من النافذة والتي تكاد تقتلعها من مكانها فحرص على مساعدتها في ستر جسدها كي لا تنكشف عورتها مرة أخرى ثم احتضنها برفق بينما ظلت هي تئن من جروحها حيث التصقت دماؤها بجلبابه الأبيض القصير فبدا وكأنه هو الذي أصابها والآن يجثم عليها ليجهز على ما تبقى فيها من روح.. ظل يقبض عليها بذراعيه بشدة في مواجهة الرياح الشديدة ويضمها بقوة إلى صدره فكادت تختنق.. تنبه فجأة إلى يد تربت على كتفه برفق.. ففتح عينيه عن آخرهما وظل يحملق في وجه

الشاب الملتحي الواقف أمامه والذي كان يبتسم له في خجل مبديًا الكثير من الأسف لإيقاظه فجأة..!!

نهض الشيخ صادق عبد الحق في فراشه وظل جالسًا به وهو يمسح وجهه بكفيه ويستعيذ بالله كثيرًا بعد تلك الرؤيا التي صحا منها مفزوعًا.. ثم التفت لمساعده وقص عليه رؤياه فتجهم وجهه واستفسر منه عن بعض تفاصيلها باهتمام كبير ثم طلب منه إعادتها على مسامعه مرة أخرى إلى أن انفرجت أساريره وهو يفتي له قائلًا:

- السيدة العجوز هي مصر والرياح العاتية آتية من الغرب ولاشك في ذلك والنافذة هي الاتفاقات والمعاهدات والقروض الدولية وهم يستغلوننا ويستنزفون مواردنا في مقابلها وهو ما يفسر الدماء التي سالت من العجوز والتي حرصت أنت يا مولانا بقوة إيمانك وثبات عقيدتك على ستر عوراتها ضد محاولات العلمانيين والملاحدة لتغيير ثقافتنا وطمس هويتنا.. هذه رؤية تبشر بنصر قريب..!

ارتاحت قسمات وجه الشيخ صادق وزالت تقلصاته التي جثمت على ملامحه فكادت تطمسها من جراء هذا التفسير الذي صادف قبولًا لديه ولكنه سرعان ما تبدلت ملامح الاثنين إلى الجدية عندما دخل عليهما الحجرة رجل ثالث مبلغًا إياهما بخبر عاجل فقفز صادق من فراشه وهو يستعجله لفتح جهاز التليفزيون فورًا قائلًا بنبرة واثقة:

- أدر المفتاح على القناة الأولى الآن سيذيعون الخبر بالتأكيد.. جلسوا يستمعون ويشاهدون ما يبث من خراب ووجوههم متهللة وثالثهما يتمتم خلفهما بعبارات التكبير.. وعندما نطق مقدم النشرة العاجلة بما يفيد بأن المتهمين بقتل السائحين بالمتحف المصري قد ضُبطا في مكان الحادث أحياء حتى اسودت الوجوه.. بُهت صادق ومعاونوه الذين كانوا قد تجمعوا حوله بداخل الشقة الصغيرة بمنطقة كرداسة وتبادلوا نظرات صامتة فيما بينهم في وجوم.. لم يخرجهم منها إلا نبرة غاضبة حاسمة آمرة من بين شفتي الشيخ المرتعشتين في عصبية ظاهرة وهو يقول:

أعدوا بيانًا عاجلًا بنبذ العنف وشجب هذا الحادث الإرهابي ووزعوه على كل الوكالات الصحفية خاصة الأجنبية واتركوا لي أمر إبلاغ إدانتنا للحادث إلى السفارات الأوروبية والسفارة الأمريكية ثم احرقوا كل الأوراق التي هنا وأغلقوا هواتفكم المحمولة لمدة أسبوعين ولا تتجمعوا معًا أبدًا واهجروا القاهرة تمامًا لحين إشعار آخر.

***

جلس ماهر كالمعتاد في كشكه الخشبي في نهاية حديقته من الجانب الآخر القريب لجراج سياراته الثمانية المختلفة الأشكال والأحجام ومن بينها سيارة حمراء مكشوفة كتلك التي كانت تمتلكها ناجية منذ ثلاثين عامًا ولكن من طراز حديث.. مضى يقرأ عناوين الجرائد مع قهوة الصباح فوقعت عيناه على تصريح وزير الداخلية بأن استجواب المتهمين في حادث المتحف المصري الذي وقع بميدان التحرير منذ أسبوعين يؤكد ويقطع بأنه حادث فردي قام به شخص مريض نفسيًّا بمعاونة من شقيقه الذي لا يعتنق فكرًا محددًا ولا يوجد أي تنظيم ديني متطرف وراء هذا الحادث وأن الوضع آمن تمامًا والسياحة ستعود بانتظام كما كانت!!

تمتم ماهر:

- الحمد لله..

ومضى يقلب الجريدة حتى قرأ خبرًا داخليًّا على خلفية ذات الحادث كالمعتاد يقول إن مقتنيات المتحف المصري سليمة تمامًا ولم تتأثر بالحادث الإرهابي وقد تم جرد جميع أقسام المتحف خاصة مقتنيات الملك توت ولا توجد أي قطع أثرية ناقصة..

ابتسم ابتسامة واسعة ساخرة وهو يقول:

- الله يرحمك يا توفيق يا محلاوي..!

ظهر سعيد الخضري في نهاية الحديقة وهو يعدو مسرعًا وقد حملت ملامح وجهه بعضًا من الانزعاج.. فوضع ماهر الجريدة جانبًا وهو يترقبه بلهفة متوترًا فقد كانت شحنة من القطع الأثرية في طريقها إلى خارج البلاد عبر ميناء الإسكندرية فخشي ماهر أن يكون قد افتضح أمرها..

قال سعيد دون أن يجلس:

- لقد التقيت موظف جمرك الميناء في الطريق الزراعي في الموعد الشهري المعتاد لكي أسلمه كف مريم بخصوص شحنة الإسكندرية فأخبرني بأن الرقابة الإدارية تكثف تحرياتها حول زملائه وتتواجد بالميناء منذ أسبوعين وهو يخشى أن يتم اكتشاف فارق الأوزان بالشحنة و**.....**

لم يكمل سعيد فقد كان ماهر قد اكتفى بهذا القدر وأشاح بوجهه عنه شاردًا.. هل يتصل بالمتيني ليطلب منه موعدًا كي يسهل له خروجها؟ أم يلجأ إلى نرجس لتفاتحه هي في الأمر خاصة أنه علم منها منذ فترة قريبة أنها شريكته في كل شيء بعد أن أخبرته بأنها تعرفت عليه منذ أكثر من عشرة أعوام من خلال افتتاحها للنادي الصحي نارسيس بإحدى ضواحي بيروت قبل أن تفتتح له فرعًا أكبر بالقاهرة بمعاونته حتى توطدت الصلة بينهما تمامًا.. أم يتصل بالضابط فاروق عبد السلام حسبما أكد عليه المتيني باللجوء إليه عند وجود أمر هام للغاية؟!

ظل سعيد واقفًا حتى أرهقه الانتظار فأراح جسده على أقرب مقعد فالتفت إليه ماهر قائلًا قبل أن يلتقط أنفاسه:

- هذه الشحنة خمسة وخمسين قطعة أثرية فقط أليس كذلك؟

أومأ سعيد بالإيجاب..

عاد ماهر يسأله:

- وهل احتفظ موظف الجمرك بكف مريم أم أعادها إليك؟

ربت سعيد على جيبه قائلًا:

- لم أعطها له.. ما زالت معي..

قال ماهر وهو يعتدل بجلسته:

- إذًا ضاعفها له خمس مرات..

ثم استرسل غير عابئ بالدهشة التي أطلت من مقلتي سعيد بشدة:

- ستطلب منه شحن خمس حاويات ضخمة وستضع القطع الأثرية كلها في الحاوية الأخيرة فقط بداخل تجويف القاع وتضع بكل حاوية لعب أطفال بأكبر كمية ممكنة ولكن تأكد أن الحاوية التي تحوي القطع الأثرية ستكون الأخيرة في صعودها للمركب وقت الشحن.. وقل للموظف دعهم يشكون ويفتشون ويكسرون قاع الحاويات إن أرادوا ولكن وأنت تسلمه كف مريم نبه عليه بتأخير صعود الحاوية الخامسة قدر ما يستطيع.. واترك الباقي لي وسأتصرف.. هيا اذهب الآن وأريدك أن تُنهي هذا الأمر في أقل من أسبوع.. هل فهمت؟

قام سعيد وهو يتباطأ قائلًا:

- ولكن تكاليف شحن خمس حاويات باهظة جدًا وهو ما سيجعلنا نخسر بالتأكيد..

رد ماهر في ضيق:

- الخسارة مرة.. أفضل من المقامرة هذه المرة.. فلدينا الآن ما نخاف عليه..

قالها وهو يتناول هاتفه المحمول ويطلب رقم نرجس ليطلب موعدًا عاجلًا مع فؤاد المتيني في نارسيس كالمعتاد!!

***

47

التوكيل

نظر ماهر في ساعة يده ثم ابتسم فقد مرت ساعتان على تناوله الحبة الزرقاء الصغيرة.. فترك الشيشة جانبًا وترجل في الحديقة حتى صعد إلى جناحه بالطابق الثاني وهو يرفل في جلباب أزرق بلون السماء.. كانت ناجية ممدة في فراشها ترتدي قميصًا شفافًا ذا لون وردي يكشف عن ساقيها المكتنزتين باللحم البرونزي وكأن الشمس لفحته فصار لامعًا ناضجًا.. كانت رغم اقترابها من الستين مثله تحافظ على رشاقة جسدها وتعتني به مما جعلها تبدو أصغر كثيرًا من عمرها الحقيقي..

اقترب منها كشاب هائج يخطو أولى خطواته نحو تجربته الجنسية الأولى فتشمم عطرها وهو يلتصق بها ببطء مشوب بالرغبة محاولًا تقبيلها من عنقها في شهوة حيوانية كعادته فقد كان يشتهيها ولاتزال تجذبه بشدة مثلما كانت في ليلتها الأولى معه.. فأشاحت عنه بوجهها مندهشة من همجيته وممتعضة منه.. فلم ييأس اقترب منها مرة أخرى وهو يخلع جلبابه ببطء أمامها ويبتسم.. فدفعته بيدها عندما جثم عليها فاردة ذراعيها مثبتة إياها على صدره وهي تنظر له شذرًا..

نفث في ضيق وهو يعتدل في رقدته مبتعدًا عنها ومشعلًا سيجارة في ضجر وهو يقول:

- وإلى متى سنظل هكذا.. شهور طويلة وأنت ترفضينني ولا تصدقين ما أقوله لك دائمًا.. لقد وضعت الأموال كلها تقريبًا في حسابك حتى أضمن مستقبلكم وبإمكاني أن أسحبها مرة أخرى بالتوكيل الذي لديّ إذا كان هذا الأمر سيريحك ولكن.....

قاطعته ناجية في برود وهي تشرع في ارتداء روب طويل حتى تكبت شهوته:

- لقد قمت بإلغاء التوكيل في رحلتي الأخيرة لسوىسرا الأسبوع الماضي..

ثم أخرجت ورقة من مظروف أنيق التقطته من حقيبة يدها وألقت إليه بها في لامبالاة.. طرحه جانبًا هو الآخر دون أن يفتحه قائلًا:

- لا يهم.. طالما قمتي بإلغاء التوكيل فالأموال كلها في حسابك وهذا ما أريده.. أنا فعلت كل ذلك من أجلك وأجل أشجان ومريم..أنا لا أريد شيئًا لنفسي.. هل اطمأن قلبك الآن؟

قالها وهو يتزحزح بجسده على الفراش مقتربًا منها..

نظرت إليه بغضب مبتعدة وهي تقول:

- للمرة الأخيرة سأسألك ما مصدر هذه الأموال يا ماهر؟

أطرق قليلًا ثم رفع عينيه صوب وجهها ذي الملامح الصارمة قائلًا بنبرة جادة:

- هذه أموال الوزير فؤاد المتيني وأنا أديرها له بالخارج مع الخواجة رالف صديق والدك القديم وهذا المبلغ الذي في حسابك الآن يمثل نصيبي من العمولات والإدارة.. لكن أرجوكِ اعتبري هذا الأمر سرًّا بيننا وإلا فقدت حياتي ثمنًا له.

نظرت له ناجية مليًّا وهي تتفرس في وجهه كانت عيناه شبه دامعتين وشفتاه ترجفان من تأثير الحبة الزرقاء كل برهة فبدا كأنه صادق..!!

كان عقلها يتقبل حديثه إلا قليلًا ولكن قلبها يرفض كل كلماته.. ظلت نظراته أمامها متجمدة حتى يتسرب اليقين إليها رويدًا رويدًا.. مرت لحظات بطيئة قطعتها ناجية قائلة:

- عشرون مليون دولار عمولات؟إذَا هذه أموال مصدرها غير مشروع بالتأكيد..
هز كتفيه وهو يمط شفتيه بما يعني أنه لا شأن له بمصدرها ولا يعلمه.. ثم قال:
نحن نستثمرها في أوراق مالية ولا أعرف مصدر حصوله عليها.. وبالنسبة لي تعتبر مشروعة..
فقالت في حسم:
- وبالنسبة لي أيضًا هي ليست كذلك ولا أريدها ولذلك قررت أن أتبرع بها لصالح الأعمال الخيرية بعد أن استفتيت الشيخ صادق
عبد الحق في ذلك بعد أن تزوج إحدى صديقاتي مؤخرًا فأتيحت لي فرصة لقائه وأفتى لي بضرورة التخلص من هذا المال المشبوه!!
بُهت ماهر وقفز من فراشه كثور هائج وهو يتهمها بالجنون ويكاد أن يفقد صوابه صائحًا:
- تتبرعين بعشرين مليون دولار لأعمال خيرية؟!! بالتأكيد أصابتك لوثة.. ومن هذا الشيخ المجهول الذي تذكرين اسمه وكأنه علامة في أصول الفقه وأمور الدين؟! ثم ألم يدر بخلدك أنهم سيسألونك عن مصدرها حتى ولو كانت تبرعًا؟ ارجعي إلى صوابك ولا تهدمي كل ما بنيته على مر السنين في لحظة غضب..
ردت ناجية ببرود دون أن تنظر إليه:
- سأتبرع بها في الخارج وليس في مصر وسأرتب هذا الأمر مع رالف.. أما الشيخ صادق الذي تقول عنه أنه مجهول فيمكنك أن تشاهده وتستمع إليه كل يوم قبل النشرة الإخبارية لتقف على جهلك.. قالتها وهي ترفع صوت التليفزيون أكثر حتى تغطي على صياحه وسبابه وهو يغادر الغرفة متوعدها بالطلاق ومهددًا إياها بالقتل إن فكرت في التبرع بها لاعنًا صادق وأباه عبد الدايم في سره.. ظل وجهه محتقنًا وعروق رقبته نافرة من شدة الغضب ومن جراء الحبة الزرقاء التي تناولها وباءت كل محاولاته في استخدامها بالفشل..

***

وضع ماهر سماعة الهاتف غير مصدق.. شعر بأن قدميه لا تقويان على حمله فتساند على الحائط حتى جلس على أقرب مقعد.. وحواره مع سعيد الخضري لا يريد أن يفارق أذنيه.. من الذي وشى برجاله وأخبر الشرطة بوجود سرداب أسفل حانوت جاكوب الذي اشتراه منذ عامين عقب إفلاسه.. لا أحد يعلم بأمر هذا السرداب إلا سعيد الخضري واثنين من صبيانه لا يمكن أن يشك فيهما لحظة واحدة فهما يعملان معه منذ عشر سنوات بإخلاص شديد.. السرداب المعلوم للشرطة كان في حانوت الشافعي الكبير وهو قد أخلاه منذ سنوات ونقل ما به من آثار إلى محل جاكوب المجاور بعد أن أعاد ترميمه ودفن توفيق حيًّا في القبو الذي كان يقبع خلف جدرانه ومات سره معه.. فمن الذي أخبر الشرطة بأمر السرداب الجديد الذي حفره السوهاجي بعدما اشترى الحانوت من جاكوب حتى تُدبر له كمينًا صباح اليوم وتفتش السرداب وتضبط قطعًا أثرية بداخله قبل تهريبها للخارج..
أغمض عينيه بشدة وهو يشعر بضيق في تنفسه.. فمنذ أن اقترب من المتيني والأمور تزداد تعقيدًا رغم أنه دفع ثلث أمواله لحماية الثلثين.. ولكنه بات يعيش في كمد مستمر فلم يعد يستمتع كما كان.. تذكر فجأة كلمات ناجية له منذ أن غضبت عليه وهي تردد:
«أنت تندفع إلى منزلق سعيدًا متفاخرًا بحجمك الذي يكبر وسرعتك في التقدم ولكن ستهوي فجأة من علٍ ووقت الاصطدام بالقاع ستتفتت إلى قطع صغيرة ولن تقوى على تجميع أشلائك مرة أخرى»..

رفع سماعة الهاتف وطلب رقم محاميه الخاص قائلًا:

- الشرطة ضبطت آثارًا بمحل جاكوب القديم..

صمت قليلًا ثم أضاف:

- نعم.. نعم هذا الحانوت باسم قريبي منصور الطيب وهو أيضا المدير المسئول ولا صلة لي بالتجارة فيه على الورق الرسمي.. افعل كل ما في وسعك للإفراج عنه أرجوك فسوف يتم عرضه على النيابة مساء اليوم..

ثم أغلق الهاتف ووجه منصور الطيب يتمثل أمامه صامتًا وكأنه على وشك البكاء فأغمض عينيه مرة أخرى بشدة ليمحوه من مخيلته ولكن دون جدوى..

***

48

الشيخ صادق

عقب لقائهما الشهري الروتيني للمتابعة كان العميد شريف أبو النجا يبدو مرهقًا للغاية.. فأخرج الشيخ صادق عبد الحق قنينة صغيرة من جيبه ثم أمسك بكفه ووضع له بعضًا من حبة البركة بها قائلًا له بنبرة حانية وملامح وديعة:

- تناولها مع قليل من العسل..

ثم ترك له القنينة الصغيرة على مكتبه وهو يردف:

- عليك بتناول كمية منها كل يوم مع ملعقة عسل كبيرة وستصبح أفضل خلال وقت قصير إن شاء الله..

شكره شريف مداعبًا بأنه لم يكن يعرف أنه طبيب..

لم يفهم الشيخ الدعابة في البداية فرد بتلقائية:

- أنا خريج المعهد الفني لميكانيكا السيارات قسم تبريد محركات!! أفلتت نظرات دهشة من عيني الضابط ثم امتصها في صمت وهو يعاود استكمال المتابعة معه ومراجعة أسماء أعضاء بعض الخلايا الإرهابية الخاملة بشمال سيناء حتى يتم التعامل معها على خلفية تفجيرات هزت تلك المنطقة بصورة متتالية ومفاجئة دون سابق إنذار رغم أن مكتب أمن الدولة بالعريش لم يشر في تقاريره الدورية إلى وجود خلايا متطرفة هناك على الإطلاق..

في نهاية اللقاء وقبل أن يغادر الشيخ صادق استوقفه العميد شريف سائلًا:

- سؤال أخير يا مولانا.. هل لديكم معلومات عن مشعلي الحرائق التي نشبت في منازل كثيرة متجاورة بمحافظات أسوان وأسيوط وسوهاج على مدار الأسابيع الثلاثة الماضية..

هز الشيخ عبد الحق رأسه بالإيجاب وهو يبتسم..

- ما الذي يدعوك للابتسام يا مولانا؟

- الأمر أبسط من أن تلجأ إلينا فيه فهو ليس نشاطًا ارهابيًّا كما تظن..

عقد شريف حاجبيه وهو يتطلع إليه طالبًا المزيد من الإيضاح فأردف الشيخ بنبرة الواثق:

- كلما فكرت الحكومة في إنشاء ظهير صحراوي جديد وتسربت أنباء عن اعتماد الميزانية يقوم الأهالي بحرق منازلهم لكي يدخلوا في حساباتكم فيحصلوا على بيوت جديدة باعتبارهم مضارين بينما أراضيهم التي كانت بيوتهم المحترقة مشيدة عليها لا تزال في ملكيتهم ولم يتم نزعها بعد.. فيعيدون بيعها مرة أخرى ويتربحون على حساب الحكومة التي تدفع ثمنها مرتين وهكذا..

أدار شريف رقمًا من هاتف مكتبه ثم تحدث مع ضابط الاتصال المسئول عن وزارة الإسكان مستفسرًا منه عن نية الوزارة في بدء بناء ظهير صحراوي بتلك المحافظات فأكد له صحة المعلومات في محافظتي أسوان وأسيوط فقط.. أغلق السماعة وزم شفتيه ضجرًا ثم قال وهو لا ينظر إلى وجه الشيخ وكأنه يفكر بصوت عالٍ:

- ومن الذي يسرب هذه المعلومات؟

أجابه صادق في بساطة:

- موظفو المحليات بالاتفاق مع بعض المقاولين في تلك المحافظات لأن الدولة تقوم بتعويض الأهالي ببناء منازل جديدة لهم.. الموضوع كله يدور في دائرة مغلقة بين الأهالي والمقاولين والموظفين، أما الحكومة فهي التي تدفع الفاتورة في النهاية..

قبل أن يغادر الشيخ صادق المكتب مال قليلًا بجسده ناحية شريف وهو يودعه قائلًا:

- الأخ صالح عبد الحي سوف يمر عليك بالإدارة غدًا ومعه كشف بأسماء مرشحينا بالمرحلتين الأولى والثانية..

ارتبك شريف وهو يقول بنبرة يغلفها اعتذار المدين المعسر الذي اعتاد الاقتراض:

- دعه يكتفي بالمرحلة الأولى فقط فالريح غير ملائمة لمرحلتين الآن..

امتعض وجه الشيخ صادق قليلا ثم سرعان ما عاود الابتسام وهو يتمتم:

- إن شاء الله كل خير سأرسل لك أسماء عناصرنا بالمرحلتين إذ ربما تهدأ الريح قريبًا.

***

اسمح لي يا معلم ماهر في تطفلي لماذا لا أراك تستخدم حمام السباحة أبدًا؟

رد ماهر ضاحكًا وهو ينفث دخان شيشته ويتأمل سعيد الخضري بجسده المفرط في البدانة:

- أنا لا أجيد السباحة يا سعيد ولا أستخدم أغلب ما في هذا القصر من كماليات وإنما ناجية وأشجان هما اللتان فعلتا كل شيء.. حمام السباحة وغرفة البخار وطاولة البلياردو حتى ملعبي التنس والاسكواش لم أدخلهما.. والآن دعك من القصور وحدثني عن القبور قالها وهو يضحك مسترسلًا:

- ما أخبار حفائر بيوت القرنة؟

رد سعيد وهو يقلب الفحم استعدادًا لتدخين الشيشة:

- العمل شبه متوقف فهم يريدون مضاعفة الأجر اليومي لكي يسمحوا لنا بالتنقيب أسفل بيوتهم وأنا سأسافر الأقصر غدًا لأتفاوض معهم وسأعرض عليهم ألفًا وخمسمائة جنيه في اليوم.. ربما يقبلون..قالها بيأس.

وضع ماهر مبسم الشيشة على صدر سعيد وكأنه يشهر سيفه في وجهه قائلًا:

- ستسافر نعم.. ولكن لن تتفاوض.. اسمعني جيدًا سنستثمر ما حدث في أسوان وأسيوط وسوهاج.. كل المطلوب منك استئجار بعض الرجال ليضرموا النيران في هذه المنازل بالقرنة.. يكفي بيت أو اثنان منها وألسنة اللهب ستنتقل إلى الباقي بسهولة.. أحرقوها وهم نائمون حتى يرتبكوا أكثر ولا يتمكنوا من إخمادها بسهولة إلا بعد أن تكون قد أتت على كل البيوت..

- وماذا سنستفيد يا معلم سوهاجي من حرقها؟

أجابه ماهر وهو يبتسم:

الضابط فاروق عبد السلام من مباحث أمن الدولة أكد لي أن تحرياتهم الدقيقة قد أسفرت عن أن الأهالي بالصعيد يحرقون منازلهم للحصول على تعويض!! وفؤاد باشا المتيني سيساعدنا في إرساء مناقصة إعادة البناء والتعمير لهذه البيوت على شركتنا.. وسندخل العملية بالسجل التجاري الخاص بك وسنشارك مقاول الباطن الذي ستتفق معه في العملية على أننا سنحفر أولا ونستخرج القطع التي نحتاج إليها وهو يبني البيوت بعد أن ننتهي..

لمعت عينا سعيد الخضري في إعجاب بعقلية ماهر وتدابيره ولكن سرعان ما تبدلت ملامحه عندما سأله السوهاجي فجأة:

- اليوم كان الحكم في قضية منصور الطيب أليس كذلك؟..

أطرق سعيد قليلًا ثم قال بصوت حزين:

- المحامي اتصل بي قبل حضوري فلم يكن يريد إبلاغك بأن المحكمة حكمت بسجنه عشر سنوات.. ولم أرد أن أكون أول من يخبرك بهذا الخبر ولكنك سألتنى..

أطرق ماهر وهو يتمتم:

- طوال حياته وهو قليل الحظ في هذه الدنيا.. أعطاها ظهره كثيرًا فهجرته..

قالها ثم أخرج نفسًا طويلًا من شفتيه مشكلا دوائر وحلقات متداخلة من الدخان..

فجأة تنامى إلى سمعه صوت جلبة وصراخ مكتوم من ناحية شرفة القصر المطلة على الحديقة التفت فشاهد مريم الصغيرة تعدو نحوه والدموع تبلل وجنتيها وملامحها مضطربة وما أن اقتربت منه حتى تعثرت وسقطت فهرع إليها يعاونها على النهوض مستفسرًا منها عما حدث فقالت بصوت مختنق بالبكاء:

- أمي اتصلت الآن وقالت إن جدتي ناجية سقطت في المحكمة مغشيًّا عليها وهي تتكلم مع عمي منصور الطيب بالقفص ونُقلت إلى المستشفى بسيارة إسعاف.

***

49

الصدمة

حاول الطبيب الشاب جاهدًا أن يقنع ماهر السوهاجي بأن زوجته تعرضت لصدمة عصبية حادة وأصيبت بجلطة كبيرة سببت عطبًا بمركز التخاطب بالمخ مما أدى إلى فقدها النطق والذاكرة بصورة مؤقتة أثناء تواجدها في المحكمة وأن نقلها من المستشفى في الوقت الحالي يشكل خطرًا داهمًا على حياتها وأنهم قد نجحوا في إذابة جزء كبير من الجلطة ولكن الحالة حرجة للغاية.. إلا أنه أمام إصرار السوهاجي على سفرها للخارج حتى لو اقتضى الأمر استئجار طائرة خاصة دفع بالطبيب لأن يستعين بمدير المستشفى لمحاولة إقناع ماهر فلم يفلح هو الآخر خاصة بعد أن تلقى مكالمة هاتفية للتوصية على المريضة من مكتب فؤاد المتينى.. فباتت رغبات ماهر السوهاجي أحلامًا عليهم جميعًا أن يحققوها له لتصير واقعًا وفي وقت قصير أيضًا..!

قاد ماهر سيارته بنفسه وسار بها في اتجاه كورنيش المعادي بعد أن تلقى على هاتفه المحمول عشرات المكالمات من نرجس ولم يرد عليها بسبب تواجده بالقرب من ناجية في المستشفى حتى وصلته رسالة هاتفية منها تطلب حضوره فورًا لأمر مهم لا يحتمل التأجيل ودونت في نهاية الرسالة عبارة «كف مريم» وفقًا لاتفاقهما عندما تريده في أمر هام لا يحتمل التأجيل..!! حاول الاتصال بها فوجد هاتفهًا مغلقًا فزاد قلقه.. عندما غادر المستشفى كان يحمل مشاعر متباينة ما بين قلقه على ناجية وخوفه على ضياع أمواله بعد أن أودعها بحسابها وقامت هي بإلغاء التوكيل ثم تأكد من السوىسري رالف أنها لم تتصل به أو تقابله للتبرع بها حسبما هددته.. مط شفتيه في ضيق فقد شعر بأنه قد لف حبلًا حول رقبته وأحكم ربط عقدته بهذا التصرف.. لم يكن يتخيل أبدًا كل ما حدث.. بدءًا من ضبط منصور واتهامه بحيازة آثار مسروقة والإتجار فيها حتى سجنه إلى فقد ناجية لوعيها فجأة لتصبح عشرون مليون دولار مهددة بالضياع بين ليلة وضحاها..

رنت في أذنيه فجأة وهو يقود السيارة على طريق كورنيش المعادي كلمات أشجان له في المستشفى وهي تروي له أن ناجية تحدثت مع منصور بعد النطق بالحكم لفترة طويلة فقص عليها أمرًا ما جعلها تسقط مغشيًّا عليها بعد أن تحجرت الدموع في عينيها لدقائق..

لعن في سره منصور الطيب قائلًا:

«هذا الحقير الحاقد..لابد وأنه أخبرها بأنني الذي أتّجر في الآثار ولابد أنه روى لها حقيقة مهنة والدها وبداية التجارة الغير مشروعة».. طرق مقود السيارة بعنف من شدة غيظه ثم طلب رقم سعيد الخضري على الهاتف المحمول وبلهجة آمرة قال:

- يجب عليك زيارة منصور اليوم في التخشيبة بأي وسيلة قبل ترحيله إلى السجن واعرف منه ماذا قال لناجية بالتفصيل بعدما انتهت الجلسة وأخبرني فورًا..

ترك سيارته لأحد حراس نادي نارسيس وترجل متجها للقاء نرجس بمكتبها بالمبنى الملحق الصغير الذي يقبع خلف مبنى النادي مباشرة..

كان مكتب نرجس شبه خاوٍ وحقائب وصناديق صغيرة ممتلئة بأوراق وأشياء أخرى يتم إخراجها من

الباب الخلفي إلى تجويف سيارة نقل كبيرة لتلحق بصناديق أخرى تقبع في صندوقها الخلفي الضخم.. انتابت الدهشة ماهر أكثر وأكثر عندما وجد نرجس أمامه فجأة تتحدث بعصبية مع مدير النادي وتطلب تحويل أموال من حسابها بالقاهرة إلى حساب آخر بأحد البنوك اللبنانية.. كانت تدخن بشراهة وتبدو عيناها زائغتين حتى أنها لم تلتفت لحضوره ولما تنبهت لوجوده طلبت منه أن ينتظرها في صالون آخر بالطابق الثاني.. كان القلق قد استبد به تمامًا وكادت الحيرة تقتله حتى جاءت نرجس إليه وما أن جلست حتى باغتته قائلة:

- فؤاد المتيني تمت إقالته اليوم من منصبه الحزبي.. وأخبرني الضابط فاروق عبد السلام أنه تقريبًا تم تحديد إقامته بمزرعته بالشرقية.. يبدو أنهم انقلبوا عليه فجأة لقد أكد لي فاروق أنه سيكون كبش فداء.. ولا تسألني لمن أو لماذا.. فأنا لا أعرف سوى ما قلته لك.. لأن الضابط فاروق قليل الكلام جدًا.

ثم أردفت بعيون دامعة:

- منذ أن تخليت عني وأنا قررت أن أخرجك من حياتي وحتى بعد ظهورك مرة ثانية حاولت الابتعاد عنك.. لكنني وجدت نفسي أتصل بك اليوم لأخبرك حتى تدبر أمورك فلابد أنهم سيفتشون وراءك الآن بعد ما انكشف ظهرك..

ثم أضافت بنبرة بدت صادقة:

- ربما أكون مازلت أحبك.. أو لديّ بقايا ذكريات جميلة في نفسي فلم يكن لي شيء نقي في حياتي أبدًا رغم أنني فعلت كل شيء في هذه الدنيا ونلت كل ما أردته إلا أن أكون أمًّا لطفل من كثرة ما أجهضت.. دائمًا ما أشعر بمرارة غريبة قاتلة والوحيد الذي أعطاني السعادة يومًا ما هو أنت.. والوحيد الذي أخذها فجأة هو أنت أيضًا.. أنا سأسافر مساء اليوم إلى بيروت حتى تهدأ الأمور وتتضح الرؤية فلديّ شقة هناك اشتراها لي مراد الشامي منذ سنوات وسجلها باسمى..!

شعر ماهر بدوار مع ذكر اسم مراد الشامي وهي تقص عليه جانبًا خفيًّا من قصتها عندما دخل هو السجن في السبعينيات فروت له كيف التقطها مراد بعد وفاة الشافعي الكبير عندما ترددت على طلال لترجوه أن يترك لها شقة الزوجية ثم كيف تزوجها مراد الشامي وسافرت وعاشت معه في لبنان حتى مات فورثته وافتتحت بأمواله التي ورثتها عنه النادي الصحي نارسيس هناك وكانت قد تعرفت على فؤاد المتيني من خلال شراكته لمراد الشامي في عمليات تجارية ببيروت عندما كان يتردد على لبنان للسهر واللهو قبل اشتغاله بالسياسة وبزوغ نجمه، كان وقتها يدق طبول العبث والآن صار يعزف منفردًا على أوتار الوطن فتعلقت به وسارت في ركابه حتى عادت إلى القاهرة مرة أخرى لتصعد معه إلى تلال الثروة والنفوذ ولكن من السلم الخلفى شأنها شأن الكثيرين من الأقلية المتحكمة.

حتى الداعرة أفضل منك..!! قالها لنفسه وهو يقود سيارته عائدًا للمستشفى يكاد لا يصدق ما سمعه منها من فرط دهشته من غرابة الأحداث.. المصائب دائمًا تأتي مجتمعة.. ولكن الرياح عاتية هذه المرة حتى لو انحنى أمامها.. وتبدو أنها ستقتلعه من جذوره فالخطر بات يحدق به من كل جانب.. زوجته في خطر وتجارته في خطر وأمواله في خطر حتى هو نفسه بات في خطر وشيك.. لم يعد يقوى على التفكير، شعر بأن عقله قد أصابه الشلل وكأن الصورة قد تم تثبيتها فجأة عليه وهو يدخل السجن مرة أخرى..!

توقف بالسيارة قليلًا على يمين الطريق بعد أن شعر بدوار خفيف.. أعاد رأسه للخلف قليلًا وأراحها على مسند المقعد ثم اتصل بسائقه ليحضر إليه.. أغلق عينيه وكأنه يشاهد رحلته من بدايتها بعد أن اقتربت نهايتها.. أحمد بك كاظم يتفق معه على هدم المسجد، أمه وهي تموت جوعًا وتنتحب لفراقه، زبيدة القوادة ونرجس العاهرة التي أحبته وكتمت حبها لسنوات طويلة، عمله مرشدًا للشرطة وعشرات

الأشخاص الذين أبلغ عنهم توفيق المحلاوي الذي دُفن حيًّا، الشافعي الكبير الذي ورث تجارته وابنته، فؤاد المتيني رجل الدولة القوي الذي كان يوفر له الأمان حتى صار أضعف من أن يحمي نفسه الآن.. ناجية التي راحت في غيبوبة.. ومنصور الطيب الذي سُجن ظلمًا.. انتبه فجأة على مشهد منصور بذاكرته ثم تجهم وجهه وأعاد طلب سعيد الخضري الذي أجابه بجديته المعهودة:

- قابلته بالحجز قبل الترحيل واتصلت بك لكن هاتفك كان مغلقًا.. منصور لم يترك شيئًا إلا ورواه لها..

قبل أن يرد ماهر بأي رد أردف الخضري:

- وهددني كما هددها بأنه إذا لم يخرج أثناء استئناف القضية فسوف يقول هذا الكلام أمام المحكمة..

أغلق ماهر الخط وأشعل سيجارة بعد أن شعر بزوال الدوار ليحل محله غليان غريب وكأن النمل يجري في تجويف رأسه قائلًا لنفسه:

«ما لا يدرك كله لا يترك كله لابد أن أستعيد العشرين مليون دولار بأي وسيلة ونُسكت منصور الطيب للأبد».. قالها ثم حاول الاتصال بفؤاد المتيني فلم يرد.. فكر قليلًا ثم أدار رقم هاتف خاصًّا طالما أخبره الضابط فاروق عبد السلام أنه مؤمن ضد المراقبة ولكن يستخدم في الضرورة القصوى فقط.. وما أن جاءه صوته على الطرف الآخر حتى روى له تهديدات منصور الطيب بعد أن أضاف لها على لسان منصور أيضًا تهديدًا بفضح فؤاد المتيني ليطمئن نفسه ويعجل بمشهد النهاية..

ثم أدار محرك السيارة منطلقًا باتجاه المستشفى مرة أخرى دون أن ينتظر سائقه مطمئنًا إلى أن منصور الطيب الذي عاش حياة حافلة بالأشغال الشاقة قد صار الآن في انتظار حكم الإعدام..!!

***

هبطت طائرة مصر الطيران إلى مطار زيورخ وصوت أزيزها يُصم الآذان حتى استقرت في الحارة المخصصة لها فتحركت على الفور سيارة إسعاف مقتربة من بابها الأمامي استعدادًا لاستقبال ناجية وماهر السوهاجي وأشجان ابنتها اللذين كانا يرافقانها في رحلتها العلاجية.. أنهيت الإجراءات في دقائق وسرعان ما كانت السيارة تطلق بوقها في اتجاه المستشفى بأقصى سرعة ممكنة.. بينما انفصل السوهاجي عن الركب متوجهًا صحبة السوىسري رالف إلى بنك كريدي سوىس للقاء أحد المدراء من أصدقاء رالف المقربين للتفاوض على استعادة المبلغ المودع بحساب ناجية بأي وسيلة حتى لو خسر ثلثه في صفقة أخيرة يائسة..!

كانت الصدمة شديدة على ماهر تلك المرة فظل جالسًا أمام مدير فرع البنك بزيورخ لا يقوى على الحراك وكأن ساقيه قد تيبستا في حين كان شريكه السوىسري رالف يراجع لمرة ثالثة الأوراق التي قدمها لهما المدير وتفيد بأن ناجية قد طلبت عدم صرف أية مبالغ من حسابها إلا ببصمة صوتها فقط دون أي وسيلة أخرى.. وأن تؤول الأموال بالكامل إلى إحدى المؤسسات البحثية العلمية في حالة وفاتها بعد أن كلفت البنك بإمدادها ببيانات وافية عن كيفية التبرع لصالح الأبحاث التي تُجرى لعلاج الأمراض المستعصية!!

***

50

كف مريم

مضى شهر كامل وماهر لا يلتقي أحدًا.. أغلق هواتفه المحمولة ولم يعد يرد على هاتف بيته ولم يذهب إلى محلاته أبدًا.. المرة الوحيدة التي خرج فيها كانت لتلقي العزاء في منصور الطيب الذي وافته المنية فجأة إثر هبوط حاد بالدورة الدموية وفقًا لتقرير طبيب السجن..!! ثم ذهب مع سعيد الخضري لتعزية نبوية زوجته وترك بعض المال لأولاده ثم انصرف بينما هم يلعنونه في سرهم.. فلم يحبونه يوما أبدًا.

أطلق لحيته بلا تهذيب كانت بيضاء ناصعة مثل شعيرات رأسه تمامًا فبدا أكبر من عمره بكثير.. أصابه اكتئاب حاد لم يخرجه منه أحد.. الوحيدة التي كانت تخترق عزلته هي الطفلة الصغيرة مريم.. كان يعاملها على أنها حفيدته وطفلته في آن واحد فقد كان عقيمًا.. كان يغدق عليها بكل شيء بلا تفكير فلا يتركها تشعر للحظة واحدة أنها تحتاج شيئًا.. كان يريدها أن تمتلك كل شيء ومع ذلك كانت تحيره دائمًا بنظراتها الحزينة البائسة وكأنها فقيرة معدمة.. جلست على ركبتيه مثلما اعتادت وهي تداعبه بأنه صار عجوزًا.

ابتسم لها نصف ابتسامة بالكاد ثم احتضنها في رفق فداعبته أكثر قائلة:

- صرت ضعيفًا ولا تستطيع حتى أن تحتضنني بقوة مثلما كنت.. ضحك رغمًا عنه وهو يضمها إلى صدره أكثر.. ثم عاد إلى اكتئابه بسرعة فتملص منها مؤنبًا إياها على إهمالها دروسها طالبًا منها أن تصلي وتدعو لجدتها بأن تشفى من غيبوبتها وتعود إليهم بسرعة.. ثم ربت على كتفيها وقبلها حتى تنصرف.. تذكر فجأة أن سعيد الخضري قد حضر منذ يومين وترك له رسالة خطية تفيد بأنهم تمكنوا من استخراج تمثال نصفي كبير الحجم من أسفل أحد المنازل المحترقة بالقرنة والتي رست عليهم مناقصة إعادة البناء فيها.. فكر قليلًا وهو يعبث بلحيته ثم نادى على خادمه النوبي طالبًا منه الاتصال بسعيد الخضري ولكن من هاتف الخادم لا من هواتف البيت..

أخرجته الأخبار التي نقلها له سعيد عبر الهاتف من حالة الاكتئاب التي تحيط به نوعًا ما فعلم منه أن أعمال الحفر أوشكت على الانتهاء وتم استخراج بعض من التمائم إلا أن الكشف المهم كان تمثالًا من الجرانيت للإله سخمت وأنه في طريقه لمخزن الهرم لتغليفه تمهيدًا لشحنه بعد أيام ضمن شحنة كبيرة من لعب الأطفال إلى مدينة دبي من خلال سجل تجاري وشركة جديدة قاموا بتأسيسها لتضليل الشرطة..

وقف في الشرفة يطل على حديقته الشاسعة ويتأمل قرص الشمس وهو يغيب ببطء خلف أشجار النخيل العالية والليل يتأهب للحلول..لمح نبات كف مريم في إحدى جنبات الحديقة القريبة منه فابتسم رغمًا عنه وترحم في سره على الشافعي الكبير عندما تذكر عبارة كف مريم التي ظل يستخدمها في رشوة موظفي الجمارك وضباط الشرطة وموظفي الضرائب ومفتشي الآثار على مدار خمسة وثلاثين عامًا وكأن بينهم اتفاقًا مسبقًا.. اتسعت ابتسامته أكثر وهو يتذكر بداية الفكرة عندما صارحه الشافعي الكبير بمخاوفه من البوليس الذي يراقب هواتف الحانوت والمسكن والمخزن فاقترح ماهر عليه أن تكون كف مريم رمزًا دائمًا لرشوة موظف الحيازة أو حتى الضرائب في موعد محدد ثابت كل شهر يذهب لتسليمه صبي مختلف كل مرة بعد أن يتلقى توفيق المحلاوي الإشارة حتى صار يوم الخميس الثالث من كل شهر ميعادًا للقاء بغض النظر عن تقديم الرشوة لتفادي المراقبات. بدأت بخمسة جنيهات ومع الوقت صارت الخمسة جنيهات خمسين جنيهًا ثم خمسمائة في نهاية السبعينيات وعندما خرج من السجن لم تعد الخمسة آلاف

كافية لخروج القطع الأثرية من الميناء فرفعها ماهر إلى خمسين ألفا حتى انتهى به الحال إلى خمسمائة ألف جنيه سيدفعها للمرتشين بعد يومين نظير خروج حاوية واحدة.

لم يتخيل ماهر أن هذه العبارة البسيطة التي طرأت فكرتها على رأسه تحت وطأة تدخينه الحشيش بعوامة الكيت كات يومًا ما أنها ستنجح وستخفي وراءها اتفاقات مسبقة مدروسة بدقة ولا يتبقى سوى التنفيذ فقط.. كان الشافعي الكبير ينطق بها عبر الهاتف مع توفيق وبعدها كل واحد من رجاله يعرف دوره مع الموظفين المرتشين في أماكن محددة سلفًا في نهاية كل لقاء.

قال في نفسه وهو يضحك ضحكة خافتة:

«لو كنت أعيش في الخارج لكنت سجلت الفكرة باسمي كبراءة اختراع وحدة قياس موحدة للرشوة»..

ألقى نظرة أخيرة على نبات كف مريم الذي كان يقبض بأصابعه العشبية الخمسة الرقيقة التي تشبه كف اليد على ثمرة ليمون صغيرة ويعتصرها في رفق..!

***

ثلاث طرقات خفيفة دقت على باب حجرة نوم ماهر بعدها تحرك المقبض ببطء كانت الصغيرة مريم تتسلل على أطراف أصابعها حتى اقتربت منه وصارت تعبث بأناملها الرقيقة في أنفه وأذنيه وهو يتأفف حتى استيقظ فجأة وعيناه تبرقان بشدة فأخافها للوهلة الأولى فابتسم لها نصف ابتسامة كي تهدأ ثم فرك عينيه وهو ينظر في ساعته فاكتشف أنه لم ينم سوى ساعات قليلة فقد كانت عقارب الساعة تقترب من منتصف الليل.. انزعج لكون مريم مازالت مستيقظة ولما شرع في تأنيبها أجابته ببراءة:

- عمي سعيد الخضري صديقك السمين ينتظرك في الحديقة ومعه تمثال أسود كبير جدًا وطلب مني أن أوقظك بأي طريقة..

لم يدرك ماهر كيف هبط في ثوانٍ معدودات إلى الحديقة بعد أن انتفض مذعورًا من فراشه وهو لا يزال بملابس النوم قافزًا سلالم الدرج رغم سنه المتقدمة.. ليعدو في الحديقة وهو في حالة من الهلع الممزوج بعدم الفهم والمختلط بالغضب من هذا التصرف الأهوج.. عندما خطا بضع خطوات من ناحية المدخل الغربي لقصره كان سعيد يقف بجوار التمثال النصفي وبجواره أحد صبيان الحانوت الذي كان مطرقًا وجهه في الأرض وساكنًا تمامًا ولما اقترب منهما ماهر مستفسرًا بصوت عالٍ عن هذا التصرف الغريب لم يتلق أي إجابة فقد ظل سعيد صامتًا في وجوم ووجهه مكفهرًا وعيناه زائغتين بينما لاحظ ماهر أن صبيه الواقف إلى جواره قد تورم وجهه قليلًا وآثار كدمة ظاهرة بوضوح تحت عينيه رغم الظلام..

هوى ماهر بكفه فجأة على وجه الصبي فكاد يسقطه أرضًا من شدة الصفعة وهو يوجه له أقذع الشتائم ثم التفت إلى سعيد الخضري ممسكا بمقدمة جلبابه وهو يهزه بعنف صارخًا كمن فقد صوابه بينما إحدى جنبات فكه تتدلى قليلا من فرط اضطرابه:

- لماذا أتيت بهذه التهمة إلى هنا ولم تذهب بها إلى مخزن الهرم لتغليفها ومعك كف مريم كما اتفقنا..انطق..

أطرق سعيد مرة أخرى ثم رفع رأسه وهو ينظر باتجاه المدخل الغربي دون أن يتكلم فقد نطق ماهر بالكلمة المنتظرة.. التفت السوهاجي خلفه فوجد عشرات من ضباط الشرطة يهرولون نحوه، أطبقت المفاجأة على تفكيره فتسمر مكانه.. لحظات وكان هذا الجمع يحيط به ويصطحبه هو ورجاله الذين تعرضوا لضغوط رهيبة خلال الساعات الماضية حتى أوقعوا به بعد أكثر من ثلاثين عامًا تمكن فيها من خداع الجميع..

- تهمتك إيه يا حاج؟

التفت ماهر إلى الجالس بجواره في سيارة الترحيلات ويربط بينهما قيد حديدي واحد.. كان شابًا بدينًا حليق الرأس تمامًا يحمل وجهه الكثير من العلامات التي تدل على أنه بلطجي من الطراز الأول.. لم يرد ماهر وظل صامتًا..

عاد الشاب يسأل في لزوجة:

- يبدو من هيئتك أن تهمتك سياسية أليس كذلك؟

تعجب ماهر من السؤال في البداية دون أن ينظر إلى محدثه ثم تذكر أن لحيته مازالت طليقة فلم يكن قد حلقها منذ أسابيع طويلة ولا يزال يرتدي جلبابا منذ ضبطه.. فابتسم في صمت وهو يتحسسها بأصابعه..

عاد الشاب إثر هذه الابتسامة الصامتة يسأل في سذاجة:

- إخوان؟

نظر له ماهر بطرف عينه ثم قال ببرود:

- كلنا إخوان.. وكلنا مسلمون أمرنا لله..!!

***

51

عنبر الأموال العامة

السجن لم يتغير كثيرًا عما كان عليه عام 1977 ، فقط صار أكثر نظافة وأكبر من حيث المساحة وأفضل من حيث المعاملة الآدمية ولكن كل ما سبق كان حصريًّا لصالح كبار النزلاء فقط لا غير أما عامة المساجين فالحال بقي على ما هو عليه منذ ثلاثين عامًا إن لم يكن أسوأ..!!

كان عدد المساجين فيما يبدو في ازدياد واضح.. نجح ماهر في أن يفلت من براثن العنابر العادية ويقيم بعنبر الأموال العامة من خلال استعادة لعلاقات قديمة مع بعض الضباط والمساجين من كبار مسئولي الصف الثاني الذين صاروا نزلاء معه، في حين بقي سعيد الخضري وباقي صبيان ماهر في الزنازين العادية يلبسون ملابس السجن ذات القماش القطني الرديء الذي يسبب حكة مستمرة طوال الوقت، ويحلقون رؤوسهم تمامًا حتى لا يخفون فيها مخدرات أو شفرات حلاقة يتشاجرون بها، وكانوا يقضون حاجتهم في جرادل معدنية تبيت معهم في الزنازين ويقضون نهارهم في خدمة نزلاء عنبر الأموال العامة وتنظيف ملابسهم ودورات مياههم نظير بضع علب من السجائر أو فضلات الطعام التي تتبقى من زيارات علية القوم من باقي المسجونين.. حتى شاويش السجن كان يُنادى عليه في عنابر الكبراء باسمه مجردًا، أما في باقي الزنازين فإذا لم يلحقه لقب باشا فينال المسجون عقابًا رادعًا له ولغيره ممن قد تسول لهم أنفسهم تكرار النداء بلا تفخيم..

صورة مصغرة للمجتمع بكل عيوبه ونقائصه، طبقات دنيا وكبراء لا تفُتش متعلقاتهم أبدًا.. أسياد وعبيد.. نفاق المأمور وضابط عظيم السجن وصولات الزنازين من الطقوس اليومية التي يجب أن تؤدى في مواعيدها تفاديًا للنقل المفاجئ في حركة الشرطة.. بهذه الكلمات لخص له أحد قيادات اليسار المسجون على ذمة قضية سياسية الأوضاع بالعنبر.. مسترسلًا في الحديث:

- أما المنتمون للتيار الديني فهم منعزلون في زنازين خاصة لا يختلطون بالمساجين العاديين أبدًا ولا يتحدثون معهم مثلما هم في خارج السجن..

ثم ضحك وهو يقول:

- من اعتاد على العمل تحت الأرض طوال عمره يخشى النور دائمًا حتى ولو في السجن.. إلا واحدًا كسر القاعدة واختار أن يقيم معكم بعنابر الأموال العامة بعد أن توسط له ضابط كبير سابق في مباحث أمن الدولة يدعى اللواء أبو النجا..

ثم أشار له إلى الشيخ صادق عبد الحق الذي كان قد أصبح أشهر من نار على علم في السنوات الأخيرة بعد أن صار يقدم برنامجًا أسبوعيًّا في إحدى الفضائيات الواسعة الانتشار.. الكل الآن في السجن يتودد إليه ويخطب وده وهو يقابلهم بوجه بشوش ونبرة حانية وكأنه أتى في زيارة ليعظهم فيتوبون على يديه لا ليقضي عقوبة السجن المؤبد في جريمة إرهاب كان هو المحرض عليها والمخطط لها ورغم أن الحكومة قد حبكت خيوط القضية تمامًا ضده إلا أنها لم تنل من شعبيته بل الأغرب أنها أكسبته تعاطفًا بعد أن قدمته للمحاكمة أمام القضاء العسكري فصار بطلًا في أعين مريديه وعشيرته..!!

السجن في أي مكان في العالم يجبرك على رواية قصتك لباقي النزلاء مثلما يجعلك تستمع لحكاياتهم لقتل الوقت وخلق جو من الألفة للتغلب على الوحدة وكسر حالة الجمود التي تصيب النزلاء بعد غلق العنابر عليهم قبل الغروب.. الكل يُخرج ما في جعبته.. بعضهم يضيف بطولات وهمية إلى قصته ويتهم آخرين بظلمه والبعض الآخر يظهر بمظهر الضحية وكبش الفداء، وآخرون يحكون روايتهم في ندم

أحيانًا وفي تفاخر بما فعلوا في أحيان أخرى خاصة جرائم الشرف وتجارة المخدرات.. كان بعض المسئولين السابقين يحكي بطولات سياسية معظمها كاذب ليوحي من خلالها أنه ضحية الحرس الحديدي الجديد في الحزب الحاكم بعد الإطاحة بكل الرموز السابقة التي خدمت الرئيس لسنوات طويلة حتى انتهى الحال بغالبيتهم إلى الانزواء في مساكنهم بعيدًا عن أضواء المجتمع أو إلى غياهب السجون لعدد محدود منهم من قاطني الصفين الثاني والثالث ليقضوا ما تبقى لهم من أيام مثلما فعلوا معه..

كان المسئول السياسي السابق والذي شغل منصب محافظ لمحافظة ساحلية شهيرة يكذب كذبًا مفضوحًا فهو متهم برشوة وضبط متلبسًا ومع ذلك يردد دائمًا أن هذا الوضع مؤقت وأنه سيخرج قريبًا قائلًا في ثقة:

- مجرد زوبعة في فنجان يا عزيزي لإسكات الصحافة.. قضية فساد كبرى شغلت بها الجرائد الرأي العام شهورًا ثم يبحثون عن قضية أخرى بعد أن يمل الناس تكرار الخبر ويفقد الحدث أهميته ووقتها سأستغل أنا تلك الفترة البينية ويتم الإفراج عنى.. لقد وعدوني بذلك..

في أحد الأيام الأولى له بالزنزانة وعقب انتهاء الدرس الديني الذي يلقيه الشيخ صادق كان ماهر يتحين الفرصة للاقتراب من الشيخ بعد أن شعر بسطوته ونفوذه وهيبته على مأمور السجن وباقي النزلاء.

اقترب منه ماهر سائلًا في تودد وتضرع:

- إذا سمحت يا مولانا لديّ سؤال في الدين وأريد أن أستزيد من علمك وأنتفع به..

- تفضل يا أخي على الرحب والسعة..

قالها الشيخ وهو يتفرس في وجهه بعمق محاولا تذكره.

- هل تجارة الآثار حلال أم حرام؟! وبالمناسبة أنا أحظى بشرف كبير كوني من نفس بلدتك أبار الملك مركز أخميم..

ثم ترحم بصوت عالٍ على والده الشيخ عبد الدايم عبد الحق..

تفحصه الشيخ صادق جيدًا ثم عبث بلحيته وقد أدرك مراده فتلقفه على كفوفه برفق قائلًا:

- عليه رحمة الله.. إذن فأنت ماهر السوهاجي تاجر الآثار الشهير والمهرب الدولي العتيد والرجل الزئبقي كما كان يُقال عنك في الجرائد والمحكوم عليه بالسجن عشرة أعوام وأيضًا ابن قريتي بسوهاج.. سامحني يا أخي فلم أعرفك في البداية فأنت كنت ملتحيًا في الصور التي نُشرت لك وقت المحاكمة والآن أنت حليق تمامًا.. وأنا أيضًا غادرت القرية من سنوات بعيدة فأرجو المعذرة..

ابتسم ماهر وقلبه يرقص طربًا لهذا الترحيب من الشيخ قائلًا:

- الصيت ولا الغنى يا مولانا.. الجرائد تُضخم الموضوعات دائمًا هذا التمثال الذي ضُبط بمسكني عثرنا عليه أسفل الحديقة مثلما كنت أجد الآثار في أرضي بأخميم وأنا شاب صغير ولابد أنك كنت تسمع عن أشياء مماثلة وكنت أنتوي تسليمه للحكومة.. ولكنها تصفية حسابات سياسية باعتباري كنت صديقا للوزير فؤاد المتيني.

اقترب منه صادق قائلًا:

- نعم هذا نظام فاسد يلفظ دائمًا أبناءه المخلصين فلا أمان لهم على الإطلاق وفؤاد المتيني كان برلمانيًّا قديرًا وسياسيًّا محنكا وشابًا واعدًا والنظام هو الخاسر باستبعاده ووضعه على الرف.. على أي حال تجارتك حلال.. حلال.. حلال.. فهذا في حكم الشرع يسمى بالركاز أي الكنز المدفون في أرضك وأنت

حر في التصرف فيه كما تشاء ولا إثم عليك إن بعته أو وهبته لآخر طالما تتقب عنه في أرضك..
ثم أردف وهو يسبح بمسبحة طويلة:
- ولكنها القوانين الوضعية القائمة التي تخالف شرع الله للأسف الشديد تحرم أمورًا حللها الله تعالى ولا حول ولا قوة إلا بالله..
- الله يفتح عليك يا مولانا.. حقًّا هذا الشبل من ذاك الأسد فوالدك قال لي نفس الرأي منذ سنوات بعيدة وما أردت إلا أن يطمئن قلبي اليوم..
قالها ماهر ووجهه يشع بالسرور.. بينما كان الشيخ يغمض عينيه ويتأمل وجه ماهر ويتفرس فيه بدقة وهو يبتسم بداخله ابتسامة ذات مغزى.

***

مضت ثلاث سنوات، وماهر يقترب كل يوم أكثر وأكثر من الشيخ صادق، ومع ذلك ظلت بينهما شعرة معاوية كلما ارتخت من ناحية أحدهما جذبها الآخر على الفور، فلم يجد ماهر الأمان الذي يبحث عنه إلا في حضرة الشيخ بعد أن وجد السجن كله يهابه ويعامله معاملة خاصة فجاوره حتى كاد يلتصق به.. ووجد الشيخ فيه ضالته المنشودة بعد أن علم أنه زوج ناجية الشافعي صديقة إحدى زوجاته ولكنه ادخرها إلى حين.. لم يخلف له ماهر أمرًا وصار طوع يده فسخر كل أمواله وإمكاناته وعلاقاته لخدمة الشيخ وعشيرته من باقي النزلاء في العنبر الآخر والذين كان صادق عبد الحق يتردد عليهم من حين إلى آخر.. وعلى الجانب الآخر قربه الشيخ منه وخصه بالجلوس في حضرته دائما وكأنه من مريديه الأولين الأقربين..!

***

52

25 يناير 2011

- ما رأيك يا باشا في مظاهرات اليوم؟

رد المسئول السياسي والمحافظ السابق والذي يقضي عقوبة السجن خمسة أعوام في ثقة على محدثه بنبرة العالم ببواطن الأمور:

- لا جديد فيها.. روتينية كالمعتاد ربما تضم شبابًا أكثر وربما يكون اختيارهم لتوقيت عيد الشرطة مقصودًا ليبعثوا رسالة للرئيس بتغيير وزير الداخلية لا أكثر ولا أقل.. ولكنه لن يغيره فهذه الأمور تزيد من عناده فهو لا يغير إلا من له شعبية حقيقية..

تعالت بعض الأصوات متفرقة تخالف رأيه وترى أنها تحرك منظم وحشود ضخمة لا تطمئن..

التفت السائل إلى الشيخ صادق عبد الحق والذي كان يتابع الأخبار التي ترد تباعًا على شبكة المعلومات الدولية من خلال هاتف نقال يحمله معه بصفة دائمة ويحرص على إخفائه وطرح عليه ذات السؤال فأجابه الشيخ بلا اكتراث:

- لست مع المتفائلين بأنها مختلفة عما سبقها من وقفات احتجاجية أو تظاهرات ولا أرى أنها تحرك شعبي كبير فمن يريد أن يفعل شيئًا لا يُعلن عنه على شبكات التواصل الاجتماعي قبلها بعدة أيام.. هذه الأمور تحتاج إلى تخطيط سري وتحرك محسوب وما أراه ليس إلا فورة شباب غاضب وتحرك مشوب بالعاطفة والحماس ليس إلا..

ثم هز رأسه مؤكدًا النفي وهو يضيف:

- لا يمكن أبدًا أن يُقال وزير الداخلية بهذه التظاهرات السلمية الصبيانية فالنظام سيعاند ويبقي عليه.. على أية حال ووفقًا لما هو منشور ومعلن فالتيار الديني لم يشارك في التظاهرات اليوم..

ثم أردف وهو ينظر لوجه محدثه:

- وحسنًا فعل..!!

يوما 26 ، 27 يناير لم يكونا كباقي أيام السنة أو أي أيام سابقة بسجن ليمان طرة.. فبعد ثلاث سنوات قضاها ماهر داخل السجن لم يشهد فيها درجة التوتر التي أصابت الشيخ صادق حتى بلغت عنان السماء مثلما كانت خلال هذين اليومين.. لم يكف عن التحدث في الهاتف طوال الثماني والأربعين ساعة، ولم ينم تقريبًا سوى ساعتين متقطعتين كل يوم.. فجأة ترك العنبر في ظهر اليوم التالي حيث التقى بباقي النزلاء من عناصر التنظيم الديني المنتمي إليه لمدة أربع ساعات ثم عاد وعلى وجهه علامات السرور والتفاؤل رغم هالات الإجهاد الواضحة تحت عينيه..

اقترب منه ماهر سائلًا في خبث:

- يبدو أن لديك أخبارًا مطمئنة..

نظر إليه صادق بحدة حتى شعر ماهر برجفة تسري في أوصاله.. ثم قال له بصوت حرص على أن يكون خفيضًا:

- أنت رجل طيب يا أخ ماهر وربما سيكون هناك تعاون بيننا يومًا ما ولكن نصيحة مخلصة التزم الصمت تمامًا ولا تجهر برأي وستخرج قريبًا من هنا..

تملكت الدهشة من ماهر فكيف سيخرج في القريب ولا يزال أمامه سبع سنوات أخرى في السجن؟ أطلت علامات الاستفهام من وجهه معلنة عن حيرته فقال الشيخ بنفس النبرة الهامسة:

- على الأبواب حدث جلل وأنا أتوقع له النجاح بإذن الله وإن مضت الأمور كما هو متوقع فثق أن الأوضاع سوف تتغير قريبًا ولكن لا أعرف متى تحديدًا.. عليك بالصمت الآن ولا تخبر أحدًا بما قلته لك وتحلى بالصبر

ثم تركه وعاد لاتصالاته الهاتفية الغامضة..!

***

53

28 يناير 2011

كان يسير وراء الحشود حتى اندمج وذاب وسطها.. هتف عاليًا شعر بأنه يزأر وهو يلوح بكلتا يديه.. رويدًا رويدًا تقدم الصفوف حتى صار في مقدمتها التهب حماسه حتى كاد يحرق الجنود الذين اصطفوا أمامه فبدوا له وكأنهم يختبئون خلف دروعهم الشفافة فكشفت عن خوفهم وإجهادهم.. لحظات فارقة في حياته القصيرة وهو يخطو أولى خطواته في ثقة وشجاعة أعلى كوبري قصر النيل في اتجاه الميدان.. كان يبدو من بعيد كحصان السباق الرابح وهو يتقدم بمسافة ويكاد يبلغ النهاية والكل يتابعه كاتمًا أنفاسه في انتظار تلك اللحظة.. شعر لوهلة أنه فقد الزمن عندما تجلت صورة والده أمام عينيه بابتسامته الهادئة المطمئنة وهو يروي له لحظات تاريخية فارقة في حياة الأمة العربية بأسرها منذ أربعين عامًا إلا قليلًا.. سمع صوت أبيه مناديًا ليجتاز حاجزًا رقيقًا بين الخوف والجرأة بين الظلم والعدل بين القهر والكرامة..

بدأ يعبر الفواصل الحديدية ويقترب من صف الجنود أكثر وقرب النهاية التفت وراءه لحشود الشباب الثائرين والسائرين خلفه محفزًا إياهم بذراعيه وهاتفًا من أعماقه فبدا كطائر مرفرف نحو فضاء أرحب.. تقلصت ملامحه وتجمدت قسماته فجأة وصرخ بصوت متحشرج وهو يجثم على ركبتيه، بينما عشرات الأيادي تمتد إليه في لهفة تربت على رأسه، وتمسح جبهته حتى تهدلت جفونه ببطء وانحسر نور وجهه وفاضت روحه إلى بارئها بعد أن تركت وراءها ابتسامة رضا خفيفة قنعت بشرف المحاولة لكسر حاجز الخوف فتسمرت في تحدٍ على شفتيه التي سال من إحدى جانبيها خيط رفيع أحمر من دماء زكية طاهرة بعد أن مزقت أحشاءه طلقة غادرة اخترقت جسده عندما أدار ظهره.. وكأنهم كانوا يخشون مواجهته وجها لوجه..!!

عندما سحب زملاؤه جثمانه إلى مقربة من سور الكوبري عبث أحدهم في ملابسه ليستدل على هويته وعندما أمسك ببطاقته قرأ اسمه بصوت جهوري على مسامع من حوله «أحمد منصور الطيب».. ثم تمهل قليلًا وهو يجول بين الواقفين ببصره مردفًا:

- من أخميم محافظة سوهاج..

فلم يسمع مجيبًا ولم يتعرف عليه أحد.

***

ما أن انتهت شعائر صلاة الجمعة يوم الثامن والعشرين من يناير بمسجد السجن.. حتى تكهرب المكان فجأة، دوت صفارة نوبة تمام العنابر عالية في غير موعدها وبدأ الضباط والصولات ينفذون تعليمات المأمور بعنف وسرعة بجمع المساجين بالزنازين وإغلاقها بإحكام.. ألغيت الزيارات تمامًا في هذا اليوم ومُنع أهالي المساجين من مجرد الاقتراب من مقر السجن.. وأُبعد بعضهم بالقوة، سيطر الخوف على ماهر شأنه شأن الآخرين وهم يتابعون مشهد تصادم المتظاهرين مع قوات الشرطة على كوبري قصر النيل عبر جهاز التليفزيون بداخل العنبر وسقوط شباب مضرجين في دمائهم..

في حين كان الشيخ صادق يقبع في أحد الأركان يتحدث في هاتفه المحمول المتصل بالأقمار الصناعية وبين كل محادثة وأخرى كان يقترب من الشاشة متوترًا ثم يعود إلى ركنه مرة أخرى.. حاول ماهر مرتين الاقتراب منه ليطمئن منه على الأحوال بالخارج فنهره بشدة لم يعهدها فيه من قبل فعاد يجر أذيال الخيبة يتابع مع المتابعين بعد أن شعر بضعف منزلته فجأة، في حين أصابت بعض نزلاء العنبر قرب

العصر رعشة في أيديهم لم تخفت إلا بإعلان نزول قوات الجيش للشارع وفرض حظر التجوال..

فجأة قُطعت الكهرباء عن العنبر وأظلمت الغرفة لدقائق حتى اعتاد الجميع الرؤية في الظلام.. سُمعت أصوات جلبة عالية آتية من بعيد ولم يستطع أحد تحديد كنهها ثم وقع دوي مزعج تلفتوا فيما بينهم على إثره متسائلين بأعينهم فوجدوا الشيخ صادق يجمع حاجياته في حقيبة يد صغيرة وقد تجهمت ملامحه.. قبل أن يتفوه أحدهم بكلمة.. كان صوت إطلاق أعيرة نارية بكثافة يدوي بالقرب منهم ويجبرهم على التزام الصمت فزعًا.. ثم انفتح باب العنبر على مصراعيه فجأة حتى تهاوت إحدى ضلفتيه من شدة دفعه.. ظهر من ورائه أربعة رجال ملثمين اثنان منهم كانا يحملان أسلحة آلية ويطلبان من الجميع المغادرة فورًا فامتثلوا كقطيع من الخراف لا حول لهم ولا قوة..

دفعوا دفعًا في مجموعات حتى تجمعوا في فناء السجن مع باقي النزلاء وأجبروا جميعا على الجلوس في وضع القرفصاء..كانت هناك فجوة هائلة في الجدار الشرقي لسور السجن تنبئ عن اقتحامه برافعة ثقيلة تمكنت من إزاحته من طريقها بهذه الصورة العشوائية..

اختفى جميع الضباط تمامًا وظهر بعض جنود وصولات السجن وهم في ملابس مدنية مغادرين من البوابة الرئيسية المفتوحة على مصراعيها في غير تعجل وكأنهم في نهار يوم عادي..! ثم تبعهم على حذر بعض المساجين غير مصدقين لما يحدث وسرعان ما هرب جمع أكبر خلفهم ثم سادت حالة من الهرج والهرولة والتدافع فجأة وكأن قدرة الباقين على التفكير كانت قد تعطلت لوهلة ثم ما لبثت أن عادت إليهم.. نظر أحد النزلاء إلى ماهر السوهاجي الواقف بجواره في وجوم والخوف يعتريه من عيار طائش والفزع يعبث به في ضراوة مما يدور حوله فظل يبحث بعينيه في لهفة وجزع عن الشيخ صادق ويجول ببصره بين الجدار المحطم والبوابة الرئيسية ثم رفع رأسه قليلًا فوجد أبراج الحراسة خاوية على عروشها..

تساءل المحافظ السابق في تردد:

- هل سنهرب؟

قبل أن يجيبه ماهر كان أحد النزلاء يرد عليه قائلًا في هلع:

- نهرب إلى أين؟ السجن سيكون أكثر أمانًا لنا على الأقل في الأيام القادمة..

كان جواب النزيل قرارًا ضمنيًّا منهم جميعًا بأن يعودوا للعنبر..

قبعوا متجاورين منكمشين وهم يتبادلون نظرات الفزع وعدم الفهم.. ظلوا هكذا حتى منتصف الليل حتى حضر إليهم ضباط يرتدون زي القوات المسلحة قاموا بغلق باب العنبر عليهم بعد أن أخذوا بياناتهم بالكامل وحصروا عددهم.. ووقتها فقط أدركوا أن الشيخ صادق كان أول الهاربين..!!

***

54

حزب الحق

- ماهر سيد حسن السوهاجي .

- أفندم.

- زيارة خاصة في مكتب المأمور..

مضى ماهر يسير خلف الصول صامتًا في وجوم بعد أن باءت كل محاولاته لمعرفة الزائر منه بالفشل.. ستة شهور انقضت حتى الآن منذ اندلاع ثورة يناير ولم يزره سوى أشجان وابنتها مريم.. وعلم منهما أن ناجية باتت قعيدة بعد أن فقدت النطق وجزءًا كبيرًا من ذاكرتها فلم تعد تتعرف على الأشخاص أو الأماكن.. أما سعيد الخضري فقد فر مع الهاربين وقت اقتحام السجن وهرب إلى مسقط رأسه ومن المستحيل أن يأتي لزيارته بالسجن..

طاف بخاطره فؤاد المتيني الذي حل نزيلًا عليهم بعد ثورة يناير بأسابيع فقد نُقل لمستشفى السجن إثر إصابته بجلطة في القلب بعد أن أعيد التحقيق معه مرة أخرى ووجهت له اتهامات جديدة بجرائم كثيرة كان أبسطها إثراءه من مصادر غير مشروعة فساءت صحته أكثر بعد مصادرة أمواله وممتلكاته ونقل إلى مستشفى خاص بموافقة استثنائية ممن بيدهم الأمر.. بعد أن كتب طبيب السجن تقريرًا يوصي بنقله لحالته الصحية الحرجة!!

هز رأسه لسذاجة استنتاجاته وهو يحدث نفسه:

«ممن تكون هذه الزيارة الخاصة إذن».. طافت بخاطره فجأة نرجس.. ربما تكون قد عادت بعد استقرار الأمور.. هكذا حدث نفسه وهو يسير في ممر طويل يكاد لا ينتهي.. وهو يردد في ضيق:

«أين هذا الاستقرار الذي أعادها..؟!»

طوال الطريق إلى حجرة المأمور كانت تنساب من شفتيه عبارات التحية والسلام على من يصادفهم من النزلاء أغلبهم من المسئولين السابقين أثناء تريضهم أو فسحتهم فكان يصافحهم بعينيه راسمًا ابتسامة شاردة على محياه في حين تسبق كلمات من نوعية معالي الوزير وسعادة الباشا أسماءهم بعد أن استقر المطاف بغالبيتهم في النهاية وراء الأسوار..!

لم يطل انتظاره كثيرًا فبمجرد دخوله مكتب مأمور السجن متهيئًا للقاء نرجس حتى صافح عينيه وجه مألوف لديه افتقده كثيرًا على مدار ستة أشهر منذ أن هرب ولم يعد..

كان الشيخ صادق عبد الحق يجلس مع المأمور الذي ترك مكتبه وجلس بجواره إمعانًا في الحفاوة به..

بعد اللقاء الحار والعناق وتبادل القبلات على الأكتاف والاطمئنان على الأحوال انفرد به الشيخ بعد أن استأذن المأمور في لطف فاستجاب له الأخير في وداعة وكأنهما ثنائي منسجم يستعد للرقص على لحن واحد..!

- لن أطيل عليك كثيرًا ولكنني أتيت لكي أوفي بوعدي لك بأنك ستخرج.. والآن أستطيع أن أبشرك بأن الإفراج قريب بإذن الله.. فخلال أسبوع سيصدر قرار بالعفو عنك لأسباب صحية.

- عفو صحي؟!

قالها ماهر في استغراب.

- يا أخ ماهر أنت تجاوزت الستين بكثير ولابد أن بك أمراضًا سيحددها طبيب السجن غدًا.. لا تشغل بالك كثيرًا بالتفاصيل الطبية والفنية.. المهم الآن ماذا تنوي أن تفعل بعد خروجك؟

لم يرد ماهر من هول المفاجأة فقد شعر بأن ما يحدث حوله أكبر من قدرته على الاستيعاب بسرعة مثلما كان في الماضي فظل صامتًا ينظر إلى الشيخ ولا يدري بما يجيب..

- سأتركك تفكر في أمر التجارة التي ترغب بها فمن غير المنطقي أو المقبول الآن أن تنقب مرة أخرى في أرضك عن تماثيل لتبيعها..

قالها الشيخ بنبرة توحي برفضه لتجارة الآثار تمامًا ثم أردف:

- ولكننا سنحتاجك معنا بالحزب وستكون عضوًا بالأمانة العامة بالطبع، وقد نرشحك للبرلمان فالانتخابات لم يتبق على إجرائها سوى ثلاثة أشهر..!

كادت مقلتا ماهر أن تتربعا على وجنتيه من شدة جحوظهما فاستند إلى أحد المقاعد القريبة ثم جلس عليه كمن يتهاوى وهو يحدق بوجه الشيخ صادق في ذهول.. مرت لحظات صمت بطيئة ثقيلة استجمع فيها ماهر شتاته وهو يستفسر عن أول أمر خطر بباله:

- حزب؟ أي حزب هذا يا شيخ صادق؟

حزب الحق يا أخ ماهر.. الأوضاع الآن تغيرت وهناك حرية حقيقية والغلبة لنا بإذن الله.

- لكم؟ من أنتم؟! خرج السؤال بلا وعي من شفتي ماهر..

اقترب منه صادق ثم مال على إحدى أذنيه وبنبرة خفيضة باتت أقرب إلى الفحيح قال:

- اسمعني يا أخ ماهر جيدًا إذا لم تكن معنا فإننا سنحسبك ضدنا وإذا أردت السباحة مع التيار فلابد وأن تطفو دائمًا حتى نرى رأسك.. نحن نفتح ذراعينا للجميع ومن يشرد من القطيع ستأكله الذئاب.. وأنا جئت إليك اليوم لأمد يدي إليك وأخرجك مما أنت فيه وثق أنك ستكون في مكانة مرموقة بأمانة الحزب ولجنته العليا..

وستبقى أموالك في أمان وربما تتضاعف.

عادت لماهر دهشته بعدما زالت آثار الخوف من تهديدات صادق في بداية حديثه فردد خلفه كمن يحفظ ما يُملى عليه:

- أمانة الحزب ولجنته العليا أيضًا؟ ولكن.....

قاطعه الشيخ قائلًا:

- لا تتعجل أمورك وعلى قدر تبرعك للدعوة ستُكرم في عملك وتجارتك بإذن الله.. فلنقرأ الفاتحة..

قالها وهو يمد كفه إليه فوضع ماهر كفه بها شاردًا حتى قال صادق:

- آمين..

فرددها خلفه هامسًا.. ثم ربت الشيخ على كتفه وهو يبتسم ابتسامة كشفت عن أسنانه كلها فجأة في وجه ماهر فعاد لفزعه مرة ثانية!

***

55

سحابة صيف

أمسك الشيخ صادق بتلابيب ماهر وهو يحاول الفرار منه جاهدًا دون جدوى ثم جثم على صدره وشرع في كتم أنفاسه.. نفرت عروق رقبته واستغاث بصبيانه فلم يتقدم أحد لنجدته، ألقى ببصره عليهم كانوا متكومين جميعًا بجوار جدار مترب قديم طالته الشروخ حتى كادت تشطره نصفين، بعضهم يئن من جروح تنزف والبعض الآخر مقيد اليدين والقدمين فلم يقو على النهوض.. انهال عليه صادق باللكمات حتى ينهكه وتخور مقاومته.. أعاد بصره صوب الحائط فلمح أتباع الشيخ يفرون هاربين.. علت أصوات جلبة وضجة غلفت المكان برهبة ترتعد لها الأوصال.. ظهرت بوادر موجات بشرية متلاحقة..غالبيتهم حفاة وشبه عراة يغلب عليهم الهزال حتى اصفرت وجوههم ومال بعضها للسواد.. كانوا يصرخون في غضب تبرز عظامهم من صدورهم المتلهجة ويندفعون كثيران هائجة في فورتها الأخيرة بعد أن نخرت الرماح عظامها وقطعت أوصالها فسالت دماؤها على جانبيها فزادتها حدة وشراسة.. قبل أن يحرك أي منهما ساكنًا كانت الجموع قد دهستهما فصارا والأرض سواء ثم انقضوا على صبيان ماهر الذين كانوا قد استنفروا وطارد الباقون أتباع الشيخ في إصرار.. شعر ماهر بأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة بينما سقط الشيخ إلى جواره وحشرجة متقطعة ولكن واضحة تخرج من صدره أشبه بالاحتضار.. حرك رأسه إلى اليسار قليلًا فغشت الأتربة التي خلفتها الجموع وراءها عينه تمامًا فلم يعد يرى إلا الظلام.. عندما فتح عينيه مرة أخرى كان مستلقيًا على أريكة بالصالة الفسيحة بقصره بالمنصورية وهو يتقصد عرقًا بينما أنامل مريم الرقيقة تمسحها عن جبهته برفق وهي تتبسم في وجهه..ظل لبرهة ممددًا وكأنه غير مصدق أنه لا يزال على قيد الحياة.. كان مرهقًا من الكابوس الذي أطبق على صدره ولا يزال مؤثرًا.. أجهده التفكير فلم يجد له تفسيرًا وكان يتكرر كثيرا منذ أن غادر السجن وكأنه طبق أساسي على قائمة أحلامه كل ليلة فعكر صفو حياته وبات الإفراج عنه كالإفراج المشروط بالمراقبة اليومية فصار خائفا من شيء لا يحدث ومع ذلك ينتظره كل مساء فينظر خلف كتفيه في ترقب وقوعه!!

ظل يحملق في وجه مريم وهو شارد ثم تذكر موعدًا مهمًا فنهض في خفة ليستحم ويستعد لضيف ثقيل لا فرار من لقائه أبدًا..!

جلس في حديقة القصر يقرأ كانت عيناه تجريان على العنوانين المتصدرة الصفحة الأولى من جريدة الأهرام معلنة في نصر مبين بأن إجمالي القروض الميسرة التي حصلت عليها مصر من بعض الدول العربية والاجنبية وصندوق النقد تقارب خمسة مليارات بينما كان لسان حاله يتساءل في لهفة خبير عن مقابل هذا الكف الضخم من مريم..! تنبه لوصول سيارتين سوداوين كبيرتين وشاب ملتح ينزلق من إحداهما قبل أن تتوقف ويشرع في فتح بابها الخلفي فترجل ماهر نحو البوابة الشرقية لقصره ليرحب بضيوفه الثلاثة.. شاب صغير يحمل حقيبة ورجل طويل القامة ملتح بلحية بيضاء طويلة غير مهذبة ولكن يرتدي بذلة أنيقة غالية الثمن وكان ثالثهما الشيخ صادق عبد الحق الذي يرفل في جلباب أبيض نظيف كعادته.. ساروا معًا في حديقة القصر حتى بلغوا نهايتها حيث اختار ماهر أن يجتمع بهم بالكشك الخشبي الذي يفضله ويجلس به دائمًا حتى رغم حرارة الطقس في أوائل شهر سبتمبر من عام 2011 وكأنه يدفعهم للانصراف مبكرًا..

كان سبب الزيارة معلومًا وينتظره ماهر منذ أن خرج من السجن بقرار الإفراج الصحي بعد أن أثبت طبيب السجن بتقريره إصابته بأمراض عديدة وللمصادفة الغريبة كان هو ذات الطبيب الذي وقع الكشف الطبي على جثة منصور الطيب مقررًا أن وفاته طبيعية فلم يفته أن يقدم واجب العزاء لماهر بعد أن

عرف بصلة القربى بينهما!!

أخرج الشاب الصغير المرافق للشيخ من الحقيبة استمارات عضوية الحزب بعد أن تم ملء كل البيانات بها وأصبحت متبقية فقط على توقيع السوهاجي..

ابتسم له الشيخ صادق وهو يقول:

- على بركة الله يا أخ ماهر..

ثم بحث عن قلم في جيب سترته فلم يجد فنظر إلى الرجل الأنيق الملتحي الجالس بجواره فأخرج له قلمًا ثمينًا من جيب سترته وهو يبتسم لماهر ابتسامة صفراء باهتة قائلًا:

- ألا تتذكرني يا ماهر؟

عقد ماهر حاجبيه قليلًا ثم وضع نظارته الطبية على عينيه وهو يبتسم في خجل:

- في الحقيقة أنا أشعر بأنني قد رأيتك من قبل وراودني هذا الإحساس بشدة عند قدومك ولكن لا أتذكر أين أو ماذا كانت المناسبة؟!

لم يرد الرجل وإنما اكتفى بالابتسامة ذاتها وهو يقدم القلم لماهر لكي يوقع الاستمارة..

تفرس ماهر ملامح الرجل مرة أخرى ولكن ذاكرته التي شاخت عجزت عن تذكره.. فوقع الاستمارات في هدوء وما أن فرغ منها حتى قال الشيخ صادق بنبرة رخيمة وهو يشير ناحية الرجل الآنيق:

- الأخ شريف أبو النجا مسئول العلاقات العامة بالحزب وعضو اللجنة العليا.. وكان ضابط شرطة في النظام السابق ولكنه أفاء إلى الحق مبكرًا..

ثم ربت على كتفه وهو يبتسم في ثقة مضيفًا:

- ونحن ندخره لمنصب مهم يليق به وبخبراته في المستقبل القريب بإذن الله..

لم يتمالك ماهر نفسه من الابتسام رغم الدهشة البالغة التي اعترت ملامحه وظلت ابتسامته تتسع أكثر وأكثر وهو يتأمل ملامح اللواء أبو النجا التي غيرها الزمن كثيرًا وجاءت لحيته البيضاء الكثيفة العشوائية لتحوله إلى شخص آخر وتحول دون أن يتعرف عليه بمفرده أبدًا.. قفزت إلى ذاكرته بالتدريج لحظة ضبطه بمطار القاهرة والضابط الصغير وقتها شريف أبو النجا يمد يده إلى جيب سترته ويستخرج التمثال الرفيع الصغير منه.. فحدق بعينيه كالصقر في وجه شريف الذي ظل ينظر إليه في برود..

على مقربة من مجلسهم في أحد أركان الحديقة كانت أشجان تدفع والدتها العجوز ناجية جليسة المقعد المتحرك وهي ترتدي ثوبًا أسود طويلًا فضفاضًا وتضع على رأسها طرحة من ذات اللون وتنظر إلى لا شيء وتكاد جفونها لا ترمش فبدت ذاهلة بعد أن قرر الأطباء في الخارج بأن حالتها باتت ميئوسًا من شفائها وستظل فاقدة النطق والذاكرة والقدرة على الحركة ما تبقى لها من أيام إلا إذا حدثت معجزة!! في حين كانت الحفيدة مريم التي تجاوزت الرابعة عشرة من عمرها تجلس منتبهة على مقربة من ماهر وكأنها في انتظار أمر ما متفق عليه بينهما.. بينما شرد ماهر للحظات فقد كان يريد أن يقص كابوسه على الشيخ لعله يعينه على تفسيره ولكنه تراجع في اللحظات الأخيرة فجبن عن ذكره..!

أخرجه الشيخ صادق من شروده عندما باغته فجأة بنبرة من يريد إنهاء اللقاء:

- هل ما اتفقنا عليه جاهز يا أخ ماهر؟ نحن لا نريد أن نثقل عليك أكثر من ذلك..

- على بركة الله..

قالها ماهر ثم نظر إلى مريم نظرة ذات مغزى وهو يداعب حبات مسبحته حتى أتم خمس عدات وظل يبتسم في مكر ثعلب عجوز، بينما كانت مريم الصغيرة تقترب منهم بعد أن غابت قليلًا في الداخل

بحجرة المكتب وعادت لتسلم ماهر حقيبة جلدية صغيرة تضم بين جنباتها دفاتر شيكات كثيرة.. انتقى أحدها وهو يتفرس في وجوههم ثم حرر خمسة شيكات كل منها بمليون جنيه مصري ووقع وهو يتساءل في خبث ظاهر:

- من المستفيد يا مولانا؟..

تنحنح الشيخ صادق ثم أردف:

- اجعلهم جميعا لصالح الأخ شريف أبو النجا حتى نتجنب التعقيدات الإدارية في ميزانية حزب الحق وحساباته المالية..

ثم أملى عليه اسم اللواء أبو النجا بالكامل..

سال لعابهم وهم يتأملون الشيكات وحبر القلم يدب فيها الحياة بعد أن كانت أوراقًا مصمتة بلا قيمة.. فجأة طرأت فكرة صبيانية على عقل ماهر وهو لا يزال ممسكًا بالقلم فنظر إلى الشيكات الخمس ونقل بصره بين الجالسين أمامه ثم طواها بهدوء في كفه ووضعها بجيب سترة اللواء شريف أبو النجا الداخلي وهو يبادله نفس الابتسامة الباردة التي لاقاها منه وقت ضبطه من سنوات بعيدة..!

امتعض وجه اللواء شريف بشدة وبانت عليه ملامح الغضب وبدا أنه يجاهد ليكتمه.. ولكن عندما أخبرهم ماهر بأن قيمتها خمسة ملايين جنيه مصري تهللت وجوههم وسرعان ما بسط الشيخ صادق كفه ناحية ماهر الذي أطبق عليه هو الآخر فشده الشيخ ناحيته بقوة فاستجاب له بمنتهى اللين حتى عاونه الشيخ على النهوض.. ثم تعانقا مثلما يتعانق الظل مع الجسد وقت الظهيرة فبديا وكأنهما رجل واحد.. بينما كانت سحابة صيف ثقيلة قد عاودت الظهور مرة أخرى وتوسطت السماء في تحدٍ.. ولكن مظهرها لا يوحي هذه المرة بأنها ستبقى طويلًا.

«تمت»

أشرف العشماوي

القاهرة في 12/12/2012

قالوا عن أعمال أشرف العشماوي :

رواية زمن الضباع

عندما قرأت رواية زمن الضباع لأشرف العشماوي تذكرت أسلوب الكاتب العظيم يوسف السباعي ؛ فكل منهما يحكي زمنه ومرحلته .. سعادتي كبيرة بالعمل الأول للعشماوي لأنه تأكيد لحقيقة أن مصر لن تصاب بالعقم الإبداعي يومًا ما .

الصحفية/آمال إبراهيم - جريدة النهار اللبنانية

فبراير 2012

* * *

إما الثورة وإما الانتحار.. خياران لا ثالث لهما عندما تعيش زمن الضباع، عندما يسود الضبع ويحكم، فهذه هي النهاية، وهذا هو فصل الختام.. هذا ما قرأته بين سطور «زمن الضباع» تلك الرواية النبوءة التي كتبها المستشار أشرف العشماوي قبل ثورة يناير بسنوات.. الرواية مكتوبة بالرمز عن غابة، على غرار رمزية «كليلة ودمنة»، وقلقي على مثل تلك الأعمال الفنية المهمة هو اختزالها في معادلات رياضية أوتوماتيكية ساذجة لفك الرموز، مثلما فعل البعض مع رواية «أولاد حارتنا» أو مع فيلم «المهاجر»، لابد أن تبتعد عن المشهد مسافة وتلتقط أنفاسك، كي تفك التفاصيل وتعيد ترتيبها، وستحبس أنفاسك حين تشتعل المعركة بين الثعلب والضبع في نهاية الرواية، وأنت تخمن من سينتصر في النهاية؟ وهل يُعد منتصرًا من فاز على خصمه والغابة تحت قدميه أطلال وأشلاء؟! هل ترضى بأن تعيش زمن الضباع؟.. اقرأ الرواية ستعرف الإجابة.

الدكتور / خالد منتصر – جريدة المصري اليوم

يونيو 2011

* * *

رواية زمن الضباع لأشرف العشماوي متميزة على مستوى سرد الأحداث وترابطها، ورسم الشخصيات. ويبقى هذا العمل الأول لكاتبه على قدر من التميز من حيث سرعة الإيقاع والاحتفاظ بخط سردي واضح للأحداث ، ودقة رسم المشاهد التي يرقى كثير منها إلى دقة المشاهد السينمائية. أضف إلى ذلك اللغة التي تكتسب جماليات شاعرية في كثير من المواضع.

(عزة مازن صحفية ومدونة- مجلة الإذاعة والتليفزيون -

23 يوليو 2011)

* * *

بدأ الكاتب أحداث روايته زمن الضباع في الغابة وانتهى بها في الصحراء وربما قصد بذلك توضيح المتناقضات الموجودة في الحياة والاختلافات التي قد يواجهها الإنسان ؛ ليتكيف ويعيش سواء في الغابة أو الصحراء أو ربما يكون تعبيرا منه عن الجفاء الذي ينتظر البطل في المراحل المختلفة التي تمر عليه أو الخواء العاطفي والنفسي ، الذي قد يشعر به الإنسان إذا رحل الوفاء وغاب المثل الأعلى وانهارت القيم وحل الضبع محل الأسد في جميع مناحي الحياة لتتراكم إرهاصات الثورة وتجلياتها التي رأيناها في يناير 2011 **.**

جريدة الأهرام – صفحة الأدب –

يوليو 2011

* * *

رواية «زمن الضباع» ذات إيقاع سريع يكشف لنا صراع جماعات القوى والمصالح في الغابة لتحقيق السيطرة عليها .

أغاريد مصطفى – جريدة الرأي

أغسطس 2011

* * *

رواية زمن الضباع شرح للسياسة على طريقة كليلة ودمنة وتتناول بشكل صريح أوضاع وأحوال الحياة السياسية في إحدى الدول من صعود جماعة لسلم السلطة بطرق غير مشروعة ؛ حتى تتمكن في النهاية من السيطرة على مقاليد الأمور .

جريدة روز اليوسف

يونيو 2011 - محمد عبد الخالق

* * *

يحمّل العشماوي عمله الأول برؤى وآراء سياسية، إن رواية «زمن الضباع» تدور حول فكرة أساسية هي غياب الإيمان بالقوة داخلنا ؛

مما أدى إلى تدهور أحوالنا في كل المجالات، وبالتالي كان الانهيار هو النتيجة الحتمية .

أسامة فاروق – جريدة أخبار الأدب

يناير 2012

* * *

أشرف العشماوي كان مبدعا حقيقيًّا في روايته الأولى «زمن الضباع» ، التي تشرح بصدق وبأسلوب أدبي راق ورائع وشديد الجاذبية ظاهرة نهش الأوطان في عالمنا العربي المعاصر ، من خلال قصة رمزية جميلة .

الكاتبة الصحفية والأديبة سلمى قاسم جودة – مجلة آخر ساعة .

أغسطس 2011

* * *

كتاب سرقات مشروعة

كتاب سرقات مشروعة لأشرف العشماوي يختلف تماما في بنائه وموضوعه عن الكتب التي تعالج الموضوعات المشابهة، والتي صدرت بعد الثورة، تتهم مسئولين بالنظام السابق في تجارة آثار وغيرها، فهو أقرب إلى أن يكون وثائقيًّا وتاريخيًّا ولكن بأسلوب أدبي قصصي مشوق .

جريدة الشروق – مايو 2012

* * *

يعكس كتاب سرقات مشروعة تحول المجتمع المصري على مدار 200 عام منذ بداية حكم محمد علي باشا لمصر ، وحتى ثورة يناير ، ولا يقف الكتاب عند هذا الحد فهو يسرد تجارب كاتبه الشخصية في مجال استرداد الآثار ، وهي تجارب سمح له عمله في وزارة الآثار ، ليس فقط أن يكون شاهدا عليها بل أن يكون كذلك عضوًا فعالًا و إيجابيًّا فيها.

وكالة أنباء الشرق الأوسط

مايو 2012

* * *

إشفاقا مني على القارئ العزيز. أوصيه عند قراءة كتاب سرقات مشروعة أن يتحلى بضبط النفس والسيطرة على أعصابه ؛ حتى يمكن أن يستوعب هذه المهزلة القومية في السرقات الأثرية على مدار أربعة فصول ممتعة للغاية ، إن حصول مصر على كنوزها المسروقة لن قل عظمة وأهمية عن عبورها قناة السويس في أكتوبر 73 . وهذا كتاب يحكي من خلال موقع كاتبه المستشار أشرف العشماوي كمسئول عن ملف استرداد الآثار المهربة بوزارة الدولة للآثار، التفاصيل المذهلة لرحلة خروج هذه الكنوز. وأيضا رحلة استردادها.

رياض توفيق – جريدة الأهرام

أغسطس 2012

* * *

لم يخطئ المستشار العشماوي عندما أطلق على كتابه المهم عنوان «سرقات مشروعة» فأكثر من نصف آثار مصر قد خرج بالقانون ولم يعد ، ويتعرض الكاتب للعديد من القصص عن خروج القطع المهمة والنادرة واستردادها مثل استرداد آثار مصر من إسرائيل، وخروج رأس نفرتيتي وحجر رشيد وجداريات متحف اللو□ر، كذلك لسرقة مجوهرات أسرة محمد علي ، وحكايات خروج معابد بأكملها من مصر وعرضها فى بلاد أوروبا حتى سرقة المتحف المصري واحتراق المجمع العلمي في عام 2011 .

الصحفية/دينا عبد العليم - جريدة اليوم السابع

* * *

«سرقات مشروعة» كتاب مهم للمستشار أشرف العشماوي ، يرصد كيفية خروج الآثار المصرية على مدار 200 عام بالوثائق والصور .

وكالة رويترز- مايو 2012

* * *

يعتبر كتاب «سرقات مشروعة» لأشرف العشماوي من أهم الكتب الوثائقية التي تستعرض صفحات مجهولة من تاريخ سرقة ونهب وتهريب آثار مصر وتراثها في القرنين الأخيرين ؛ مما أدى إلى وجود أكثر من نصف الآثار المصرية في الخارج .

موقع الجزيرة نت الإخباري/ بدر محمد بدر

* * *

سرقات .. ومشروعة ؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه هذا الكتاب ويحاول الإجابة عنه. وهو ما يثير لديّ الكثير من الآلام والحيرة التي استعدتها مع هذا الكتاب الذي صدر أخيرا للقاضي أشرف العشماوي ، بعنوان سرقات مشروعة، ويكشف فيه صاحبه أسرارا كثيرة عن خروج آثارنا من مصر بسبب القوانين واللوائح ، وهو محاولة ترينا كيف يكون القانون هو الحامي والجاني معا؟ وكيف يتحايل الإنسان ليسرق نفسه أو يترك غيره ليسرقه، ويكافح لتصبح السرقة مشروعة؟!

الصحفي/ مصطفى عبد الغني – جريدة الأهرام

* * *

كتاب «سرقات مشروعة» للعشماوي ، هو ملخص 200 عام من سرقة آثار مصر ونهبها بالقانون .
نبيل سيف – جريدة الفجر - مايو 2012

* * *

رواية تويا

وصلت للقائمة الطويلة لجائزة البوكر العالمية للرواية العربية لعام 2013 .

في ثاني عمل روائي له يسجل المستشار أشرف العشماوي انتصارًا سرديًّا فائقًا بإصداره رواية ، يمكن أن توصف بأنها كلاسيكية تحمل اسما فرعونيا «تويا»، وتأتي هذه الصفة لها من اعتمادها على الراوي الذي يحيط علما بكل الشخصيات والبواطن، وعنايتها بالحبكة الدرامية التي تربط جميع الخيوط المتناثرة ، وتجيب عن كل الأسئلة دون أن تترك شيئا يذكر كما تفعل الروايات الحداثية.

الدكتور صلاح فضل – جريدة الأهرام

* * *

تويا رواية أدبية رائعة عن صراع الهوية ، ومنذ الإهداء نجد أنفسنا أمام هذه الثنائية الفردية التي يجعلها المؤلف مرتكزًا لفهم عالمه : «إلى من يظن أنه يتخذ جميع قراراته بعقله فقط، تأكد أن قلبك يخطو الخطوة الأولى في أحيان كثيرة، فتكامل ثنائية العقل والقلب وليس انفصالها، ينسحب على مجمل رؤيته فى هذه الرواية».

الصحفي بلال رمضان- اليوم السابع

* * *

رواية تويا .. حين تكون النفس حائرة بين الحلم والواقع تظهر الجذور الإنسانية العميقة لبطل هذه الرواية .

إيهاب مسعد – جريدة العرب القطرية

* * *

تويا عمل أدبي ممتع للعشماوي ، فمنذ البداية يضع المؤلف بطله في تناقض بين نفسه ومجتمعه ، بين حلمه وواقعه ، فتتغير ملامحه النفسية .. بطل تراجيدي إغريقي ينتقل من موقع السلب إلى موقع الإيجاب.

نادية البنا – جريدة أخبار اليوم

* * *

في رواية « تـويا» يغادر أشرف العشماوي مجازاته الكبرى ، التي أقامها في روايته الأولى«زمن الضباع» فلم يتخفَّ وراء الرموز والاستعارات قاطعًا بذلك وشائجه مع تراث كبير في هذا السياق، بعد أن جربه مرة واحدة، وهو الإبلاغ على لسان الطير والحيوان، كما في كليلة ودمنة، ومنطق الطير ؛ ليقول ما يريد دون خوف هذه المرة، فيدخل إلى عوالم حقيقية وواقعية ممتعة ، راصدًا بخبرته الإنسانية الكبيرة ، دوافع أبطاله وطموحاتهم وانكساراتهم .

جريدة أخبار الأدب – مصر

* * *

لقد حملنا أشرف العشماوي معه على أجنحة روايته «تـويا» التي نسجها على إيقاع ناعم لنتابع قصة حب رقيقة، راقية .

جريدة الوطن – البحرين

* * *

«تويا» رواية عن العودة إلى الجذور الإفريقية وصراع الهوية بين الغرب والشرق، عمل أدبي ممتع ورائع ، ويحوي قصة رومانسية رقيقة تعود بنا إلى زمن الرواية الجميل .

موقع محيط الإخباري

* * *

في «تويا» يفاجئنا أشرف العشماوي بعالم مدهش وسط أحراش إفريقيا قارة القهر والحرية، الطبيعة البكر والتجارة في البشر وبين ذلك كله تستيقظ قصة حب جميلة بين يوسف وتويا التي تحمل اسمًا فرعونيًّا له دلالته التاريخية، هل ينتصر البشر على تجارة الأعضاء البشرية؟ حتى نصل إلى إجابة نكون قد قطعنا رحلة ممتعة وسط المكان والأرواح المتمردة.

الروائي: إبراهيم عبد المجيد

* * *